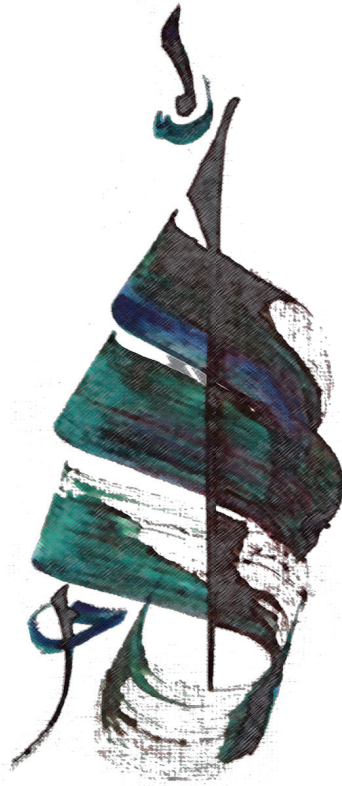


أسماء السور

ودورها في صناعة النهضة الجامعة



د. فؤاد البنا

فَأَقَلَّ

بهدري ولا يباع



أسماء السور  
ودورها في صناعة النهضة الجامعة

د. فؤاد البنا

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

## د. فؤاد البنا

من مواليد اليمن ١٩٦٧م، حاصل على دكتوراه في الفكر الإسلامي السياسي عام ٢٠٠٠م من جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم - السودان، شغل مناصب عديدة منها أستاذ مشارك للفكر الإسلامي بكلية الآداب جامعة تعز - اليمن، رئيس قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة الوطنية وأستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة تعز، وهو عضو مجلس أمناء مؤسسة الحوار للأدب والثقافة والفنون في الحديدة.

ألف العديد من الكتب والدراسات المطبوعة والمخطوطة، أبرزها «إيجاز البيان في إعجاز القرآن»، و«حاضر العالم الإسلامي ومعضلاته»، و«مباحث في الثقافة الإسلامية»، و«التفكير الموضوعي في الإسلام»...



نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (+965) - فاكس: 22445465 (+965)

نقال: 99255322 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،  
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير  
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

مارس 2012 م / ربيع الثاني 1433 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: [www.islam.gov.kw](http://www.islam.gov.kw)

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 20 / 2012

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 088 / 2012

ردمك: 978-99966-50-41-3

## فهرس المحتويات

- ٧ ..... تصدير
- ٩ ..... مقدمة
- ١٦ ..... أعلام السور بيارق للحضارة
- ٢٣ ..... مربع النهوض الحضاري من خلال أسماء السور القرآنية
- ٢٩ ..... أهمية القراءة في إيجاد (العلق) الحضاري
- ٦٢ ..... (النمل) وعوامل مضاعفة الفاعلية الحضارية
- ٨٤ ..... خصال (الأنعام) من كفار البشر!
- ٩٤ ..... مجففات منابع الفرقة في (سبأ)
- ١٠٨ ..... اكتناز (الكهف) لعوامل الفاعلية الحضارية
- ١٢٢ ..... عسل (النحل) الشافي للناس من الفوضى
- ١٤٨ ..... عوامل الاصطفاء لـ (آل عمران) و«خير أمة أخرجت للناس»
- ١٩٠ ..... فاعلية (الحديد) في صناعة الحياة!
- ٢٠٩ ..... صفات المنضوين تحت لواء (محمد)
- ٢١٨ ..... شلال (النور) بين فضائل الشمس ووذائل النفوس
- ٢٤٥ ..... قبل الختام
- ٢٥١ ..... الخاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

فقد شاء الله لكتابه الحكيم أن يظل ينبوعاً للأسرار واللطائف، يستمد منه كل جيل ما يظن أنه قد بلغ به أوج انتفاعه وبغيته، ثم يقبض الله سبحانه وتعالى للأجيال اللاحقة، بناء على عدله ورحمته واختباراً لخلقه، عقولاً متدبرة تشور القرآن الكريم، وتستبطن معانيه التي لا تنقضي عجائبها.

وقد سعى الباحث فؤاد البنا إلى أن يولي أسماء سور القرآن الكريم جانباً من العناية والاهتمام، وأن يقدم قراءة لها في ضوء المنظور الحضاري الذي يمثل ثمرة التفاعل بين العقل والوحي والواقع، دون أن يخرج بذلك عن سنن الضوابط اللغوية والسياقية والمنهجية التي تجنب الباحث الوقوع في مغبة التأويل.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم إلى جمهور القراء الكرام هذا الكتاب الطريف في بابهِ وموضوعه، إسهاماً منها في تطوير الدراسات القرآنية وربطها بالأبعاد الاجتماعية والتنموية والحضارية .

سائلين المولى عز وجل أن ينفع به ، وأن يثيب مؤلفه .. إنه سميع مجيب.





مقررة





الحمد لله الذي أنزل القرآن وعلمه وبيّنه وحفظه، والصلاة والسلام على محمد ﷺ رسول الفرقان الذي تجاوز برسالة القرآن الزمان والمكان، وصار رحمة للخليفة كلها في كل العصور إلى أن تقوم الساعة.. أما بعد:

فإن دين الإسلام دين إنساني عالمي، جاء من أجل خير بني الإنسان في معاشهم الدنيوي ومعادهم الآخروي. ويُعد هذا الدين صنيعه القرآن، وهو كتاب الهداية الخاتمة، ونزل بلسان عربي مبين، على نبي عربي بين أناس من العرب، وكان هؤلاء العرب يومئذ أكثر أمم الأرض انحطاطًا وتخلّفًا في شتى ميادين الحياة الحضارية، إذ كانوا في ذيل القافلة البشرية فصاروا خلال أمد قصير في مقدمة الركب الإنساني، وكانوا على رأس قائمة التخلّف الحالكة السواد، فصنعوا آلاف الصفحات البيضاء وسطّروها بأمجاد جعلتهم أعجوبة الزمن وآية الأمم، وكانوا في عداد الأموات فصاروا يصنعون الحياة ويقودون الأحياء.

ولا يشك أحد في أن الفضل في هذا التغيير المبهّر المعجز يعود إلى هذا الدين العظيم، وبالذات إلى معجزته الخالدة القرآن الكريم، الكتاب الذي اكتنز هداية السماء واستوعب نبوات الأرض، فصار مهيمناً على سائر الكتب. وكفى بهذا الكتاب إعجازاً أنه جعل من أوهن القبائل أعظم أمة أُخرجت للناس، ومع هذا فإن أوجه إعجازه لا تكاد تُحصى، وما زال هذا الإعجاز يرسل أشعته وألوانه الجديدة المبهرة، دون أن ينقطع مدده أو ينفد مداده، ودون أن تنقضي عجائبه أو تنتهي نجائبه.

إن ميادين الإعجاز الفسيحة تستوعب شتى العلوم والمعارف والخبرات الدقيقة، وتشتمل على سائر المبادئ والقيم والتشريعات الناجعة، وتتسع للنبوءات وأخبار الغيب، أما عن الفصاحة والبلاغة والبيان، فإن هذا ما أبهر وأعجز العرب الأوائل الذين كانوا آيات في الفصاحة والبيان، وما زالت بساطينه مليئة بكل ما أزهو وأبهر، وبكل ما لذ وأينع من قطوف

السحر الحلال وأطايب البيان الزلال؛ وهو ما يُثبت الله به إعجاز هذا الكتاب، ولا يكشفه لعباده في كل زمن إلا بقدر معلوم؛ حتى لا ينقطع عطاؤه وإبهاره إلى قيام الساعة.

إن هذا الكتاب العظيم قد أحكمت كلماته وآياته وسوره من لدن حكيم حميد، ومع تقلب الزمان وتغير المكان وكثرة الدارسين لهذا القرآن، تم اكتشاف صور كثيرة من الإعجاز يصعب حصرها، وما زال شلال الإعجاز يتدفق وعطاؤه يتألق، بل لا يزيده تقدم العلم إلا غزارة وعذوبة وتدققاً.

ومن صور الإعجاز البياني ما يرتبط بأسماء السور وترتيبها، وقد أُلّف بعضهم حول بعض المفردات المرتبطة بأسماء السور ولاسيما ترتيبها، ومع هذا وَلَجَت هذه الدراسة إلى عالم السور من خلال أسمائها، وبالذات في موضوع جديد لم يسبق للدارس - حسب علمه - أن قرأ شيئاً كُتب فيه.

إذًا، تستهدف هذه الدراسة اكتشاف العلاقة بين أسماء السور والموضوعات التي تتمحور حولها من جهة، وبين العناوين والشروط والمقومات الضرورية لإيجاد أي نهضة حضارية، من جهة أخرى.

وقد تأمل الدارس طويلاً في هذا الموضوع، وكان قبل التعمق غوصاً في أعماق السور والكتابة فيها قد افترض أن مجموع أسماء السور تتظافر في إيجاد منهج متكامل للنهوض الحضاري الشامل، إذ الاسم يوفر أساساً من أسس التمكين الحضاري أو عموداً من أعمدة النهضة، أو جداراً من الجدر الضرورية لإيجاد المبنى الحضاري، وإعادة «خير أمة أخرجت للناس» إلى موقع الشهود الحضاري والشهادة على الناس.

وتفترض الدراسة - بل هذا ما تؤكده بعد انتهاء رحلة الغوص - أن كل سورة تتظافر آياتها وتتكامل مقاطعها جميعاً في سياق صناعة جناح من الأجنحة المطلوبة للأمة لمعاودة الإقلاع الحضاري واستئنافه، هذا الجناح يمكن معرفة كنهه من خلال التأمل العميق في اسم السورة ومقاطعها وآياتها، وفي

الأخير لا بد أن يكون هذا الجناح ذا صلة بموضوع من موضوعات النهوض الحضاري، ويُعبّر عن هذا الموضوع بعنوان ما، من المؤكد أن يمثل اسم السورة حجر الزاوية في هذا العنوان. وهذا الأمر بحاجة إلى تدبر عميق، وربط للنصوص الجزئية بالمقاصد الكلية لهذا الدين الذي أرسى مداميكه هذا الكتاب الحكيم المهيمن على كل أبعاد الهداية.

إن المتدبر للقرآن يلاحظ أن «أسماء» السور القرآنية تنشئ الظروف المواتية والدوافع المُفجّرة لـ«أفعال» النهوض الحضاري، فإن هذه السور بأسمائها وقضاياها الكلية توفر المحركات المطلوبة لاستئناف عملية الإقلاع الحضاري المنشود اليوم، وبأفضل وأرقى شروط وإمكانات العصر، مما يجعل من الممكن القول: إن «عناوين» هذه السور صارت «مضامين» للنهضة الحضارية، إذا أحسن أهلها تمثيلها في أفكارهم وتمثيلها في أفعالهم!.

هذه السور تمثل روافع (ربانية) لتشييد النهضة (البشرية) المطلوبة لعمارة الأرض وخدمة الخلق وإرضاء الخالق؛ لأنها بجانب توفير خارطة الطريق وبوصلة السير، تنشئ الدوافع القوية للمضي في طريق العمارة والتشييد، كيف لا وطريق (العروج) إلى فردوس السماء يبدأ بـ(التعريج) على فردوس الأرض؟!

إن أسماء السور أعلام تنتصب في سماء القرآن لتصنع بيارق للنهوض في دنيا الإنسان، وإن للعناوين القرآنية الجامعة دوراً مشهوداً في صناعة أعمدة النهوض الحضاري بالأمس، وهذا ما لا بد منه اليوم كفضيلة وضرورة، وما سيتم يقيناً في المستقبل كحتمية اجتماعية وسنة ربانية.

الجدير بالذكر هنا أن الدارس اعتمد على المنهج التحليلي، حيث استدعى النصوص ذات الصلة، وحاول تحليلها وتثويرها، في حدود قواعد اللغة العربية بالطبع، في قراءة كلية شاملة لكل سورة على حدة، قريبة

الشبه بالتفسير الموضوعي، لاستخراج الدرر الكامنة في هذه السور، وحشد الحجج والبراهين والشواهد التي تؤكد تمحور كل سورة حول عنوان جامع مرتبط بعنوان السورة، لتصب جميعها في ورشة واحدة، وهي ورشة التصنيع لأجنحة الإقلاع الحضاري المنشود.

اخترنا في هذه الدراسة عشرًا من سور القرآن الكريم، وراعينا في اختيارها التنوع الذي يجعلها معبرة عن المشهد القرآني برمته، فقد توزعت بين أول وأوسط وآخر ما نزل، وبين القرآن المكي (ست سور) والمدني (أربع سور)، وكذا بين السور الطويلة والمتوسطة والقصيرة، وتوزعت في نقطة الارتكاز البنائي بين بناء الفرد وبناء المجتمع وبناء الأمة.

وقبل تحليل ودراسة هذه السور بدأ المؤلف بموضوعين يحسبهما جديدين من نوعهما، قرأ فيهما أسماء كل سور القرآن، وتمعن فيها ملياً، حيث أرجع البصر كرتين بل وكراًت، ليبدو له أن هذه الأسماء أعلام ربانية تصنع يبارق حضارية في واقع الناس، حيث احتوت على الشروط الأربعة الضرورية لرقى أي شعب ونهوض أي أمة.

وقد حاول المؤلف الإحاطة بمفردات كل موضوع دون إطالة، حيث أحال على كثير من الآيات، مكتفياً بالأهم أو بنماذج منها مع الاختصار في شرح مواضع الشواهد، واكتفى بالعناوين في كثير من الجزئيات والتفاصيل، واقتصر على الضروري في التمهيد لأي موضوع، مع الاختصار الشديد في الاستنتاجات والخلاصات، وانطلاقاً من ذات المقصد لم يتوسع في المراجع والحواشي، كل ذلك بغرض الانسجام مع إيقاعات العصر والمحافظة على وقت القارئ، وعدم إصابته بالسأم والملل.

وعلى كل حال، فإن المؤلف قد اجتهد في فهم وتحليل بعض السور القرآنية، كصورة من صور تثوير القرآن، لتأصيل موضوعات النهوض الحضاري التي تحتاجها أمتنا في هذا العصر.

وكلل اجتهاد بشري فإن هذا الجهد يحمل إمكانات الصواب والخطأ،  
فأشكره تعالى على ما هدى ووفق، وأستسمحه وأستغفره على الخطأ،  
وأدعوه أن يثيبني أجر المجتهد المخطئ، إن لم أكن أهلاً لأجري المجتهد  
المصيب، ولله الحمد من قبل ومن بعد.



## أعلامُ السورِ بيارقُ للحضارة<sup>(١)</sup>

المتدبر للقرآن هو المؤمن الحق، ومن تدبر القرآن قراءته مرتان: قراءة إجمالية تركز على المقاصد العامة والصورة الكلية، وقراءة تفصيلية تلاحظ كل آية وجملة وكلمة وحرف..

في القراءة الإجمالية يذلف متدبر القرآن إلى محراب العبادة الكوني عبر بوابة (الْفَاتِحَةِ)، ويُكوِّن تصوُّره الكلي عن هذا الدين عند تدبر (البَقْرَةِ)، ومعناها في اللغة: الواسعة، فهي الخارطة الحاملة لتعاليم الإسلام الشاملة، والموسوعة الجامعة لعلوم القرآن بصورة مصفرة..

إنه يتدبر عوامل الاصطفاء لـ(آلِ عِمْرَانَ) حتى يكون من المصطفين عند الله، حيث يحاول التحلي بعوامل الاصطفاء الواردة في هذه السورة، وينتقل إلى (النِّسَاءِ) للتعرف على أحكامهن وطبائعهن، ويحرص على الاتصاف بصفات وخصال الرجال، ولا يبقى مجرد ذكر.

ويُكثر من التمعن في (المَائِدَةِ) الجامعة لعلل التدين السقيمة عند أهل الكتاب، فينهل من دروسها حتى يشبع عقله ويرتوي قلبه ويصفو ضميره وتستقيم بوصلته، ولذلك نجده شديد الحذر من الوقوع في صفات (الأنعام)، حيث إلغاء وتعطيل جهاز الوعي، عقلا وسمماً وبصراً، والتحول إلى حيوان بشري فتاك!.

ولأنه يُعمل سمعه وبصره، فيوفران المعلومات الدقيقة لعقله، فإنه لا ينقض غزله بيديه، حيث يتجنب الوقوع في الخلط بين الحسنات والسيئات، حتى لا يكون في القيامة من أهل (الأعراف)، فضلاً عن أن يصير من المفلسين في ذلك اليوم الرهيب..

إنه يحرر نفسه من أطماع وإغراء (الأنفال) والأموال العامة، لتظل

١- ما بين قوسين: في أسماء لسور القرآن الكريم.

في يده ولا تتسلل إلى قلبه، وبحيث يملك الأموال ولا تملكه، ويتحكم بها ولا تتحكم به، ولا يخدمها بل تخدمه، ومن ثم فإنه يفنيها في الحق حتى لا تفنيه في الباطل!..

ولأنه يدرك الطبائع البشرية الكامنة في نفسه، فإنه يظل في معركة دائمة ودائبة معها، بحيث يمارس المراقبة والمجاهدة والمحاسبة بكل صورها تحت لافتة (التَّوْبَةِ) بشروطها الجامعة وعنوانها العريض، وهي بهذا الوُسْع أهم مما يسمونه في هذا العصر بالنقد الذاتي.

متدبر القرآن الحق يغدُّ الخطى ساعياً نحو الله في صراط مستقيم، لا يعرف الدوران أو المراوغة، هذا الطريق الذي سار فيه سائر (الأنبياء)، ولذلك فإنه لا يمل ولا يكل من إمعان النظر في قصص: (يُونُسَ) و(هُودَ) و(يُوسُفَ) و(إِبْرَاهِيمَ) و(نُوحَ) و(مُحَمَّدَ) صلى الله وسلم عليهم جميعاً، ليستخرج من قصصهم كنوز الترقى، و(الإسراء) بروحه نحو السماء، ويتخذ منها (المعارج) التي توصله إلى الله، وترفعه إلى الفردوس الأعلى، من خلال التدريب على الانتصار على النفس، والدعوة إلى الله، والتضحية في سبيل ذلك بالغالي والنفيس.

المتدبر الحق يستخرج الدروس والعبر من قصص الأمم والشعوب والمجتمعات التي سبقتنا، من خلال قراءته المتدبرة لسائر (القَصَصِ)، ولا سيما قصص أهل (الحجر) و(الرُّومِ) و(الأَحْزَابِ) و(سَبَأَ) و(الأَحْقَافِ) و(قُرَيْشَ) و(الفيل) من أهل الباطل والضلال، إضافة إلى قصص أهل الحق من (الأنبياء) المذكورين في القرآن، إلى الحكيم (لُقْمَانَ)، إلى الفتية من أهل (الكهف)، وهو في هذا وذاك يلاحظ سنن وعوامل: الصعود والهبوط، التقدم والتخلف، العمار والدمار!.

المؤمن المتدبر تدفعه آيات القرآن للاستفادة المثلى من آيات الكون، حيث يهتدي بـ(النَّجْمِ)، ويستضيء بـ(الشَّمْسِ) ويحتمي من حرها ومن عوادي

النَّاسِ) إن اقتضت الضرورة في (الكَهْفِ)، إن عجز عن الاحتماء في  
الْبَلَدِ)، وهو يستنير في عَمَاتِ (اللَّيْلِ) بـ(النُّورِ) المتسلل من قلبه وبضوء  
(القَمَرِ).

المؤمن الحق شجاع، فهو قوي كـ(الحديد)، نقي كـ(الإخلاص)، لكنه  
يخشى الله، فيخاف (القَارِعَةَ) و(الزَّلْزَلَةَ)، ويحذر (العَاشِيَةَ) و(الوَاقِعَةَ)  
و(الحَاقَةَ)، ويتجنب (الدُّخَانَ) و(الجَائِيَةَ)، فهو يعلم أنه لا توبة عندما  
يقع (الانْفِطَارِ) و(الانْشِقَاقِ) للسماء و(التَّكْوِيرِ) للشمس، حيث يعلن  
(النَّبَأَ) العظيم عن ميلاد (القيامة)، فيبرز الناس إلى ساحات (الحشر)  
ويبدأ (التَّغَابُنِ) عندما يأمر بهم (فَاطِرِ) السماوات والأرض إما إلى الجنة  
وإما إلى النار، بينما يقف آخرون في (الأعراف) وجلين لا يدرون ما الله  
فاعل بهم.

المؤمن يدفعه تدبره للانطلاق من آيات القرآن إلى آيات الكون ليقرأها  
ويقيم بينها جسور المودة والتعاقد، ومن ثم يستثمرها في عمارة الأرض  
التي هي مضمون العبودية لله، وبالتالي فهو يتفكر في سائر الظواهر  
الكونية كـ(التَّكْوِيرِ) و(الانْفِطَارِ) و(الانْشِقَاقِ) و(الْبُرُوجِ) و(الزَّلْزَلَةَ)  
و(المعارج)، ويتفكر في (الذَّارِيَاتِ)، ويتمعن في (الطَّارِقِ)، ويخاف من أن  
يكون (الرَّعْدِ) غضب الله عليه!.

المؤمن الحق يعد وقته أعلى ثروة يمتلكها، فيحرص على كل دقيقة في  
اليوم: في (الفجر) و(الفلق) و(الضحى) و(العصر) و(الليل)، وكذا في  
سائر الأيام، حيث يستمر في العمل حتى يوم (الجمعة) نفسها، إذ يعمل  
قبل الصلاة وبعدها، ولا ينسى أوبرك وأعلى وأهم ليلة في العام وهي ليلة  
(القدر)، فإنها خير من ثلاثة وثمانين عاماً وبضعة أشهر.

المتدبر الحق للقرآن يدرك مكانة (الأنعام)، ويعرف كم هي ثمينة تلك  
(البقرة) العظيمة، وكم هي فاعلة لتلكم (النحل) و(النمل) وكم هي

عشوائية في المقابل حشرة (العنكبوت)، وكم هو عظيم ذلك (الفيل)، وكم هي الخيول ذات قيمة كبرى، حيث وصفها القرآن بـ(العاديات)!

متدبر القرآن يعرف أن الحضارة العظيمة تقوم على كواهل الرجال والنساء معاً، فال(المؤمنون) في القرآن الكريم جمع من الرجال والنساء، ومثلما وجد (هود) و(نوح) و(يونس) و(إبراهيم) و(يوسف) و(محمد) و(لقمان)، توجد جموع من (النساء) منهن من ذكرت بالوصف ك(المجادلة) و(المتحنة) وهناك من ذكرها الله بالاسم وهي (مريم) العذراء عليها السلام.

المؤمن الذي يحسن تدبر القرآن يعيش مع الجوعى واليتامى والفقراء في (البلد)، لا يمنعه حزنه من اللهو المنضبط والترويح الملتزم مع (الشعراء) وأهل المزاح والدعابة والضحك، إنه دائم الاختلاط بـ(الناس)، حيث يعرف طبائعهم ويدرك أمزجتهم ويحسن التعامل معهم، لأنه يعرف أن الإسلام دين (الإنسان)، ولهذا فهو يحمل الأعداء لهم، ويسعى إلى إيصال الخير إليهم بجانبه المادي والمعنوي، ومنهم (الكافرون) و(المنافقون)، بل لا يمنع الخير والبر حتى عن الأعداء ك(الأحزاب) الذين شنوا الغارة على المسلمين في المدينة المنورة في السنة الخامسة من الهجرة، وحاولوا اجتثاثهم من الجذور، ومثلهم (قريش) و(الرؤم)، إذ يرى المسلم أن كل (الناس) إخوته في الإنسانية ومن ثم فإنه يقدم المساعدة لمن يحتاجها ويصنع المعروف للجميع.

المتدبر الحق يجعل من الشعائر التعبدية مصادر ومحطات للتزود بالثقوى، فال(السجدة) هي النقطة الأكثر قرباً للإنسان من الله، وهي ضمن محطة الصلاة اليومية التي يمارس فيها المؤمن صورة من (الإسراء) إلى السماء والعروج إلى رب السماوات والأرض، ويفعل مثل ذلك في محطته الأسبوعية (الجمعة)، وفي محطته العمرية (الحج)، ومع حضور الخشوع

والوعي تتظافر كل هذه الشعائر بجانب الصيام والذكر والصدقة لتمنحه طاقة ربانية هائلة، وهي طاقة الخوف من الله وزاد التقوى؛ وهو ما يدفع المؤمن لصون حرمان الناس وخدمة حقوقهم، ويظل شديد الحرص على التقرب إلى الخالق بخدمة الخلق!.

المتدبر الحق لكلام الله، يتعرف عليه تعالى من خلال منهجه، فهو (فَاطِر) السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن، وهو (النُّور) لكل المخلوقات، و(الرَّحْمَن) بهذه الخلائق جميعاً والـ(غَافِر) لذنوب العاصين من الثقلين، مع كونه صاحب (المُلْك) المطلق لهذا الكون، ولهذا فإنه المستحق وحده للعبادة في محاريب الحياة المختلفة: محراب العلم، محراب السياسة، محراب التربية، محراب الاقتصاد، محراب الثقافة، مثل محراب الشعائر التعبدية تماماً.

إن متدبر القرآن يتعلم قيم العمل والنظام والانضباط ويكتسب الحس الجمعي من (النَّحْل) و(النَّمْل)، ويقتبس قيم الوحدة من (الصَّف) و(الصَّافَات)، إنه يستفيد من بأس (الحديد) وقوة (المسَد) وجمال (الزُّخْرَف)، ويتذوق طعم (التَّيْن)، ويستثمر إمكانات (الشُّورَى) في اتخاذ القرارات الخطيرة، من أجل صناعة حياة متينة، تسمح باستعادة (الْفَتْح) واستئناف (النَّصْر) على أعداء الحياة المتوزعين بين عوامل الخلل الداخلية وأطراف التآمر الخارجي، بعد آمد من الزمن تحالفت فيها عوامل الخلل مع أطراف التآمر في صناعة المحن للمسلمين، وتركهم في عراء التخلف دون لباس التقوى الحضارية.

المتدبر الحق للقرآن يعرف أصله وقدره، ومن ثم فإنه يتطهر من أوشاب التراب وأضرار الأرض، ويتزكى من طبائعه البشرية، ولهذا فإنه يتعامل مع (النَّاس) ومع (العَصْر) بقدر كبير من الوعي يمكنه من تنزيل النصوص على الوقائع بصورة صحيحة.

إنه يلاحظ كيف تتكون (الزُّمَر) الفكرية والاجتماعية بالتعارف على الحق أو الباطل. ومن ثم التآلف نتيجة طول المدى، ويرى كيف يتنافس البشر في طريق (التَّكَاثُر)، ولأنه صاحب هدف ومنهج ويحمل رسالة الرحمة، فإنه لا يفتأ يحاور الآخرين مع تحليه بأداب (المُجَادِلَة) والخلاف، وهو يعرف كيف يستتر في (الحُجْرَات) ويترك الناس مستورين في بيوتهم، ويتجنب أسباب (الطَّلَاق) والتناذب، ويشيع ثقافة التسامح والتيسير، ولا يلجأ إلى (التَّحْرِيم) إلا عند امتلاكه البرهان الشرعي وللحاجة الماسة، دون أن يسمح لنفسه بالتحول إلى قاضي يطلق الأحكام هنا وهناك..

إنه شديد الحساسية في التعامل مع بني آدم، ولا يسمح لنفسه يوماً أن يكون في صف (المُطَفِّفِين) في سائر معاملاته ولا سيما المعاملات المالية، ومهما كان حبه لذاته فإنه لا يمكن أن يبوء يوماً بلقب (الهُمَزَة)، ولا يمكن أن يسقط في حفرة الأنانية، ولا يمنع (المأعُون) عن المحتاجين.

إن تدبره للقرآن وانطلاقه من محطة (العَلَق) حيث الأمر: اقرأ، عرفه بعبويه وثغراته ونقاط ضعفه، فهو يعرف أن نفسه الأمَّارة وهواه يمكن أن يجنحا ويجمحا في لحظة ضعف أو نسيان أو اجتهاد خاطئ، حتى إن الرسول ﷺ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، في لحظة اجتهاد بشري - غير دقيقة بميزان السماء - (عَبَسَ) يوماً في وجه الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، فعاتبه الله في كلام يُتلى إلى قيام الساعة!.

وإن الإنسان بطبعه الناسي، لا يفتأ يُذكره القرآن بأصله الأول، عندما كان نطفة حقيرة وحشرة صغيرة أشبه بـ(العَلَق)، فعلمه الله بـ(القَلَم) ما لم يعلم، وأوصله بـ(البَيِّنَة) إلى الهداية الربانية، فقد أرسل له (الأنبياء)، ومنحه (الفرقان)، ووفر له كل إمكانات التعلم التي يمكن أن توصله إلى درجة (لُقْمَان) في الحكمة، ورغم أخذ المؤمن بالأسباب واستفادته من العلوم والمعارف التي يوفرها (القَلَم)، إلا أنه دائم التبرؤ من الحول والطول،

وشديد التسلح بـ(الإِخْلَاصِ) حتى لا يتعثر، ولهذا فإن الله يُثَبِّتَهُ بالقول الثابت والموقف الثابت والقرار الثابت، بحيث لا يعميه (الدخان) أو يخيفه (الفيل)، ولا يمكن أن تغرق قدماه في رمال (الأحْقَافِ)، وبهذا فإنه يصل إلى درجة (الشَّرْحِ)، حيث البهجة الدنيوية والسعادة الأخروية.

وقبل هذا كله وبعده، فإن المتدبر لهذا الكتاب، بقدر ما يتعرف على عظمة الله من خلال آياته الكونية وآياته النفسية والاجتماعية عبر عمليتي التفكير والتبصر، فإنه يلجأ إلى محراب العظمة الإلهية من خلال باب التدبر لآيات القرآن، هذا القرآن المعجز الذي يتكون من سور، وكل سورة تتكون من آيات، وكل آية من كلمات، وكل كلمة من حروف، هذه الحروف ذاتها التي صاغ بها الفصحاء والبلغاء كلامهم شعراً ونثراً، ومع ذلك أنى للثرى أن يطاول الثريا؟ إن هذا القرآن مكون من ذات الحروف، مثل: (ص) و(ق) و(طه) و(يس)، ومع ذلك أصبح دستوراً للبشرية جمعاء في عصورها وشؤونها كلها، حيث (فُصِّلَتْ) آياته من لدن حكيم حميد، ليصير هذا الكتاب بجدارته: (النور) الذي يبدد ظلمات الجاهلية والطواغيت، و(الفرقان) الذي يميز بين الحق والباطل، المعروف والمنكر، الخير والشر، النفع والضرر، فاعتز بفضل القرآن (الإنسان) وسعد ببركة تعاليمه (الناس).

في ظلال هذا القرآن، ويفضل تدبره، انتصر (القلم) على السيف، و(المؤمنون) على (الأحزاب)، و(الفجر) على (الليل)، و(الضحى) على الدجى، و(النبا) على الأكاذيب، و(البيّنة) على الخرافات، و(الإخلاص) على الرياء والسمعة، و(التوبة) على صكوك الغفران، و(الكهف) على قصور الفرس والروم. لقد انتصر (الأنبياء) على (المطغنين)، و(آل عمران) على آل فرعون، و(الجمعة) على السبت والأحد وسائر الأيام، وأخيراً انتصر (النصر) على الخذلان والوهن والغثائية، وانتصر (محمّد) على الشيطان!.

## مربع النهوض الحضاري

### من خلال (أسماء) السور القرآنية

إن كل ما له صلة بالقرآن معجز ومبهر، ومن ذلك أسماء السور القرآنية، فإن المتأمل فيها كعناوين يجد أنها لم تغادر صغيرة ولا كبيرة من شروط ومتطلبات النهوض الحضاري في العالم الإسلامي إلا أحصتها. وقد تمعن كاتب هذه السطور كثيراً في عناوين السور، فوجد أنها تتظافر لتكوين مربع يتكون من أربعة أضلاع، تضم كل متطلبات النهوض الحضاري، لو انطلقنا منها وأحسننا استثمارها، وهي:

- الإيمان بأركانه الستة.

- الإنسان بطبائعه وتحركاته ومعاملاته.

- الأفكار والقيم.

- الطاقات المطلوبة في العمارة وصناعة الحياة.

وستنولى في هذه السطور استعراض هذه الأضلاع الرباعية، وسنورد في كل عنوان أسماء السور التي توفر مفرداته ومتطلباته.

أولاً - الإيمان بأركانه الستة:

ثبت تاريخياً أن الحضارات الكبرى قامت على إيمان أو معتقد ما، هذا الإيمان صنع الدافعية وإرادة التغيير والنهوض، حتى وإن كان إيماناً مغشوشاً ما دام أصحابه يعتقدون أنه حق، فإنه يؤتي أكله ولو إلى حين.

والمتأمل في أسماء السور القرآنية سيجد الحضور الواسع لكل أركان الإيمان الستة المعروفة في الإسلام:

١ - الإيمان بالله:

الإيمان بالله هو بداية عقد الإيمان، كما أن الإيمان باليوم الآخر هو نهاية



ذلك العقد الثمين، ولذلك أولتهما أسماء السور عناية كبرى كما فعلت الآيات تمامًا، ومن أسماء السور ذات الصلة بالإيمان بالله وحده، ربًّا وإلهًا، وبأسمائه وصفاته الحسنی: (النور - فاطر - غافر - الرحمن - الأعلى).

ولنتخيل الآن مجتمعًا يوحد الله في ربوبيته، فيرى أنه الخالق وحده (فَاطِر) وأنه (نُور) للسموات والأرض الذي يبدد جهلها وجاهليتها، وأنه فوق كل المستكبرين والطغاة والمتألهين بعلمه وقدرته وسائر صفاته وأفعاله (الأعلى)، ومع كل ذنوب البشر هو وحده من يغفر (غَافِر) ويرحم (الرَّحْمَن)، أفلا يكون هذا أساسًا لتلقي أوامره تعالى في العبودية وخلافة الله في عمارة أرضه وفق منهجه؟

## ٢- الإيمان بالملائكة:

حملت بعض سور القرآن الكريم صفات بعض الملائكة - وهم الركن الثاني من أركان الإيمان - هذه السور هي: (الصفات - النازعات - المعارج) لقوله تعالى: ﴿مَرَكَّ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤]. فالمعارج هنا إذا هي مصاعد الملائكة<sup>(١)</sup>.

- الرسائل [على رأي بعض العلماء والمفسرين، بينما ذهب جمهور المفسرين إلى أنها الرياح]<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت صلة الجن بالملائكة صلة قوية كمخلوقات خفية عن الإنس، فقد أفردت إحدى سور القرآن اسمها لهذا الصنف من المخلوقات وهي سورة (الجن).

وهكذا، فإن الإيمان بالملائكة يسهم بلبنة في إيجاد الأساس الذي تقوم عليه الحضارة، ولا سيما ما يرتبط منها بمحاولة التشبه بهذه المخلوقات

١- انظر مثلا: أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط١، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٣ = ٢٠٠٢)، ص ١٦٧٥.

٢- نفسه: ص ١٧١١.

النورانية التي لا تعرف للعصيان طريقاً، مع تشديد الرقابة على الذات؛ لأن صنفاً من الملائكة (رقيب وعتيد) مهمته تسجيل أنفاس الناس وكلماتهم وأفعالهم، سواء في الصفحات البيضاء إن كانت حسنات أو في السجل الأسود إن كانت سيئات.

### ٣- الإيمان بالكتب:

إذا استعرضنا سور القرآن الكريم سنجد من بينها (الفرقان)، فهو اسم سورة وهو في الوقت ذاته اسم من أسماء القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ونلاحظ هنا اقتران اسم (الفرقان) بالعالمين، نظرًا لكون رسالة الإسلام عالمية، وحضارته إنسانية.

ومن سور القرآن سورة (البينة)، والمقصود بها القرآن الكريم عند بعض المفسرين، وذهب بعضهم إلى أن البينة محمد ﷺ، وذهب آخرون إلى اشتمال البينة للقرآن والرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

ومن السور القرآنية التي تتصل بالقرآن سورة (فصلت)، وعنوان السورة جاء على صيغة فعل ماض مبني للمجهول، وأخذ من قوله تعالى: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وهناك سور أخرى حملت أسماءها حروفًا مقطعة ذات صلة بإعجاز القرآن، وتحدي الخالق للناس بأن يأتوا بمثله رغم وجود المادة الأولية التي تكون منها القرآن -وهي الحروف العربية- بين أيديهم، هذه السور هي: (طه - يس - ق) ولأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة نسخًا وشمولًا،

فإنه يمتلك منهجًا متكاملًا لبناء حضارة عظيمة، عندما فهمها المسلمون وطبقوها -في عصور خلت- أقاموا أعظم حضارة أخرجت للناس!.

١- من الصنف الثالث: أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير: ص ١٧٧٧.

#### ٤- الإيمان بالرسول:

أورد القرآن عدداً من السور التي تحمل أسماء الأنبياء أرسلهم الله برسالات عظيمة إلى أقوامهم، وقد أورد القرآن خمسة وعشرين اسماً من أسماء الأنبياء، لكن الذين تربعوا منهم على قائمة أسماء السور، وصارت أسماؤهم عناوين لعدد من السور هم فقط وفق ترتيب السور: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، محمد، نوح صلى الله وسلم عليهم جميعاً، وجاءت ثلاث سور تحمل وصفاً أنبياً للنبي ﷺ، سواء في حالة النداء وهي (المُزَمَّل) و(المُدَّثَر) أو في حالة العتاب وهي (عَبَسَ)، وعبس فعل ماض صار عنواناً لواحدة من سور القرآن الكريم، كأن هذا الفعل رغم بساطته إلا أنه صار من الماضي الذي لن يعود ولن يتكرر أبداً.

وهناك سورة (النَّبَأُ) التي اختلف المفسرون حول المقصود بـ(النَّبَأُ) العظيم، فذهب بعضهم إلى أنه القرآن الكريم، ومنهم الدكتور محمد عبد الله دراز الذي ألف أحد أفضل الكتب القرآنية في العصر الحديث تحت عنوان (النَّبَأُ العظيم)، وذهب مجموعة ثانية إلى أن المقصود به هو محمد ﷺ، بينما ذهب آخرون إلى أن المقصود به القيامة<sup>(١)</sup>.

وهناك قول ضعيف لبعض المفسرين على أن (طه) -وهو عنوان لسورة قرآنية- من أسماء النبي محمد ﷺ، لكن أغلب المفسرين والعلماء يرون أنها من الحروف المقطعة التي تلفت الأنظار إلى إعجاز القرآن وتتحدى البشر عن المجيئ بمثله أو بعشر سور أو بسورة منه.

ومن المعلوم أن الرسل قادوا النهضات الحضارية لشعوبهم وأمهم، ومن ثم فإن أسماء السور القرآنية توفر لبنة أخرى في الأساس المتين للحضارة الإسلامية وهو الإيمان.

١- من هؤلاء: عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني في تفسيره الرائع: معارج التفكير ودقائق التدبر، ط١ (دمشق: دار القلم، ١٤٢٧ = ٢٠٠٦)، المجلد الخامس عشر، ص٩.

## ه- الإيمان باليوم الآخر:

هذا الركن هو أكثر أركان الإيمان حضوراً في القرآن، وأكثرها امتلاكاً لأسماء من سوره المباركة، وتنقسم هذه الأسماء إلى ثلاث مجموعات: الأولى: سور تحمل أسماؤها أسماء ليوم القيامة، وهي: القيامة، الحشر، الواقعة.

الثانية: سور تحمل أسماؤها أوصافاً لهذا اليوم أو مشاهد ستحدث فيه، وهي: الجاثية، الدخان، الزمر، التغابن، الغاشية، القارعة.

الثالثة: سور تحمل أسماؤها أوصافاً لعلامات قيام الساعة، وهي: التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

كل هذه السور التي تحمل أسماؤها معاني ذات صلة باليوم الآخر، تتولى زرع الهيبة من ذلك اليوم، حتى تذيب أطماع الإنسان وتظف قلبه من الرغبة في الهيمنة والسيطرة والطغيان، ومن هنا تقوم الحضارات العظيمة، فإذا لم تحضر الحضارة في قلب الإنسان، فلن تحضر في أي مكان آخر!.

## ٦- الإيمان بالقدر:

حملت إحدى أعظم سور القرآن اسم هذا الركن الإيماني، وهي سورة (القدر)، هذه الليلة المزدوجة التي نزل فيها القرآن: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] وتُفْرَق فيها الأقدار، ومن هنا اكتسبت هذه الليلة اسم ليلة القدر: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

والقدر هو عملة ذات وجهين، الأول: استفاد الأسباب، والآخر: استكمال التوكل على الله، والمتعمن في كلا الوجهين يعرف مدى خطورتهما في شحذ الهمم وتفجير الطاقات والارتقاء بالفاعليات.

وهكذا، فإن الإيمان بأركانه الستة يوفر الأساس المتين والركن الركين لأي حضارة، وقد احتوى عليه القرآن، وكما رأينا من خلال أسماء السور فقط كيف اشتملت على هذه الأركان الستة. والإيمان يحمله الإنسان، ولذلك فإنه الضلع الثاني في مربع النهوض الحضاري.

### ثانياً- الإنسان بطبيعته وتحركاته ومعاملاته:

الإنسان هو حجر الزاوية في أي عملية تطور أو نهوض حضاري، أو العكس، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. والمستعرض لأسماء سور القرآن، يجد أنها أفسحت مجالاً واسعاً للإنسان: جنسه، طبائعه، حالاته، تكتلاته، معاملاته، ويمكن تلخيص هذا الأمر في النقاط الآتية:

١- سجلت أسماء السور حضوراً فاعلاً للإنسان الإيجابي في عدد مقدر، اختص بعضها بالذكر، وهي: (الأنبياء)، (لقمان)، أسماء السور التي وردت بأسماء أنبياء وهي: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، محمد، نوح. واختص البعض الآخر بالإناث وهي: (النساء)، (مريم)، (المتحنة)، (المجادلة) على أحد الرأيين للمفسرين، وهم الذين قرؤوها على أنها اسم فاعل بكسر الدال. وهناك سور تشمل الذكور والإناث، إما لأنها جمع وهي: (المؤمنون)، و(الناس)، وإما لأنها اسم جنس وهي سورة (الإنسان).

٢- سجلت سور أخرى حضوراً للإنسان السلبي، ومن خلال سنة المدافعة تستفيد الحضارة من هؤلاء طاقة إيجابية: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]: لأن التدافع يؤدي إلى ذهاب الزبد المتمثل في الباطل والكفر، وتمحيص الحق والارتقاء بفاعليته حتى يبقى ويتمكن، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. ومن أسماء هذه السور: (المنافقون)، (الكافرون)، (الأحزاب)، (قريش)، (الروم).

٣- سجلت عدد كبير من السور بعض طبائع الإنسان، وتقلباته بين أطباق الزمن وتغيرات الحياة، وتنقسم إلى فردية وجماعية. وتوضح الطبائع والحالات الفردية في أسماء سور، مثل: الهمزة، الماعون، التوبة، التحريم، عبس، الشرح، الإخلاص، المزمّل، المدثر.

أما الجماعية فيضمها عدد أكبر من أسماء السور، لأهميتها البالغة، وهي: الزمر، المجادلة، التحريم، المطففين، التكاثر، الماعون، الأنفال، الطلاق، الشورى، الصف، الفتح، النصر.

ولكي نعرف مدى الدور الخطير الذي تمارسه هذه الأسماء -بمضامينها بالطبع- في صناعة الحضارة الإسلامية، فإن كل اسم من هذه الأسماء يمثل رمزاً أو عنواناً لقيمة حضارية يعتقها هذا الإنسان، (فالشورى) حجر الزاوية في السياسة والإدارة، و(الماعون) قاعدة العدالة الاجتماعية، و(المطففين) قيمة اقتصادية وإشارة إلى حقوق الإنسان، و(الأنفال) تشير إلى قيمة مالية، و(الطلاق) و(التكاثر) تشيران إلى قيمة أسرية واجتماعية، و(التحريم) قيمة دينية مرتبطة بضرورة التمييز بين الثابت والمتغيرات، و(الزمر) تشير إلى قيمة اجتماعية وفكرية، و(المجادلة) تشير إلى قيمة الحوار، و(الصف) تتحدث عن قيمة الوحدة، أما (الفتح) و(النصر) فهما يشيران إلى حصيلة وحصاد هذه القيم جميعاً، وهو التمكين ووراثة الأرض.

وبعد استعراضنا لضعلين من أضلاع المربع، فإننا نؤكد أن علاقة الإنسان بالإيمان، ولا سيما الله، هي علاقة مباشرة، فلا واسطة بين الإنسان وبين الله في التصور الإسلامي، كما وقع في النصرانية المحرفة عندما سادت فكرة «صكوك الغفران».

ثم إن الإسلام دين غير لاهوتي بالمفهوم الغربي، بمعنى أن الدين معني بالدرجة الأولى بالمحافظة على حقوق الإنسان، وكل الشعائر والمشاعر التي تربط الفرد بالله كالصلاة والصيام والحج والذكر وقراءة القرآن، إنما

تهدف لتهديب أخلاق وطبائع الإنسان لكي يستقيم في تعامله مع الخلق، ولهذا فإن السور القرآنية سجلت هذه العلاقة المباشرة بين الخالق والمخلوق، من خلال أسماء: التوبة، الإسراء، غافر، السجدة، المعارج. وبجانب ذلك فإن أسماء السور ذات الصلة بعالم الشهادة وبالإنسان خاصة هي الأكثر حضوراً أو بروزاً، من خلال أسماء الإنسان، وطبائعه، وحالاته، وأقوامه، ودوله، وهذا ينقلنا إلى الضلع الثالث المختص بأفكار وقيم النهوض الحضاري.

### ثالثاً- الأفكار والقيم:

يمكن تلخيص ما نريد إيضاحه هنا في النقاط الآتية:

١- التدين الإسلامي تدين عملي أخلاقي مقاصده الكلية مرتبطة بالإنسان: الدين، النفس، المال، العرض، العقل. ومن ثم فإن الإيمان بالغيبيات يعزز الحضور الإيجابي في عالم الشهادة، والشعائر التعبديّة رغم كونها علاقة بين العبد وربّه إلا أنّها ذات مقاصد ناسوتية، وهذا ما يتضح من عموم آيات القرآن ذات الصلة، ومن أسماء السور في هذا الباب، التي هي موضوعنا، وهي:

- (السَّجْدَة) وهي شعيرة يومية ضمن شعيرة الصلاة.

- (الجمعة) وهي شعيرة أسبوعية، يفترض الإسلام أن المؤذن عندما ينادي لها فإن الناس يكونون في حالة عمل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، وعندما تنتهي هذه الشعيرة فإنهم يعودون إلى عبادة العمل مرة أخرى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

- (الحجّ) وهي شعيرة العمر المفروضة، ويمكن أن تكون محطة سنوية

للمقتدر الذي يريد التطوع، نظراً لعوائدها الجمة على الإنسان فرداً ومجتمعاً.

٢- أعلى الإسلام من قيمتي العمل والجهاد بمفهومه العريض، في سبيل عمارة الأرض التي هي إحدى غايات خلق الإنسان: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وتمتد في هذا السياق أسماء عدد كبير من السور، منها: النحل، النمل، الشورى، الزخرف، الفتح، الحديد، الصف، الملك، المزمل، المدثر، النصر، المسد. (والمسد هو العصا التي تُربط بها الحبال).

ومن يركز في قراءة هذه الأسماء لعناوين السور، سيجد أنها ذات صلة وثيقة بقيم العمل والجهاد والإنتاج والتخطيط، وما يرتبط بذلك من مفردات.. ف(النَّحْل) و(النَّمْل) يؤسسان لقيمة النظام والمثابرة. و(الصَّف) و(الصَّافَات) و(المُلْك) تؤسس لقيمة الوحدة والتضامن. و(المُزْمَل) و(المُدَّثِر) تؤسسان لنبذ النوم والقعود، ومغادرة الفراش إلى العمل والجهاد والدعوة.

أما (الحديد) و(الزُّخْرُف) و(المسد) فهي توفر الوسائل المادية لعملية البناء. وتوفر (الشُّورى) و(البَيِّنَة) الوسائل المعنوية: سياسياً وعلمياً، ومن سار في هذا الدرب المورق لا بد أن يثمر، والثمرة واضحة من خلال اسمي سورتني: (الفتح) و(النصر)!

٣- الاهتمام بالعلم والفكر والمنهج السنني والأخذ بالأسباب: حيث إن هذه المنطقة من أشد المناطق ثراء في القرآن، سواء الآيات أو أسماء السور، ويكفي أن نعرف أن أول سورة نزلت على الإطلاق هي سورة (العَلَق) وهي تسجل أول كلمة وأول أمر: ﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، والسورة الثانية في التنزل هي: (القَلَم) وهي الوسيلة الرئيسية في العلم والتعلم، وهناك سور أخرى، ك(البَيِّنَة) التي هي حجة عقلية، و(الفَاتِحَة) التي سجلت التصور الكلي



لبناء هذه الأمة وتميزها الحضاري، و(لُقْمَان) التي سجلت تجربة وتعاليم  
قمة من قمم الحكمة في تاريخ البشر.

وقد سجلت أسماء عدد كبير من السور نبوءات علمية تحققت في هذا  
العصر في سياق ما نسميه بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومنها:

- (العلق): وهو عنوان أول سورة في القرآن، وعنوان مرحلة من مراحل  
خلق الإنسان بعد النطفة، كشف عنها العلم الحديث بعد التطورات التي  
مكنت (علم الأجنة) من تصوير ما يحدث في بطن الأم بدقة متناهية.

- (القمر): وهو عنوان سورة يقول مطلعها: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ  
القَمَرُ ﴾ [القمر: ١]. وقد أثبتت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) أن القمر  
قد انشق<sup>(١)</sup>، وهذا ما ذكرته كتب السنة النبوية كمعجزة من معجزات  
المصطفى ﷺ المادية، وقد وثقت هذه الحادثة تاريخياً، إذ شاهدها أهل  
الهند<sup>(٢)</sup>.

- (الحديد): هذا عنوان سورة ورد فيها قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ  
فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. ويشير الفعل الماضي  
أنزلنا إلى أن الحديد لم ينشأ في الأرض وإنما هو عنصر وافد من خارج  
الأرض. وهذا ما أثبتته العلم الحديث، حيث ذكر العلماء أن تَكُونُ الحديد  
يحتاج إلى ملايين من درجات الحرارة، وهذه الحرارة موجودة في بعض  
النجوم ولا توجد في الأرض؛ وهو ما قادهم إلى الاتفاق مع النص القرآني  
في هذا الشأن<sup>(٣)</sup>.

- (النحل) و(النمل) و(العنكبوت): هذه السور تشير إلى وجود حياة

١- انظر: د. محمد حسن هيتو: المعجزة القرآنية - الإعجاز العلمي والغيبي، ط٤ (بيروت: مؤسسة  
الرسالة، ١٤٢١ = ٢٠٠١)، ص ٢٠٥ - ٢٠٨.

٢- انظر: عبدالمجيد الزنداني: بينات الرسول ومعجزاته، ط٣ (صنعاء: مركز البحوث بجامعة  
الإيمان، ١٤٢٥ = ٢٠٠٤)، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

٣- انظر: عبدالمجيد الزنداني: البيئنة: ص ١٠٣، ١٠٤، د. فؤاد البنا: إيجاز البيان في إعجاز القرآن،  
ط١ (تغز - اليمن: المبدعون، ١٤٢٥ = ٢٠٠٤)، ص ١٥٢.

اجتماعية عند الحيوان، وإلى أنها تمتلك عقلاً نسبياً يمكنها من إدارة شؤونها، بل وتتفوق بعضها في بعض القيم على الإنسان، كقيمة النظام الدقيق عند النحل والنمل، وتتحدث الدراسات العلمية عن حقائق مذهلة في هذا الشأن، ليسجل القرآن بذلك سبقاً علمياً رائعاً<sup>(١)</sup>.

وهناك عناوين لسور أخرى، تحمل صوراً من الإعجاز العلمي في القرآن لا يتسع المقام لذكرها، وهي: النجم، الشمس، الطارق، البروج<sup>(٢)</sup>.

وتوجد عناوين سور صارت من صور الإعجاز الغيبي الذي أخبر القرآن بأنه سيقع ووقع كما تحدث القرآن تماماً، ومن ذلك الإخبار بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين في مطلع سورة (الرُّوم)، والإخبار بانتصار المسلمين على أعدائهم وفتح مكة، وذلك في سورة (الفتح).

٤- الاهتمام بقيم وأخلاق التعايش والتسامح والحوار وتلاقح الأفكار والمشاركة في صناعة القرار، والمراجعة ونقد الذات، وقيم الوحدة والإتقان والإخلاص. وتتضح هذه القيم من عناوين السور الآتية: الشورى، المجادلة، التوبة، الصف، الإخلاص، عبس.

٥- دعوة الإنسان إلى التمتع بالطيبات في إطار عمارة الأرض:

أوجد الله في الإنسان حب الشهوات والميل إلى زينة الحياة الدنيا، وطلب من الإنسان إشباعها بحدود الشريعة التي نظمت هذه الأمور حتى لا يحدث الطغيان والاعتداء على حرمان الآخرين.

والإشباع المنضبط من أهم وسائل تجبير الطاقات المخبوءة في الإنسان، عكس الكبت والحرمان اللذين يصيبان الإنسان بالعقد والأمراض النفسية، وكذلك عكس الإشباع الفوضوي الذي يحوّل الإنسان إلى حيوان شرس، ويشيع قيم الصراع والقتال داخل المجتمع، وينشر الأمراض والأوبئة.

١- انظر: د. محمد حسن هيتو: المعجزة القرآنية: ص ١٨٩ - ١٩٢.

٢- انظر: د. فؤاد البنا: إيجاز البيان في إعجاز القرآن: ص ١٤٥ - ١٥٠.

وإذا تمعنا في أسماء السور التالية سنجد هذه القيمة بادية للعيان: البقرة، الأنعام، المائدة، النساء، النحل، الزخرف، الأنفال، الكهف، الحجرات. ففي هذه الأسماء إشباع شهوات: الأكل والشرب واللبس والسكن والجماع والمال والزينة.

#### ٦- الاعتراف بالآخر:

لا نهوض حضارياً في أي مجتمع أحادي، وهذا ما تؤكدُه الرؤية القرآنية، حيث الاعتراف بالآخر، والتعاون معه في بعض المساحات، والاستفادة منه في بعض القضايا حتى لو كان عدواً؛ لأن «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»<sup>(١)</sup>، كما جاء في الحديث الشريف.

وفي قراءة أسماء السور، نجد حضوراً لافتاً للآخر في هذه الأسماء على مختلف المستويات:

- فالآخر بالنسبة للإنسان هو الحيوانات والجمادات، وهي حاضرة بقوة في أسماء عدد كبير من السور كما سيأتي.

- والآخر في دائرة التكليف هو الجن، وهو موجود في سورة باسمهم (الجن).

- والآخر الديني موجود، ففي إطار الكتابين توجد سورة (الرُّوم)، وفي إطار المشركين توجد سورة (قُرَيْش)، ومن المعلوم أن المسلمين عندما انتصر الفرس - وهم وثنيون - على الروم - وهم نصارى - شعروا بالحزن، فنزلت سورة (الرُّوم) واستهلّت بتسجيل هذه الحادثة وتبشير المؤمنين بانتصار الروم على الفرس: ﴿الْمَّ ۝ غَلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣].

- والآخر الزمني موجود، فقد تحدث القرآن عن (سَبَأاً) و(الأحْقَاف)

١- أخرجه الترمذي في السنن (دمشق: دار الفكر، ١٤١٤ = ١٩٩٤)، ابن ماجه: السنن (دمشق: دار الفكر)، ٤١٦٩.

وكلاهما يقع في اليمن، فسبقاً هي مملكة بائدة منذ قرون طويلة، وكذلك الأحقاف هي أرض قوم عاد في حضرموت والربع الخالي، وقد بادت عاد قبل سبأ بقرون كثيرة.

- الآخر المعادي والكافر: فهناك سور عدة في هذا الإطار، وهي: (قُرَيْش) و(الأحزاب) و(الكافرون).

- الآخر المتآمر من الداخل وهو الطابور الخامس، وُجِدَت سورة يعبر اسمها عنه وهي (المنافقون).

وهكذا، فإن الأفكار والقيم النهضوية كلها موجودة، ولم تبق إلا الطاقات التي تحتاجها عملية البقاء والنهوض.

#### رابعاً- الطاقات والوسائط:

هذا هو الضلع الرابع في مربع النهوض الحضاري الذي يرسمه القرآن الكريم من خلال أسماء سوره، فإن قراءة هذه الأسماء توضح اهتمام القرآن بكافة الطاقات والوسائط المطلوبة للقيام بعمارة الأرض وإيجاد نهضة حضارية شاملة:

#### ١- الطاقات الطبيعية:

من يقرأ القرآن سيجد مئات الآيات التي تحث على النظر في هذا الكون والتمعن في آياته والتفكر في مخلوقاته من نجوم وكواكب وبحار وبراري وسهول وجبال وغابات وصحاري، ونفس الحضور القوي نلاحظه أيضاً في أسماء السور: الرعد، الذاريات (وهي السحب)، الطور (وهو جبل في سيناء)، النجم، القمر، البروج، الطارق، الشمس، التين، المرسلات (وهي الرياح على رأي الجمهور كما أسلفنا).

وفي إطار هذه الطاقات، هناك تنوع في هذه الطاقات، فالشمس حاضرة ولها فوائد كثيرة منها الطاقة الشمسية، وكذا القمر والنجوم والكواكب،

والرياح حاضرة: (المُرسَلات)، والسحب: (الذَّارِيَّات)، والنباتات: (التَّيْن) والجبال: (الطُّور)، والتربة: (الأَحْقَاف)، والمياه: (الكَوْتَر) و(الذَّارِيَّات). ويكمل هذه الطاقات الأموال، وهي حاضرة في اسمي سورتي: (الزُّخْرُف) و(الأنفال).

## ٢- الثروة الحيوانية:

الحيوانات لها فوائد كثيرة لحياة الإنسان، غذاءً، وشراباً، ودواءً وكسوةً، ومواصلات، وغيرها، وقد أولى القرآن هذه الثروة اهتماماً بالغاً في عدد كبير من الآيات، ويتضح هذا الأمر من خلال أسماء السور التي حملت أسماء حيوانات أو حشرات، وهي: (الأنعام - البقرة - النحل - النمل - العنكبوت - الفيل - العاديات [الخيول]).

ومن يقرأ الآيات التي تتحدث عن هذه الحيوانات وعن الظواهر والمخلوقات الكونية السابقة سيلاحظ أن القرآن يقيم علاقة وثيقة بين الإنسان وهذه المخلوقات تقوم على ناحيتين: الأولى: ناحية الاستثمار في العمارة والتمتع بالطيبات، والأخرى: ناحية الاستهداء بأخذ الدروس والعبر منها، والاستفادة منها في نقاط القوة التي تتميز بها، كما فعل نبي الله سليمان باستفادته من الهدهد في أمر ملكة سبأ، وكما فعل ابن آدم الأول عندما استفاد من الغراب في حضر حفرة لجثة أخيه الذي قتله ولم يدرك كيف يصنع بالجثة!

## ٣- ثروة الوقت:

الزمن هو الوعاء الذي تحدت فيه عملية النهوض الحضاري، ولذلك اهتم الإسلام بالوقت أيما اهتمام في القرآن والسنة وتطبيقات الصحابة والسلف الصالح<sup>(١)</sup>، ولذلك سجل التاريخ للمسلمين قيام أكبر إمبراطورية في أقل

١- حول قيمة الوقت في الإسلام، انظر: د. يوسف القرضاوي، الوقت في حياة المسلم، ط٢٠ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ = ١٩٨٥).

من نصف قرن، انطلقت من وسط أضعف شعوب الأرض آنذاك، نتيجة فقر الموارد في شبه جزيرة العرب، واتسام العرب بالفردية والاختلاف والتشردم لأتفه الأسباب، لكنه هذا الدين العظيم الذي خلق الإنسان العربي الجديد، وأحسن استثمار كافة الطاقات ومنها الوقت.

ولعرفة السلف بقيمة الوقت، فقد كانوا شديدي الحرص عليه، يقول الحسن البصري: أدركتُ أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم<sup>(١)</sup>. وهنا يتحدث سيد التابعين الحسن البصري عن الصحابة الذين كانوا بهذا الحرص الشديد على الوقت، ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي قال: ما ندمتُ على شيء ندمي على يوم غربت شمس، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي<sup>(٢)</sup>.

وإذا استعرضنا أسماء سور القرآن سنجد الاهتمام البالغ بالوقت، ويتضح ذلك من عناوين السور الآتية: الجمعة، الفجر، الليل، الضحى، العصر، القدر (ليلة في رمضان)، الفلق: وهو الصبح على الراجح عند المفسرين، ففي اللغة العربية يقال: هو أبين من فلق الصبح. ويسمى فلماً لأن الليل ينفلق عنه الصبح، وقال الفراء: الفلق الصبح<sup>(٣)</sup>.

ومن تدابير القدر أن ترتب السور حسب النزول يجعل سورة (الليل) أولاً ثم (الفجر) ثم (الضحى) وتأتي بعدها سورة (الشَّرح) كأنها تشير إلى بهجة الإنسان وسعادته بمجيء الفجر بعد الليل وباستغلال الإنسان وقته، بحيث يضع كل عبادة بمفهومها العريض في وقتها المناسب، ثم تأتي سورة (العصر) بعدها.

وإذا تمعنا في أسماء السور ذات الصلة بالوقت سنجد فيها ذات التنويع

١- د. القرضاوي: المرجع السابق، ص ١٢.

٢- نفسه: ص ١٢.

٣- انظر: ابن منظور المصري: لسان العرب. ط ١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، المجلد الخامس: ص ١٥٧.

الذي يتسم به المنهج القرآني في كل الأمور والشؤون، فمن أوقات اليوم الواحد جاءت سور: (الفجر) و(الفلق) و(الضحى) و(الليل)، وفي إطار أيام الأسبوع جاءت (الجمعة)، وفي إطار أوقات العام جاءت سورة (القدر) وهي التي نزل فيها القرآن في شهر رمضان، أما بالنسبة لـ(العصر) فهناك من قال بأن المقصود به وقت العصر، وهناك من قال بأنه الدهر، وفي كلتا الحالتين فإن الأمر مرتبط بالوقت<sup>(١)</sup>.

#### ٤- ثروة التاريخ وعبر الماضي:

إن امتلاك أي أمة حصيفة لتاريخ ثري، يعني أنها تمتلك منجماً ضخماً من الدروس والعبر والعظات، وركاماً عظيماً من التجارب والخبرات، سواء كانت إيجابية لاقتباسها والبناء عليها، أو سلبية لتجنب أسبابها وتجفيف منابعها والحذر من الوصول إليها. ولهذا اهتم القرآن بالقصص التاريخية في معظم سور القرآن الكريم حتى إن الحديث عن بني إسرائيل وحدهم احتل قرابة ثلث القرآن الكريم. وعندما نقرأ عناوين السور سنجد الحضور اللافت للماضي عبر السور التي جاءت بأسماء الأنبياء -التي ذكرناها من قبل- وسور أخرى، أهمها: القصص، الأنبياء، آل عمران، المائدة، الحجر، الإسراء، الكهف، الروم، سبأ، الأحقاف، قريش، الفيل.

وهكذا، تكتمل الأضلاع الأربعة لمربع النهوض الحضاري، حيث أبدعت عناوين السور القرآنية في رسمه بدقة متناهية، فكيف بالآيات نفسها؟.. وهذا يؤكد أن تسمية السور توقيفي، ويؤكد من زاوية جديدة قضية الإعجاز الكلي لهذا القرآن الكريم.

١- حول أهمية الوقت وعلاقة سورة العصر بالوقت وسبب قسّمه تعالى بالعصر، انظر: عبد الرحمن حسن حينكة الميداني: معارج التفكير ودقائق التدبر، المجلد الأول: ص ٦٠٥ - ٦٢٣. وممن أورد الرأيين في العصر: عماد الدين اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف. ط١ (المنصورة - مصر: مكتبة الإيمان، ١٤١٧ = ١٩٩٦)، المجلد الرابع: ص ٢٧٥.

## أهمية القراءة في إيجاد (العلق) الحضاري!

سورة «العلق» مكية، وهي أول سورة في القرآن، ولا سيما المقطع الأول منها، فهو أول ما نزل على رسول الله ﷺ، وآياتها: ١٩، وترتيبها المحضفي: ٩٦. وسميت سورة «العلق» بهذا الاسم لورود ذكر «العلق» فيها، بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. والعلق هو الطور الثالث من أطوار خلق الإنسان في بطن أمه، بعد النطفة والمضغة.

هذه السورة تبين خطورة العلم والأهمية البالغة للقراءة في تنمية البذرة الحضارية والترقي بها في أطوار الحضارة، من طور إلى طور، وتتخصص السورة في بيان أهمية هذه القراءة في إيجاد «العلق» الحضاري، حيث جنين الأمة يولد في بطن الأفكار ويخرج من رحم القراءة.

ويبدو أن مقاطع السورة الثلاثة تتظافر في التنبيه على جذور النهوض الحضاري ذات الصلة بالقراءة، رغم أنها لم تنزل مرة واحدة، فقد كان المقطع الأول أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، بينما تأخر المقطعان الثاني والثالث، ومع ذلك فإن السورة تشكل لُحمة واحدة ولوحة متكاملة، حيث تؤسس للجنين الحضاري لأمة المسلمين، ولا سيما ما يرتبط بالعلم والمنهج التجريبي، وتجفيف منابع الاستبداد العميقة وبناء الإنسان الذي يتمتع بالحرية وينحاز إلى الأحرار، ويكره الاستبداد والشمولية، ويجانب ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. وكل ذلك مرتبط بالقراءة، ولذلك كانت «اقرأ» أول كلمة في أول جملة في أول أمر في أول آية في أول سورة، بل في أول اتصال بين السماء والأرض في ظل نبوة محمد ﷺ، حيث لم يكن الرسول ﷺ قد بُعث بالنبوة، وهذا يبين الأهمية غير المتناهية للقراءة في توفير أسس النهوض وأعمدة القيام وطاقت الإقلاع الحضاري، ويمكن بيان هذه الأهمية من خلال السورة في العناوين الآتية:



## أولاً- القراءة واستثمار الآيات:

للقراءة في اللغة معاني عدة لا تكاد تخرج عن: التلاوة والجمع والضم والتأليف والدراسة. ومنها جاء مصطلح «القرآن» كَعَلِمَ على كتاب الله المنزل على محمد ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]<sup>(١)</sup>.

وافتح الله السورة بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [٢، ١] وهي إشارة إلى الآيات الثلاث:

١- فالقراءة عموماً أول ما ترمز إلى قراءة القرآن والله يطالب رسوله بقراءة القرآن أولاً، وإن تسمية القرآن مأخوذ من القراءة بما يحمله هذا المصطلح من دلالات أشرنا إليها آنفاً وهي: التلاوة والجمع والضم والتأليف والدراسة، وهذا كله لا يتم إلا بالتدبر، والتدبر هو آلة اكتشاف القرآن وفهمه واستيعابه، واستخراج كنوزه التي تتم بها عمارة الأرض وخدمة الخلق، وصناعة الحياة.

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: يشير إلى آيات الكون، لأنها تدل على عموم الخلق، فتشمل كل ما في السماوات من كواكب ونجوم ومجرات وفضاءات ومخلوقات لا نعلمها إضافة إلى الملائكة، وكل ما في الأرض من بحار ومحيطات وأنهار وبحيرات وجبال وسهول وصحاري ووديان وحيوانات وطيور، وهذه كلها تتم قراءتها عبر التفكير، فالتفكير هو الذي يحقق معاني الجمع والضم والدراسة والتأليف في هذه المخلوقات.

٣- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: يشير إلى آيات الأنفس وما يرتبط بتكوين الإنسان ووظائف الأعضاء في الجانب المادي، ثم طبائع الإنسان وأمزجته وإمكانات الخير فيه واستعدادات الشر في الجانب المعنوي، ثم ما ينتج من آثار إيجابية وسلبية نتيجة اجتماع الناس مع بعضهم، كقيم:

١- راجع كتابنا: تدبر القرآن: ص ١٩٨.

التعاون والتباين، التأنس والتنافس، التعارف والتناكر، التحابب والتباغض، التكامل والتآكل، التوارع والتصارع، ويسري هذا الأمر على الكيانات التي تصنعها التجمعات والتكتلات البشرية سواء ضاقت أم اتسعت من أسر وقبائل وجماعات وأحزاب وجمعيات ومنظمات ودول وتحالفات، وكيف تأتلف وتختلف، تتفق وتفترق، تقوى وتضعف، ترتقي وتهبط، تتقدم وتتخلف.

هذه الآيات تُقرأ عبر «التبصر» كما سيوضح القرآن في سور أخرى، لكن هذه السورة الكريمة تؤسس للقراءة الشاملة: قراءة آيات القرآن عبر التدبر، وقراءة آيات الكون عبر التفكير، وقراءة آيات الأنفس عبر التبصر، وهنا تتحقق المعاني اللغوية للقراءة: الجمع والضم والتأليف، حيث تتألف هذه الآيات في عقل المؤمن وتتظافر على تبين معالم الطريق المستقيم، الطريق الذي يتم فيه عبادة الخالق واستثمار المخلوقات كافة لصالح الإنسان، الإنسان الذي ستوضح سور القرآن أنه المستخلف في الأرض وسيد هذا الكون الذي سخر الله له كل من فيه وما فيه من أجل أن ينجح في الابتلاء، الابتلاء في معركة عمارة هذه الأرض.

إن نجاح الإنسان في القراءة الكلية لهذه الآيات ضمن رؤية واحدة: «باسم ربك»، يجعل هذه الآيات تتظافر وتتكامل لمساعدته في عمارة الحياة مادياً ومعنوياً، فيعرف كيف يستثمر هذه الآيات لصالح تمتع الإنسان بالطيبات وإيجاد جنة في الأرض، يحاول في بنائها أن ينحو منحى المثال الذي عرفه أبوه آدم من قبل، وأخرج منه نتيجة معصية، والذي هو جائزته في الآخرة إن أحسن الطاعة واستعمار الأرض، بما يعني أن الطريق إلى جنة السماء هو عمارة جنة الأرض وفق منهج الله المتجسد في الإسلام الذي أكمله الله وأتمه وجعله يدور حول خدمة الإنسان فمقصده الأساسي هو جلب المصالح للإنسان ودرء المفسد عنه. وبالتالي فإنه يعمل جاهداً على درء مفسد الفقر والفرقة والجهل والمرض والضعف، وجلب مصالح الغنى والتوحد والعلو والصحة والقوة لصالح هذا الإنسان.

وتشير هاتان الآيتان من سورة العلق إلى أن الإنسان هو الغاية، ولذلك شرفه بالذكر من بين كل المخلوقات، فهو يدخل ضمن عنوان الخلق المذكور في الآية الأولى، لكنه أفرد بالذكر في الآية الثانية، وفي هذا تشريف للإنسان، وإشارة إلى أن سائر هذه المخلوقات مسخرة لخدمته إن أحسن التعامل معها واستثمارها، والطريق إلى هذا الإحسان هو إحسان هذا الإنسان لقراءة القرآن، من خلال بناء ملكاته العقلية، واستثمارها الاستثمار الأمثل، وهذا لا يتم إلا بوجود الرغبة والدافعية والإرادة في داخل الإنسان. ولذلك، جاء الأمر له وحده: «اقرأ» وكرر له هذا الأمر في الآية الثالثة، فالقراءة لا بد أن تكون ذاتية نابعة من الداخل..

وكان السورة تشير إلى أننا إذا بنينا الإنسان فقد بنينا الحضارة، وإذا لم نبني الإنسان فتحن لم نبني أي حضارة، مهما امتلك من ثروات ومهما امتلك مجتمعه من طرق وعمارات ومطارات ووسائل اتصالات ومواصلات وأجهزة وإمكانات، فإن خراب العقل والقلب كفيلاً بتخريبها، ولذلك لا بد أن يقرأ ولا بد أن تكون هذه القراءة شاملة للآيات الثلاث، ولا بد أن تكون باسم الله، وهذا هو الطريق الكفيل باستثمار إمكانات الإنسان وطاقات الكون في استعمار الأرض وصناعة الحياة الكريمة.

ولأن القراءة هي الطريق إلى حيازة وتحصيل العلم، العلم الذي يصير صاحبه فقيهاً في آيات القرآن، وبصيراً في آيات الكون، وخبيراً في آيات الأنفس والمجتمعات، فإنه يدرك وجوب التعلم، ويعرف أن المعلم هو الله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ (العلق: ٥)، ويمنحه علمه معرفة أن علم الله لا حدود له، وأن إناءه - أي الإنسان - ضيق وقدراته محدودة، ومن ثم سيكون علمه محدوداً بالضرورة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فيوقن من ثم أن ما تحتاجه عملية فهم هذه الآيات واستثمارها الاستثمار الأمثل هو أكثر مما يملك ويحوز، ليستمر في الطلب والاستزادة، ومحاولة فهم الماضي وارتياح الحاضر واستكشاف المستقبل بالمزيد من التعلم

والقراءة والتجريب وصولاً إلى الاكتشاف والاختراع والابتكار والتجديد.

وفي غمار استثمار الإنسان لهذه المخلوقات والكائنات لصالحه بإذن من الله بل بأمر منه، يحس كم هو كريم على الله، وكم هو عزيز، وكم هي الكرامات اللامحدودة التي منحه الله إياها! وهذه ثمرة ثانية من ثمار القراءة.

### ثانياً- دور القراءة في إيجاد العزة والكرامة:

عرفنا أن استفادة الإنسان من تسخير الله كل المخلوقات له وتسيده عليها لا تتم إلا بالقراءة، وإن ثمار هذه القراءة التي يحصدها الإنسان منذ البداية تبين له كم هو كريم عند الله، فيزداد إقبالاً على القراءة لإشباع نهم الاستكشاف، وإشباع الشعور بالكرامة والتميز، وعلى قدر القراءة المنهجية المثمرة يكون الإنجاز، وعلى قدر الإنجاز يأتي الشعور بالثقة ومن ثم الشعور بالإكرام من الله، ولهذا كررت السورة في الآية الثالثة الأمر بالقراءة مشيرة إلى صفة من صفات الله المرتبطة بالكرامة: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]. وبهذا تبين السورة ثمرة ثانية للقراءة وهي الكرامة والعزة، فكيف تحقق القراءة الكرامة وتخلق العزة؟

القراءة سبيل العلم، عبر أسباب مادية أهمها القلم، لكن المعلم هو الله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۗ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥]. وما دام المعلم هو الله، وما دام المتعلم هو الإنسان الذي اختاره ربه من بين ملايين الكائنات المرئية وغير المرئية في هذا الكون، فإن هذا يُشعر المرء بكرامته على الله، فكيف إذا كان مصدر كل مشاعر الخير وقيم القوة والعزة والقدرة والمنعة هو الله؟ لا شك أن ذلك سيمنح الإنسان قدراً أكبر من الشعور بالعزة والكرامة، وكيف لا وهو يستمد هذه الصفة من معلمه «الأكرم»؟!.

والقراءة الشاملة التي تؤسس لها هذه السورة، هي المسلسلة على ثلاثة كتب:

## الأول- كتاب القرآن المسطور:

وقراءة القرآن بمنهج التدبر يكون باسم الله ولمرضاته، وشعوراً بأنه رسالة الله المباشرة لكل فرد على حدة، وقراءة آياته في ضوء آيات الكتاب المنظور (الكون) وآيات الكتاب المتحرك (الإنسان)، سيؤدي ذلك حتماً إلى اكتشاف كنوز القرآن، وفقه مقاصده، واستيعاب هدايته، وإدراك صور الإعجاز البيانية والعلمية والغيبية، بجانب الإعجاز الرئيسي وهو إعجاز الهداية والتشريع.

وهذا سيوصل قارئ القرآن إلى اليقين بأن هذا القرآن كلام الله المعجز، وسيشعره حصاد التدبر الضخم بعظمة الله تملأ كيانه، وهذا سيعطيه قدراً من إشباع الذات والامتلاء بشعور التكريم والكرامة.

الجدير بالذكر أن هذه السورة مع أنها أول سورة في القرآن إلا أنها احتوت على صورتين من صور الإعجاز العلمي والذي أودعه الله في ثنايا القرآن، بحيث لا يتم إدراكه إلا بعد آمد من الزمن، بعد تراكم الخبرات البشرية وتطور العلوم الإنسانية بشكل كبير، بحيث ينجح البشر في اكتشاف أمر مرتبط بآيات الأفاق أو آيات الأنفس، تتفق حقيقته تماماً مع آيات القرآن.

وهياً الله هذا الأمر للقرآن حتى يكون من البراهين والشواهد على أنه كلام الله، كما قال تعالى: ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهذا يمنح المؤمن شعوراً بالاعتزاز بهذا القرآن، ويحس بكرامة الله له الذي كرمه بهذا القرآن ولم يجعله من المجتمعات التي تؤمن بكتب مليئة بالخرافات المجافية للعقل والمنطق، والمنافية لحقائق العلم والواقع، والمناقضة لمطالب الإنسان الفطرية والطبيعية. أما الآيتان اللتان أشارتا إلى حقيقتين مخبوءتين أثناء تنزيل الوحي وكشف عنهما العلم الحديث بعد قرون طويلة، فهما:

## - العلق:

ذكرت الآية الثانية في السورة أن الله خلق الإنسان من علق، وقد ظهر في العصر الحديث علم جديد سمي علم الأجنة، وبعد دراسات كثيرة وعميقة قام بها هذا العلم، وبعد توفير (التكنولوجيا) لجهاز دقيق نجح في تصوير ما يحدث في بطن الأم الحامل، اتضح أن الجنين خلال تسعة أشهر في بطن أمه يمر بأطوار عدة، تبدأ أولها بطور النطفة التي يمتزج فيها الحيوان المنوي للرجل ببويضة المرأة، ويتحول في الطور الثاني إلى مضغة، ويصبح في الطور الثالث علقة - وهو الذي أوردته السورة - ثم تتوالى الأطوار التي يكتمل فيها الجنين، وقد أوردتها بعض سور القرآن الكريم كما أثبتها العلم تمامًا في بلاد الغرب<sup>(١)</sup> حتى إن أكبر علماء الأجنة في هذا العصر - والذي يُطلق عليه لقب «أبو علم الأجنة» وهو البروفيسور الكندي كيث مور - اعتنق الإسلام بسبب هذا التطابق الذي لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان منزل القرآن هو خالق الإنسان وعالم الغيب.

## - الناصية:

قال تعالى في هذه السورة: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٥، ١٦]، والناصية هي جبهة الإنسان وهي بدون لسان فكيف تكذب، وهي لا تجترح الخطايا فكيف تُسند إليها الخطيئة؟ - كما تساءل بعض العلماء - وقد كان للسلف الصالح فهمهم لهذه الآية الذي يتناسب مع لغة العرب ومع حقائق واقعهم، أما في هذا العصر فقد وفر العلم برهانًا آخر على أن هذا القرآن كلام الله، حيث كشف علماء الغرب

١ - حول إعجاز القرآن والسنة عمومًا في علم الأجنة، انظر: الشيخ عبد المجيد الزنداني: بينات الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته، ط ٣ (صنعاء: مركز البحوث بجامعة الإيمان، ١٤٢٥ = ٢٠٠٤)، ص ١٦٥ - ١٨٠، د. فؤاد البنا: إيجاز البيان في إعجاز القرآن، ط ١ (تعز، المبدعون، ١٤٢٥ = ٢٠٠٤)، ص ١١٤، ١١٥، د. خالص جليبي: الطب في محراب الإيمان، ط ٦ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦ = ١٩٨٥) ١/٥٩ - ٦٣، د. عبد الودود شلبي: القرآن يتحدى، ط ٢ (القاهرة: مركز الولاية، ٢٠٠٠)، ص ٥٨ وما بعدها.

أنَّ الناصية مسؤولة عن المقاييس العليا وتوجيه سلوك الإنسان، وأنَّ الإنسان عندما يريد الكذب أو اتخاذ قرار خاطئ فإنه يُشغَل بطريقة آلية غير مدركة فصًا في مقدمة الجبهة -وهي الناصية- وما الجوارح إلا جنود تنفذ هذه القرارات التي تُتخذ في الناصية، ووصل الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاستخدام العملي لهذا الكشف العلمي، من خلال إجازة قوانين بعض الولايات الأمريكية معاقبة كبار المجرمين الذين تكررت جرائمهم ودوخوا العدالة، باستئصال الفص المسؤول عن اتخاذ القرارات الخاطئة في المخ، ليصبح المجرم بعدها هادئًا كالطفل الوديع، يستقبل الأوامر من أي شخص<sup>(١)</sup>. وقد أصدرت رابطة العالم الإسلامي عبر هيئة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم التابعة لها إصدارًا خاصًا عن هذا الموضوع تحت عنوان «الناصية».

وهذا كله -دون شك- يُشعر المسلم بالاعتزاز والفخر، ويمنحه كرامة بلا حدود، ويرى سيد قطب أن مجرد نزول الوحي -منذ محطة العلق- خلق آثارًا عديدة في كل الاتجاهات، ومنها جهة الإنسان الذي يدرك «أن الله سبحانه قد أكرمه كرامة لا تكاد يتصورها، ولا يملك أن يشكرها، وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راکعًا ساجدًا.. هذه .. أن يذكره الله ويلتفت إليه، ويصله به، ويختار من جنسه رسولاً يوحى إليه بكلماته، وأن تصبح الأرض.. مسكنه.. مهبطًا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهاال»<sup>(٢)</sup>.

### الثاني- الكتاب المنظور وهو كتاب الكون أو الطبيعة:

عندما يُعمل المؤمن عقله قراءةً في هذا الكتاب، ويتقلب في تقليب صفحاته، وقراءة آياته باسم ربه، وفي ضوء مقاصد دينه وتوجيهات آيات

١- بتصريف واختصار كبيرين عن الشيخ عبدالمجيد الزنداني: علم الإيمان (د، ١٤٢١ = ٢٠٠٠)، ٢٤٨/١.

٢- في ظلال القرآن، ط ١٠ (بيروت: دار الشروق، ١٤٠٢ = ١٩٨٢)، ٦/ ص ٣٩٣٧.

قرآنه، وفي ضوء حاجاته ومعرفته أن كل ما في هذا الكون مسخر له، فإنه بالتأكيد سيشعر بالعزة تملأ كيانه، وبالفخر يجري في عروقه، وسيحس بطعم الكرامة، ولن يغادره هذا الشعور حتى لو وُجد في مجتمع يضطهده، ويضع أمامه العراقيل، ويصنع له المحن والفتن، فلن يشعر بالذل والغربة، لأنه يدرك أن كل هذا الكون وما فيه من مخلوقات يسبح لله سبحانه ويتجه إليه بالعبادة، وأن هذه المخلوقات العظيمة تدل على إله عظيم قادر، ولكن مشيئته اقتضت أن يخلق الناس للابتلاء، حيث يبتيلى بعضهم ببعض، وأن المؤمن لكي ينجح في هذا الابتلاء أمام طريقتين، إما أن يبتيلى بالسراء فيشكر، وإما أن يبتيلى بالضراء فيصبر، وفي كلتا الحالتين فإنه مأجور، بل ترتفع درجاته على قدر شدة الابتلاءات التي يتعرض لها.

وقراءة آيات الكون، ليست فقط مجرد تأمل لازدياد الإيمان، بالتفكر بصفات من وراء هذا الكون العظيم الهائل المرتب، بل هي كذلك اكتشاف لطاقت هذا الكون في عمارة الأرض، فإن نجاح هذه العملية، واستفادة المجتمع من خيرات هذا الاكتشاف سيعني أن هذا المتفكر ازداد إيماناً، وازداد في عمل الصالحات، واكتسب صوراً من «السنة الحسنة» التي توفر الخدمة للناس، التي هي من العبادات المتعدية، حيث أجرها أكبر بل ومستمر ما استمر الناس في الاستفادة من هذا الاكتشاف أو التوظيف لطاقة من طاقات هذا الكون، أو خير من خيراتة التي استودعها في جنبات الأرض.

هذا الإنجاز سيمنحه قدرًا من الثقة بالذات، وسيستأصل أي وجود لمركب الدونية أو عقدة النقص في شخصيته؛ وهو ما يؤكد أن القراءة في الكتاب المنظور تساهم في تحلية القارئ بمشاعر العزة، وتذوقه لطعم الكرامة.

### الثالث- الكتاب المتحرك وهو كتاب الإنسان والمجتمع:

إن قراءة آيات الأنفس والمجتمع، تبين للإنسان طبائعه، وتكشف أسرارها الغامضة وقواه المخبوءة، وقدراته الكامنة، فيزيد ذلك من فاعليته وثقته بنفسه، وتقديره لربه.



وكلما أوغل في قراءة آيات الأنفس مقرونة بآيات الكون، مستهدية بآيات القرآن، فإنه يترقى في عالم (الإيمان) ودنيا (الصالحات)، مما يزيد من فاعليته في خدمة الخلق، ويراكم خبراته في الخدمة وإسعاد الناس، من خلال العمل الدؤوب في جلب المنافع لهم ودفع المضار عنهم.

وفي الوقت ذاته فإن هذه القراءة تظل تترقى بذاته وتساعده على تزكية طبائعه وقدراته، بتشذيب شخصيته وتهذيب أخلاقه، وبتقوية نقاط القوة في شخصيته، وتجاوز نقاط الضعف، بسد الخلل وتغطية الثغرات، وهو في كل ذلك يعرف أنه بشر وأن طاقاته محدودة، لكن باستطاعته دومًا الترتي بها في طريق الوصول إلى الكمال المقدر له والفاعلية الممكن له الوصول إليها، ولا سيما أنه دائم الاستمداد من صاحب القوى والصفات والأفعال التي لا حدود لها، ولا تحدّها القوانين. وأن نجاحه في معرفة ذاته وقدر نفسه، يساعده على السير بخطى ثابتة، ومع دمج في شخصيته بين مكونات العقل وطاقات الروح وقوى الجسم، فإنه يصبح رحمة على المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه، فكيف إذا تفقّه في آيات القرآن وفي آيات المجتمع وطبائع الناس، وعرف كيف ينزل النصوص على المجتمع، لا شك أن فاعليته ستكون أكبر، وأنه لذلك سيمتلك ثقة كبيرة بذاته ستحّثه على مزيد من الإنجاز، وسيتذوق طعم السعادة، وسيكون أمله باللّه كبيرًا في أن يكرمه في الآخرة ويجعله من الفائزين، وهذا كله يُشعره بالكرامة والعزة بالتأكيد.

في مثل هذه الظروف ستصبح العلاقة دائرية وتكاملية بين العلم والعمل، فإن توسع الإنسان في فهم الآيات بأنواعها الثلاثة، سيؤدي إلى اتساع دائرة الأعمال والأنشطة المفيدة، وسيخرج من كل عمل بخبرة جديدة، ومن كل نشاط بعلم غير مسبوق، وهو في هذا كله ممتنّ لله، لأنه يعلم أنه هو من علّمه وهو من هداه إلى هذه الصالحات، وهذا يزيد من شعوره بالكرامة، كيف لا وهو يعلم أن الله أسجد الملائكة لأبيه آدم لأنه تعالى علّمه ما لم يعلمهم، رغم أن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ومما أصبح معلوماً في علوم النفس والاجتماع بالضرورة أن تحصيل الإنسان للعلم، ونجاحه في استثمار هذا العلم بما يحقق النفع له وللناس، أن ذلك يحقق له شعوراً بالثقة والامتلاء والاعتزاز بالذات، هذا الشعور سلاح فتاك ضد مشاعر النقص وعقد ومركبات الدونية، بل هو سلاح قوي ضد ثقافة القطيع والعصبية الجمعية التي يقع فيها الجهلة وأصحاب العلم المنقوص؛ وهو ما يدفعهم للدوران في أفلاك: القوم والوطن والقبيلة والحزب والجهة والطائفة والمذهب، وأعينهم معصوبة أو مغمضة، ليدفعهم هذا التعصب للانتقال إلى الطرف الآخر، حيث الاستكبار على الآخرين والتطاول عليهم بالانتماء إلى واحدة من هذه الدوائر أو الأفلاك الضيقة، وحيث يتسلح بهذه العصبية لخدمة طفيلانه، أو يتحول إلى قطعة صغيرة في آلة كبيرة تمارس العدوان والطفيلان على الآخرين، وهذا كان حال أبي جهل (عمرو بن هشام) الذي فرَّ أمام عقلانية هذه الدعوة وفطريتها وقوتها الذاتية وعمد إلى الاستقواء بقبيلته «بني مخزوم» والتعصب لها، ولهذا توعدته هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ فليدع ناديه. ﴿١٧﴾ سَدَّ الزَّيْبَانَةَ ﴾ [١٧، ١٨].

وقد أثبتت وقائع التاريخ وأحداث السيرة أن عصبية هذا الرجل لقبيلته كانت من أهم موانع استجابته لدعوة الرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ من بني هاشم، وبنو هاشم هم المتنافسون دوماً مع بني مخزوم على المجد والشرف وقيادة قريش، قالها أبو جهل بلسان حاله وقالها ذات يوم بصراحة اللسان المتناهية<sup>(١)</sup>.

هذا الأمر كان علة كثيرين ممن حاربوا الإسلام وصدوا عن سبيل الله، ولا سيما الذين جمعوا بين السيادة والوجاهة والمال من جهة وضعف العقل وقلة العلم من جهة أخرى، ومن هؤلاء من أورد القرآن مقولتهم: ﴿ وَقَالُوا

١- راجع: أبو الفداء إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨)، ٨٣/٢.

لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿ [الزخرف: ٣١].

إذا القراءة هي المركب الذي يوصل صاحبه إلى التعامل مع البشر جميعاً على ذات القاعدة الإنسانية، والتعامل مع الجميع وفق معايير موضوعية منضبطة، كيف لا وقد أسست السورة للقراءة التي توصل إلى هذه النتيجة، بل ووضعت بذرة المساواة الإنسانية في سياق التعليم وفي موضوع العلم، حيث قال تعالى: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥]. فتعليم الله هو للإنسان عموماً وليس لجنس معين أو حتى للمسلمين، بمعنى أن البشر متساوون وأن هذا العلم متاح للجميع، ولا سيما ما يرتبط بآيات الأنفس والآفاق (العلوم الإنسانية وعلوم الطبيعة)، حيث تفوقت الشعوب الغربية فيها على المسلمين في العصر الحديث.

وهكذا، فإن قراءة الآيات بأنواعها الثلاثة، تساهم جميعها في غرس قيم العزة والكرامة والتميز في الفرد، من خلال مداخل عديدة، وأساليب مختلفة، فما الضامن أن لا ينقلب هذا الشعور بالكرامة إلى شعور بالكبر؟ وما المانع من تحول العزة إلى طغيان؟ الجواب وضّحته السورة ذاتها، فقد قدمت وصفة ربانية ركّبتها من خلق الإنسان ويعلم خباياه وخفاياه، ويدرك ما يصلحه ويفسده، إذ وضعت السورة ضوابط تمنع الوصول لمثل هذا الأمر، أهمها:

- جعل القراءة من البداية باسم الله: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، وبالتالي تظل منضبطة بتوجيهات الله ذات الصلة بالتعامل مع الكون والناس، ولا تنسى أن الله هو الخالق وبالتالي هو المتصرف وحده: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وبالتالي ربط الاستكبار بذاته تعالى وتحريمه على خلقه، وجعله من مفردات التوحيد الذي لا يغفر الله الشرك فيه.

- تذكير الإنسان بأصله المتواضع بل الحقيق: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، مقابل التذكير بأن الله هو الخالق، وأن كرامة الإنسان منحة إلهية ينبغي

أن يُشكر عليها، وأن السير في طريق الطغيان هو مجافاة لهذه النعمة وسير في الطريق الخطأ.

- تذكير الإنسان بمعاده إلى الله، حيث الثواب على الالتزام والاستقامة، والعقاب على التقلت والانحراف: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ [العلق: ٨].

- دعوة الإنسان في نهاية السورة للسجود لله والاقتراب منه: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. والطغيان مناقض للسجود لأنه منازعة لله في ألوهيته، والاستكبار على بني الإنسان هو أسرع الطرق للابتعاد عن الله.

وبجانب ذلك أوجدت السورة بذوراً لمحاربة الطغيان واحتكار الحقيقة المطلقة، من خلال منهج القراءة ذاته. وهذا ما سنتناوله في الفقرة الآتية.

### ثالثاً- القراءة واجتثاث الطغيان:

من يلقي نظرة فاحصة عل خارطة العالم، ويكون على معرفة بأحول بلدانه وحضاراته، سيجد علاقة لا تنفصم في الغالب الأعظم بين القراءة والحرية وكذلك بين الجهل والاستبداد، فوفقاً للأرقام التي لا تحابي أحداً، فإن بلدان قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية هي الأكثر علماً وثقافة وقراءة، فهل هي الصدفة التي جعلتها هي الأكثر تمتعاً بالحقوق والحرريات؟! وهل الصدفة ذاتها هي التي جعلت المجتمعات الأكثر أمية وجهلاً والأقل قراءة هي الأكثر معاناة من الاستبداد والطغيان والديكتاتوريات في أفريقيا والشرق الأوسط؟!.

إن هذه الحقائق التي نراها بعد قرون طويلة من نزول القرآن هي التي حاولت سورة «العلق» زراعتها في عقول وقلوب وضمائر المسلمين منذ أول يوم تنزل فيه هذا القرآن. فعندما انتهى المقطع الأول المكون من الآيات الخمس الأولى، وهو الذي فرض القراءة وحث عليها، وأشار أمورا ذات صلة بفوائد العلم والقراءة، بدأ المقطع الثاني ببيان أخطار الجهل العميقة وعواقبه الوخيمة: [٦، ٧]. ولخصت السورة معظم الأخطار في الطغيان،

لأنه يصيب جسم المجتمع بفقدان المناعة، ومن ثم يصير عرضة لكل العلل والأسقام والآفات).

ولأن كل سورة هي لوحة واحدة؛ فإن كل مقطع يتصل بما قبله ويوصل إلى ما بعده، فكأن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ أُسْتَفْعَىٰ ﴿٧﴾. يقول: إن لم تقرؤوا هذه الآيات الثلاث -القرآنية والكونية والاجتماعية- وتعلموا ما طلب منكم ربكم تعلمه، لتحصدوا ثمار العلم والفكر، فإنكم ستعيشون في ظل الجهل، وهو إذا اجتمع مع الشعور بالاستغناء عن الآخرين، سواء لجهة المال أو الجاه والسلطة أو الأتباع والأنصار والأشياء، بيئة خصبة للتخلف، ولن يثمر إلا الطغيان، فإن مثل هذه الظروف تساعد على انبعاث الطغيان من داخل الإنسان -أيًا كان هذا الإنسان- لأنه موجود في كل إنسان ضمن آثار التراب الذي خلق الإنسان منه أول مرة، وضمن نصيب الفجور الذي أوجده الله مع التقوى في تكوين النفس البشرية التي قال عنها تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وتشير آية: ﴿أَنْ رَأَاهُ أُسْتَفْعَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٧]، إلى أن التفرد أو الشخصية العاتية في مثل هذه الظروف توفر عامل نجاح آخر لميلاد طاغية كبير؛ فإن «استغنى» تعني مما تعنيه استغناؤه بذاته عن مشورة وخبرات الآخرين، لشعوره بأنه أعلم وأخلص وأحرص منهم، أو لسوء ظنه بقدراتهم، أو لأن الآخرين -نتيجة فساد ونفاق البطانات- هم الذين أشعروه بالعبقرية والتفرد وبأن النساء لم يلدن مثله، وأنه فلتة من فلتات الدهر، وأنه أتى بما لم تأت به الأوائل!

وبعد أن ذكرت السورة هذا المتجبر الطاغية بأنه سيموت ويرجع إلى الله الذي أوجد الآخرة للحساب الذي سيؤول بعده الناس جميعاً إلى محسنين سينالهم الثواب، أو مسيئين سيطلبهم العقاب، أوردت مثالا لرجل معروف في زمنهم، هذا الرجل هو عمرو بن هشام وهو من أكبر زعماء قريش، ومن أكثرهم فعالية وتأثيراً، ولهذا عندما أراد الرسول ﷺ أن يعزز صحابته

الأوائل - وكان أكثرهم من المستضعفين - برجل ذي وجهة كبيرة وفعالية عريضة قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام»<sup>(١)</sup>.. هذا الرجل رغم إمكاناته ومكانته إلا أنه لم يمارس أي قدر من التفكير العميق أو التعلم المنهج؛ وهو ما دفعه لارتكاب حماقات عدة، ولهذا كناه رسول الله ﷺ بـ«أبو جهل»، بعد أن كانت قريش تكتنيه بـ«أبو الحكم» فقط لأنه من بيت زعامة في واحدة من أقوى فخائذ قريش وهم بنو مخزوم، والذين كانوا في منافسة تقليدية محتدمة على الزعامة والشرف - وفق التقاليد الجاهلية عند العرب - مع بني هاشم الفخيدة الأخرى الأقوى في قريش والتي ينتمي إليها المصطفى ﷺ. ولذلك خانه ذكاؤه، وظن أن الإيمان بنبوة محمد ﷺ سيحسم التنافس نهائياً وبشكل كبير لصالح بني هاشم، وقد أشارت آية في هذه السورة إلى العلم المفقود عند أبي جهل وهو عدم علمه بالله تعالى وما يتصف به من صفات تزرع في القلب رقابة الله وخشيته، والحذر من الانحراف والانجراف إلى غير المعايير التي أوجدها الله وتعبّد الناس بالالتزام بها، ولذلك قال تعالى: ﴿الرَّيْعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَبْهَى﴾ [العلق: ١٤]، ولنلاحظ الفعل: يعلم، فإنه يقتضي وجود براهين توصل الفرد إلى اليقين الذي لا يزعه شك، أما مجرد التلقين والتقليد والترديد العاطفي دون وجود ظل من البرهنة العلمية والإيمان اليقيني، فإنها لا تغني عن صاحبها شيئاً.

إذاً، الجهل هو الذي أوصل عمرو بن هشام إلى هذا الطغيان الذي جعل الرسول ﷺ يكتنيه بأبي جهل ويلقبه بفرعون هذه الأمة، أما الطغيان فقد أوصله إلى الصدارة في حرب المسلمين بكل الصور، بما فيها الأساليب القذرة التي لم تكن مقبولة حتى في الثقافة الجاهلية، كقتله لامرأة بيده - وهي سمية زوجة ياسر وأم عمار - لتكون أول شهيدة في الإسلام.

١ - الحديث في: سنن الترمذي: ٣٦٨١، ٣٦٨٢، مسند الإمام أحمد: ٩٥/٢، مستدرک الحاكم: ٥٠٢/٢، فتح الباري لابن حجر: ٤٨/٧، حلية الأولياء لأبي نعيم: ٣٦١/٥، الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٧٣/١/٣، ١٩١. (نقلا عن هامش: عبدالرحمن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، تحقيق: محمد سيد، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٠ - ١٩٩٩، ص١٦).

ووصل طغيان أبي جهل إلى الاضطهاد والتعذيب الجماعيين للمسلمين وعامتهم من المستضعفين، وقيادة تيار استئصالي للضغط على عقلاء المشركين؛ من أجل الاشتراك في المذبحة ضد المسلمين، وتجاوز ذلك كله إلى منع المسلمين من أداء الطقوس التعبدية، رغم أنها علاقة خاصة بين الإنسان وربه، وبدأ ممارسة هذا الجرم مع المستضعفين من المسلمين، وظل يتصاعد حتى وصل إلى الأشراف -بالمفهوم الجاهلي نفسه- ووصل إلى النبي ﷺ رغم مكانته الكبيرة وعصبيته القوية، حيث حاول أبو جهل الحيلولة بين الرسول ﷺ وربه بمنعه من الصلاة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٩﴾﴾ [٩، ١٠]، وواصلت الآيات التعجيب من هذا الزعيم الجاهل وهذا القائد الأحمق: ١١ - ١٤. ثم جاء التهديد والوعيد: ١٥ - ١٩.

وقد يتساءل البعض فيقول: ولكن كيف تسهم القراءة في القضاء على الطغيان ومنع احتكار الحقيقة المطلقة؟

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال، من خلال النقاط الآتية:

١- القراءة توجه كل طاقات العقل لاكتساب العلم من خلال قراءة الآيات الفرقانية في القرآن، والآفاقية في الكون، والأنفسية في الإنسان، وهذا العلم ينور ما حول الإنسان، فتتوسع الرؤية لتشمل مساحات كبيرة، وعندما يقيس هذا المتعلم ذاته المتواضعة بجانب هذه الدائرة المتسعة، فإنه يشعر بالتساؤل، وهذا يشذب طبائعه ويُقلم رغباته الطغيانية، بعكس الجاهل فإنه أعمى ولا يمتلك من العلم إلا ما يسمح له بالرؤية في دائرة ضيقة، وعندما يرى نفسه في هذه الدائرة الضيقة يرى نفسه كبيراً؛ وهو ما يدفعه للاستكبار وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة.

٢- القراءة تزيد من رغبة المتعلمين في التعلم وتزيد من نههم في الاكتشاف والقراءة وارتياح المجهول؛ وهو ما يؤدي إلى توسيع دائرة الرؤية

بصورة أكبر، وكلما اتسعت الرؤية عرف الإنسان جديداً يُمكنه من رؤية الحقائق بصور مختلفة، ومن ثم يدرك أنه لا يمتلك الحقيقة المطلقة إلا الله لأنه صاحب الرؤية الكاملة والعلم المطلق، وهذا يمنحه المزيد من التواضع. أما الجاهل فإنه يقبع في مكان ثابت ضمن دائرة ضيقة، مما يصبغ رؤيته للأشياء بالثبات، ويعتقد أن الحقائق هي بالضبط ما يراها هو، ولا تسمح له هذه الدائرة الضيقة إلا برؤية أمور بسيطة يعتقد أن فيها الحق كله وما عداه ضلال، وأن رؤيته لها تمثل الهدى كله ليرمي غيره بالضلال المبين!).

٣- القراءة تفتح الآفاق لصاحبها للاطلاع على علوم الآخرين، والاستفادة من الجميع؛ فيرى تنوع خارطة المعرفة وضخامتها، مما يُمكنه من إدراك عدم قدرة أحد على امتلاك الحقيقة المطلقة، حيث يرى حقيقة أن فوق كل ذي علم عليم، ويدرك أن مساهمته المعرفية مهما كانت ضخمة فإنها ليست أكثر من قطرة في بحر، وهذا يدفعه للتواضع ويمنعه من ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، فكيف إذا قاس علمه بعلم الله وهو يعلم أن علم البشر كله لا يساوي قطرة أمام محيطات علم الله؟!

ولهذا ثبت أن العلماء أكثر تواضعاً من الجهلاء في كل الشؤون، وقد روي بالمناسبة عن الإمام الشافعي قوله: «جادتُ عالماً فغلبته، وجادلني جاهل فغلبني!». وروي أن الفيلسوف اليوناني سقراط كان الوحيد في أثينا الذي يقول بأنه جاهل، فسُئل ذات مرة: كل أبناء أثينا يرون أنهم علماء، فلماذا أنت الوحيد الذي يدعي أنه جاهل؟ فقال سقراط: ربما لأنني الشخص الوحيد في أثينا الذي يعرف أنه جاهل!!.

إذاً، العلم يوسع دائرة الرؤية لما يجهله الإنسان ويركزها على هذه المنطقة، فيتضاءل ويذوي تماماً، ويدرك أنه جاهل، ولذلك اشتهر العلماء الكبار بقول: «لا أدري» كثيراً، أما أنصاف وأثلاث وأرباع العلماء بل والجهلاء فإنهم يظنون -وربما اعتدوا- أنهم يعرفون كل شيء، لأنهم لا يعرفون شيئاً



عما يجهلون، وبالتالي فإنهم يفتون في كل شيء بل ويزعم أكثرهم امتلاك الحقيقة المطلقة!.

٤- اتساع مساحة قراءة الإنسان لهذه الحياة وتنوع هذه القراءة تسمحان له برؤية تعقيدات الحياة، وتشابك الظواهر، وتداخل الأشياء، وتغاير الرؤى؛ وهو ما يجعله بعيداً عن ادعاء احتكار الحقيقة الكاملة. يقول وحيد الدين خان: «إن الشيء الذي يطلق عليه الإنسان أنه «فكرة» قد نسجته عوامل لا حد لها، ولا سبيل إلى رؤيتها للأخرين، وأحياناً للإنسان صاحب الفكر نفسه. فهناك جوانب كثيرة: كيف نظرت إلى واقع ما؟ في أي وقت نظرت إليه؟ من أي زاوية ألقيت نظرتك؟ وبأي العواطف؟ وماذا كانت معلوماتك المسبقة عن الموضوع الذي نظرت إليه؟ أي أن هناك جوانب كثيرة تؤثر على حكمك على شيء ما وعلى رأيك حوله كثيراً، ما يخيل إلى المرء أنه قد وصل إلى الحقيقة ثم يكتشف أنه كان لا يزال في متاهات الضلال»<sup>(١)</sup>.

٥- إرساء السورة للنسبية ومراعاة الفروق الفردية تساعد على إرساء قيمة التواضع وإلغاء احتكار الحقيقة، فلقد ورد الأمر: «اقرأ» بصيغة المفرد، لأن الرسول ﷺ في الواقع كان وحده، إذ لم يكن يوماً يوجد مسلمون، ومع هذا فإن هناك تجليات فكرية مرتبطة بنسبية الرؤية البشرية في فعلية القراءة والرؤية.

- في القراءة «اقرأ»: القراءة مثل الخلق، فمع أن الخالق لبني الإنسان واحد إلا أنه أوجد فروقاً عديدة في حقيقة الخلقة: الشكل والحجم والطول والجمال وتفاصيل الأعضاء والأجهزة والحواس المختلفة، لدرجة أن عضواً صغيراً كإبهام الإصبع لا يوجد تطابق فيه بين أي فردين وسط سبعة مليار إنسان في العالم. وهذا مثال للقراءة، حيث ينبغي أن يكون المنهج واحداً: «باسم ربك»، لكن ذلك لا يعني التطابق، لأنه مستحيل واقعاً وعقلاً وغير مطلوب شرعاً.

١- حكمة الدين، ترجمة: ظفر الإسلام خان، ط٢ (القاهرة: المختار الإسلامي، ١٩٧٨)، ص ٢٢.

- في الرؤية «أرأيت»: الرؤية لأي مشهد من الطبيعي أن تكون مختلفة بين الناس، إذ يستحيل التطابق في إدراك الأشياء، ولذلك تكررت «أرأيت» ثلاث مرات في هذه السورة، وتكررت ثلاث عشرة مرة في عموم سور القرآن الكريم فقط، وذلك في سياق مخاطبة النبي ﷺ، وأكثرها في تعجبه ﷺ من بعض الصور الغريبة والمشاهد العجيبة في الجانب الاجتماعي، ضمن دائرة الصراع بين الحق والباطل. بمعنى أن هذه السورة احتوت على حوالي ربع الحالات التي وردت فيها «أرأيت» في القرآن كأنها تؤسس منذ البدء لنسبية الحقيقة من خلال نسبية الرؤية، فإذا كانت الرؤية لمشهد ما تختلف حسب الزاوية التي يقف فيها الرائي، فمن باب أولى أن يحضر هذا الاختلاف في النظر للحقائق المعنوية. إذًا، هذه النسبية تؤكد عدم امتلاك البشر للحقيقة المطلقة، ومن هنا سعت السورة لاجتثاث إمكانات الطغيان، بالتأكيد على نسبية الأشياء ودفع الإنسان إلى التواضع، والالتفات لحقيقته ومعرفة قدر نفسه.

#### رابعاً- القراءة طريق السجود الشامل لله في محراب الحياة:

بدأت هذه السورة بأمر القراءة وانتهت بأمر السجود لله، لأن القراءة توسع دائرة المعرفة لمخلوقات الله في هذا الكون المتسع، وهي كلها تمارس صوراً من التسبيح لله وتمجيده وعبادته والسجود له، فيعرف الإنسان حينئذ ربه، ويتواضع ولا يتكبر، ويتذلل ولا يتجبر، ويكتسي حلة الخشية من الله، وهذا ديدن من عرف ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ويتوج هذه المعرفة بالاتحاد مع هذا التيار الكوني السابح في تسبيح الله وامثال أمره واجتناب نهيه، والمضي بفاعلية في الطريق الذي أمر به وُسِّرَ له، حيث يُبحر في ملكوت الله وعوالمه في هذا الكون، فيهوي ساجداً لله ويقترّب منه بالتقرب من مخلوقاته ولا سيما الفقراء والمحتاجين، حيث ستوضح له آيات القرآن التالية وأحاديث نبيه، أنه إذا أراد الله فإنه سيجده عند الفقراء والمرضى والضعفاء والمساكين، ويخر

ساجداً لله في محراب العبادة الأولى، السجود الشعائري الذي يتدلل به بين يدي الله، فيمرغ وجهه في التراب، ويضع الناصية على الأرض حتى يكرمها ويُسدد آراءها وقراراتها، ويطلب من الله أن يوقفه ويعينه في صور السجود الأخرى في محرابي الكون والحياة: السجود السياسي لمراغمة الطواغيت وإرغامهم على تحكيم شرع الله، والسجود الاقتصادي بإخضاع البنوك والمؤسسات والمعاملات الاقتصادية والشركات لأمره ونهيه، وكذا السجود الثقافي والاجتماعي والفني، بحيث لا ينفك المسلم عن عبادة الله في سائر الأوقات: في صَلَّاته وصلاته، في جَدِّه ولهوه، في علمه وعمله، فيما يتعلق بقلبه وقلبه، بمظهره وجوهره، كلها حلقات مترابطة في سلسلة العبودية لله تعالى.

هذه النتيجة الجميلة ستوصل إليها حتماً القراءة الكلية الشاملة ما دامت ملتزمة «باسم ربك»، ولحرص القرآن على دفع المشركين إليها، فإنه لم يطالبهم بالإيمان بالله تعالى، إذ لم تتحدث السورة عن ألوهية الله بتاتاً، بل لم يذكر اسم الله إلا مرة واحدة عندما قال: ﴿الرَّيْعَلُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [١٤]. واقتصر على ذكر الرب مضافاً إلى المصطفى ﷺ: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾، حتى الآية التي ورد فيها ذكر اسم الله لم يكن في مقام الدعوة لعبوديته، وإنما التأكيد على أنه يرى كل شيء.

وهكذا، فإن القراءة توصل إلى السجود لله في محرابي الكون والحياة، لأنها تطلع المؤمن على التصور المتكامل الذي سيصنع الحضارة في الحياة، بعد أن يصنعها في ضميره وقيمتها في قلبه، ومن هنا فإنه يضع الحصان قبل العربة والفكر قبل الفعل.

ولأهمية القراءة في إخراج وإنضاج هذه الثمرات، فإن الدعوة إليها جاءت بصيغة الأمر الواضح، بل وكرر مرتين، وإذا كان الأمر يقتضي الوجوب، فإن التكرار يفيد التأكيد.

## خامساً- القراءة والبناء العملي للإنسان:

أبرزت هذه السورة بطريقة غير مباشرة خصيصة من خصائص الإسلام العامة وهي العملية، فإن السورة تدعو الإنسان إلى القراءة حتى يكون عملياً في تحصيل هذا الإيمان، بحيث تتكامل العلاقة بين الإيمان وعمل الصالحات، فالإيمان يثمر عمل الصالحات، والسير في الأرض وعمارة الحياة وخدمة الخلق أعمال صالحة توصل إلى الإيمان وتزيده وتباركه.

وإذا كانت السورة تركز على القراءة وهي وسيلة تحصيل العلم، والعلم شيء نظري، فإن عملية الإسلام تبرز من خلال معالجة هذا الأمر النظري بطريقة أقرب إلى العملية، وتدفع المؤمن دفعاً ناحية المنهج العملي، يظهر ذلك من خلال هذه الإشارات:

- اقرأ: فعل أمر عبادي يقتضي الالتزام بحدود الشرع وعدم التكلف.
- تقييد هذه القراءة باسم الرب، لكنه ليس رباً هلامياً كما في الديانات الوثنية والمحرفة بل هو «الذي خلق»، فهو حاضر بخلقه وفعله وآثاره.
- لفت الأنظار إلى شيء مرثي في تكوين الإنسان ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [٢]. واليوم أصبح العلق يُرى بوضوح!.

- «باسم ربك»: تفيد هذه الجملة أن العلم يجب أن يكون وسيلة لإيصال الإنسان إلى خشية الله أو لإدخال خشية الله إلى قلبه وبروز هذه الخشية في تصرفاته، ولذلك ختم السورة بقوله تعالى: ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [١٩]، ونلاحظ أن الفاصل بين «اقرأ» و«فاسجد واقترب» بسيط فهي مجموعة آيات صغيرة وقليلة في سورة من صغار سور القرآن، فلم يأخذ التظهير ذلك المدى الطويل، نتيجة عملية هذا الدين وقوته الذاتية، لأنه لا يقول: «فاسجد واقترب» إلا بعد أن مهد السبيل أمام هذا السجود.

وإن تحلي الإنسان بخشية الله سيجمعه عامراً للدين لا عابداً لها، شديد

الحساسية في التعامل مع عباد الله، وهذه ثمرة من ثمار القراءة المنضبطة، وهذا هو العلم الحقيقي، كما قال الإمام سفيان الثوري: إنما العلم الخشية. هذه الخشية - إذا وجدت - هي أفضل ثمرة للقراءة، لأنها تعني أن حقوق الله وحقوق الإنسان ستكون مصانة، مخدومة على الدوام.

وهناك إشارة أخرى في هذه السورة تبين عملية هذا الدين، وسعيه لإيجاد المؤمن العملي، ونستنبطها من قوله تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [٤]. فإن الله قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ولكن هذا الدين أثبت أن كن هي الاستثناء وأن مشيئة الله هي السنن والأسباب، ولذلك فإن أداة التعلم الرئيسة هي القلم، فالقلم هو أداة الكتابة، والكتابة هي مادة القراءة.

وقد أثبت التاريخ إلى يومنا هذا، وبعد كل التطورات التكنولوجية التي حصلت في عالم القراءة والمعرفة، أن القلم ما زال الوسيلة الرئيسة للمعرفة، لأنه أكثر عمليةً وسهولةً وتناولا من الوسائل الأخرى. وفي عصر الفضائيات والانترنت ما زال الكتاب هو مصدر المعرفة الرئيس في العلم كله حيث تطبع منه سنوياً مئات الملايين من النسخ، وهو المصدر المعرفي الأكثر ثقة في أوساط الباحثين والمتعلمين والأكثر يسراً وعملية عند أغلب الناس.

ونخلص إلى القول بأن الحضارة الحديثة قامت على عمودين رئيسيين هما: المنهج التجريبي في العلوم، ومحاربة الاستبداد مع ما يستوجب ذلك من إقامة للديمقراطية واحترام لحقوق الإنسان في المجالين السياسي والاجتماعي، وهذان الموضوعان هما اللذان أسست لهما سورة «العلق» بالقراءة التي تدفع الفرد إلى الالتحام بالكون والحياة، والعلم الذي تثمره القراءة أيضاً فيمنع الإنسان من السقوط في ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة ومن ثم حلول الروح الطغيانية، أي أن القراءة ارتياد للمنهج التجريبي وتجفيف لمنايع الطغيان والاستبداد.

وهكذا، فإن قراءة آيات القرآن عبر (التدبر) وآيات الكون عبر (التفكر)،

وآيات الأنفس عبر (التَّبَصُّر) تورث العلم وتقضي على الطغيان، وتستثمر الكون وتعمر الحياة، ولهذا كانت القراءة هي الجنين السليم الذي يُؤدِّن بميلاد حضارة عظيمة، ولهذا كانت «اقرأ» هي حجر الزاوية في بناء «خير أمة أخرجت للناس» قبل العقيدة والعبادة، لأن القراءة هي الطريق لإقامة حقوق الله وحقوق الناس، وبهما يتحقق الإقلاع الحضاري.

## (النمل) وعوامل الفاعلية الحضارية !

سورة (النمل) مكية وآياتها ٩٣، نزلت بعد (الشعراء)، ترتيبها المصحفي: ٢٧، وفي النزول ٤٨. سميت بهذا الاسم لورود اسم (النمل) في السورة في قصتها مع نبي الله سليمان عليه السلام.

والنملة في هذا العصر، وبعد التطورات العلمية التي مكنت العلماء من تتبع الحياة الاجتماعية للنمل بدقة، صارت مضرب المثل في النشاط والتنظيم كالنحل، لكنها تتفوق على النحل في الفاعلية، فهي أكثر نشاطاً وقدرة على الحمل، حيث تستطيع أن تحمل ما يساوي وزنها أربعين ضعفاً..

وهكذا هي فاعلية السورة فهي تحمل بين طياتها ستاً من عوامل الفاعلية الرئيسة:

أولاً- الاستمداد من منهل الفاعلية (القرآن):

القرآن هو مصدر (الهداية) إلى كل أسباب الفاعلية وصناعة الحياة، وهو الذي يفتح الآفاق أمام عمارة الأرض، ويُراكم (البشارات) للمهتدين بجيازة سعادة الدارين، ممن التزم بهذا القرآن، ولذلك افتتحت السورة بالإشارة إلى هذين الأمرين (الهداية والبشارة) من خلال التحدي بالقرآن المعجز رغم تكونه من ذات الحروف العربية الموجودة بين أيدي الناس جميعاً كالطاء والسين، قال تعالى: ﴿ طَسَّ تَلَكَّ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [٢، ١].

ولأخذ هداية القرآن بقوة، ولتلقى بشارته بيقين، فإن السورة تؤكد للرسول ﷺ أن تلقيه للقرآن من لدن إله يتصف بالحكمة والعلم: ﴿ وَنَكَحَ لِنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [٦].

ولأن هذا الكتاب رسالة الله إلى العالم أجمع، فإن أحد أهدافه الفصل في كثير من القضايا التاريخية التي تباعدت فيها المواقف وتنازعت فيها الآراء

عند بني إسرائيل: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَكُفُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [٧٦]، لكن الله يؤكد أن هداية ورحمة هذا الكتاب لن ينالها غير المؤمنين به: ﴿ وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٧٧].

وقبل الآية الأخيرة يأمر الله رسوله بتلاوة القرآن: ﴿ وَأَنْ أتلُوا الْقُرْآنَ ﴾ [٩٢]. والتلاوة في اللغة تأتي بمعنى الاتباع، فأنت تقول تلا فلان فلاناً أي تبعه وسار خلفه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ۙ (١) وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ﴾ [الشمس: ١، ٢]، ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] معناه: يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق عمله<sup>(١)</sup>.

ويؤكد كثير من العلماء على هذا المعنى اللغوي للتلاوة، وعلى أن الاتباع هو الأصل، غير أن الاتباع لا يكون إلا بوسيلة التلاوة والقراءة، فأطلق القرآن المقصد على الوسيلة لأنه لا يتم إلا بها، وممن ذهب إلى هذا القول: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، والإمام الفخر الرازي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وديوسف القرضاوي، والشيخ الشنقيطي، و د. مجدي الهلالي<sup>(٢)</sup>.

وفي مجموع الآيات التي تحدثت عن القرآن في هذه السورة، نلاحظ أنه وُصف بأربعة أوصاف: كتاب مبین: ١، هدى وبشرى للمؤمنين: ٢، هدى ورحمة للمؤمنين: ٧٧.

١- انظر: ابن منظور: لسان العرب: ٣٠٩/١، ٣١٠، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط (إستانبول: دار الدعوة، ١٩٩٠)، ٨٧/١.

٢- انظر:

• الفخر الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. ط٣ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥)، ٣٧٩/١، ٣٨٠.

• ابن تيمية: الإيمان، تحقيق وتخريج: عصام الدين الصباطي، ط١ (القاهرة: دار الحديث، ١٤١٥ = ١٩٩٤)، ص ١٦٨ - ١٧٠.

• محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ = ١٩٩٦)، ٦٧/٤.

• د. يوسف القرضاوي: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢ = ٢٠٠١)، ص ١٧٧.

• د. مجدي الهلالي: العودة إلى القرآن لماذا وكيف؟ ط١ (القاهرة: دار التوزيع، ١٤٢٤-٢٠٠٣)، ص ١١١.



وإذا طبقنا هذه الصفات العامة على دور هذه السورة في إبراز الموضوع الذي نحن بصدده، لوجدنا أنه (مبين) أي واضح في امتلاك عوامل الفاعلية الحضارية، وهو مصدر (الهدى) إلى الفاعلية و(البشارة) بالوصول إليها، ولذلك فإنه (رحمة) للمؤمنين، لأن هذا المنهج سيعرفهم بالطريق الموصل إلى حقوق الله وحقوق الإنسان.

### ثانياً- إقامة حقوق الله:

اهتمت السورة بتقرير حقوق الله، وهي أساس سائر الحقوق وسائر الفرائض والقيم والأخلاق المساهمة في صناعة الفاعلية الحضارية؛ لأن حقوقه تعالى طاقة وزاد لهذه الصناعة الثقيلة وهي صناعة الحياة. ويمكن إبراز أهم حقوق الله -كما وردت في هذه السورة- في النقاط الآتية:

#### ١- الإيمان بربوبية الله تعالى:

وتتضمن هذه النقطة الإيمان بأن الله خالق الوجود وموجد الكون وحده، بكل من فيه وما فيه من كائنات حية وجمادات وجن وملائكة ومخلوقات كونية، وأنه وحده المدبر لشؤون هذه المخلوقات، وأنه من سخرها لصالح الإنسان وجعلها بهذا التقدير المحكم، وأنه يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وأنه من يتكفل بتوفير حاجات هذه الكائنات والموجودات، والذي يملك أرزاقها وآجالها. هذه المعاني وردت في الآيات: ٤٠، ٦٠ - ٦٤ وغيرها.

#### ٢- الإيمان بأن الله إله الخلق جميعاً:

ويتضمن هذا الإيمان شكر من خلق ورزق وأحكم ودبر، من خلال عبادته وفق منهجه الذي تضمنه الوحي، بتحكيم شرعه فيما شرع إباحة وإيجاباً وتحريماً، في سائر مناحي الحياة الفردية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، الثقافية والقانونية، الآداب والأخلاق، الشرائع والشعائر،

القيم والمعاملات. ومن ذلك التسليم بأن كل ما يحدث بأمر الله في هذا الكون، دون أن يؤثر هذا التسليم على الأخذ بالأسباب كجزء من عبودية المؤمن لله، وتوكله عليه.

وقد وردت هذه المعاني التي تطالب بإفراد الله في ألوهيته وحاكميته وعبوديته في آيات كثيرة، سواء بصيغة المطالبة والإيجاب أو بنقد الشرك والإشراك، وبيان زيف الشرك والكفر: ١٥، ١٦، ٢٤ - ٢٦، ٤٥، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٣، ٧٨، ٩١.

ومن لوازم عبودية الله شكره (٤٠، ٧٣)، والتوكل عليه: (٧٩)، والتوجه إليه وحده بالدعاء لطلب جلب النفع ودفع الضر (١٩، ٦٢).

### ٣- الإيمان بالآخرة وما يحدث في القيامة من أهوال:

الإيمان بما يتضمنه يوم القيامة من أحداث في سياق الفصل بين العباد، وإحقاق الحقوق والاعتصام للمظلومين، أو مكافأة المحسنين وتعيمهم في الجنان، ومعاقبة المسيئين وتعذيبهم في النيران: ٣، ٥، ٤١، ٦٧، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٨.

وتتظافر جميع الآيات على دفع القارئ للإيمان اليقيني بالآخرة من أجل دفعه لعمل الصالحات، والإقلاع عن السيئات، مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨١﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٩، ٩٠﴾.

### ٤- الصلاة:

ورد ذكرها ضمن الصفات الأساسية للمؤمنين في مطلع السورة: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾، والصلاة هي أخص حقوق الله العملية الشعائرية، ونلاحظ أن الآية استخدمت كلمة «يقيمون» والإقامة غير الأداء، لأن الأداء يتركز على مبنى الصلاة، أما

الإقامة فتضيف المعنى إلى المبنى، والروح إلى الجسم، وروح الصلاة هي حضور العقل بالوعي وحضور القلب بالخشوع. وإذا أُقيمت بصورة دائمة -يقيمون (بالمضارع)- فإنها ستصبح زاداً للمؤمن تمنحه التقوى الدافعة لصون الحقوق والحرمات، وبحيث لا يجده الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، ولا سيما في المحطات الخاصة بحقوق الإنسان، فمقاصد الصلاة أكثرها مرتبطة بحقوق الإنسان<sup>(١)</sup>، وخاصة أن «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاححة»، كما يقول الأصوليون والفقهاء.

### ثالثاً- أداء حقوق الناس والحذر من محبطات الفاعلية:

في معظم آيات القرآن ترمز الزكاة لحقوق الإنسان، لأنها القاعدة التي تقوم عليها منظومة الحقوق الإنسانية، مثلما أن الصلاة تمثل قاعدة الحقوق الخاصة لله، وهذا سر اقتران الصلاة والزكاة في عشرات المواضع في القرآن، وورودهما ضمن الصفات الرئيسة للمؤمنين، كما في بداية هذه السورة، حيث ورد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٣]، ولهذا دخلت الصلاة والزكاة ضمن أركان الإسلام الخمسة.

ومن أجل الوصول إلى أعلى درجات الفاعلية في طاعة الخالق وخدمة الخلق، فقد حذرت السورة بصور وأساليب عديدة، مباشرة وغير مباشرة، من جملة من الأمور، أهمها:

#### ١- الظلم والعلو والاستكبار:

الظلم والاستكبار والعلو، هذه الثلاثية تظل تنفخ الفرد أو الكيان حتى يشعر بالتضخم، ومن ثم يجتاح حقوق الآخرين بالمرّة، ويتحول إلى معول

١- يمكن العودة إلى كتابنا في هذا السياق: مقاصد الصلاة بين حقوق الله وحقوق الإنسان، ط١ (تعز: منتدى الفكر الإسلامي، ١٤٢١ = ٢٠١٠).

هدم في صرح المجتمع الذي يعيش بين ظهرائه، ولذلك حمل عليها القرآن حملات ناقد، ومنه هذه السورة الكريمة.

لقد أوضحت هذه السورة أن فرعون وقومه عندما جاءهم موسى بآيات الله مبصرة، اتهموا موسى بالسحر، ثم قال: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [١٤]. فالظلم والعلو هو الذي دفعهم للكفر بآيات الله رغم رؤيتها مبصرة واضحة، واستيقان أنفسهم لها، ثم اندفعوا في مساقط الفساد يمارسون كل صور الانحلال والانحطاط.

ولخطورة العلو على الخلق، فإن سليمان عليه السلام عندما أرسل رسالته إلى ملكة سبأ جعل مضمونها: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيٌّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [٣١]، حيث قدم حقوق الخلق في عدم العلو على حقوق الخالق في الإسلام له تعالى.

ولأن الملكة كانت حكيمة، فقد أرادت أن تختبره قبل أن ترد عليه، وذكرت قاعدة في تعامل الملوك من أهل العلو والاستكبار مع الشعوب: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [٣٤]. وقد أكد الله صحة هذه القاعدة لأن جملة: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ هي من كلام الله كما قال كثير من المفسرين، ومنهم الصحابي الجليل عبد الله بن عباس فيما روى ابن كثير<sup>(١)</sup>. وأكدت تجارب التاريخ أن هذا ديدن الملوك البعيدين عن قيم هذا الدين. أما الظلم فهو النتيجة الطبيعية للشعور بالعلو والاستكبار، وعواقبه دائماً وخيمة في العاجل والآجل، وهو ما أشارت إليه الآيتان: ٥٢، ٨٥.

١- انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ١٢١. وذهب الإمام الشوكاني إلى أن هذه الجملة من كلام الله، وأشار إلى الرواية الأخرى التي ترى أنها من كلام الملكة بلقيس. انظر: محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت)، المجلد الرابع، ص ١٢٧.

## ٢- الاغترار بالقوة:

والاغترار بالقوة هو أحد البوابات الموصلة إلى الاستكبار والطفیان، وعلى الأقل فإنه يُعَدُّ المغتر عن استكمال متطلبات الرفعة والقوة والتقدم، ولذلك قيل في الحِكم: «الغرور مقبرة المواهب».

ومن قراءة السورة يبدو أن مملكة سبأ كانت تملك من مظاهر القوة الكثير، يتضح ذلك من تقرير الهدهد لنبي الله سليمان: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٣]. وكان الزهو بهذا العرش والاعترار بتلك القوة واضحين في ذات التقرير، حيث استغرب الهدهد من سجد هؤلاء للشمس وعدم سجودهم لله الذي وصفه بعدة أوصاف منها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٢٦]. فاخياره لرب العرش العظيم من أجل تضاؤل «عرش عظيم» - النكرة - الذي تتربع عليه الملكة. ويبرز بعض الغرور من كلام بطانة الملكة عندما استشارتهم، فبدون أي دراسة للموقف - كما يتضح من السياق القرآني - قالوا: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْئِدِ الْأَمْرِ إِلَيْكَ فَانظُرْ مَاذَا تَأْمُرُ﴾ [٣٣]، ولولا حكمة الملكة فلربما حاقت بأهل سبأ كارثة، نتيجة هذا الغرور.

## ٣- الشيطان وتزييناته وفتنته:

ورد في تقرير الهدهد أيضاً عن قوم سبأ تسجيل لدور الشيطان في صدهم عن طريق الهداية، واندفاعهم في طريق الغواية الإبليسية المتمثلة في عبادة الشمس: قال تعالى: ﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [٢٤].

وفي حوار نبي الله صالح عليه السلام مع قومه إشارة إلى دور الشيطان، حيث قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧]. أي تتعرضون لفتنة الشيطان، والشيطان إذا لم يستطع أن يمحق العمل، فإنه يسعى لتقليله وتقزيمه على

أقل ما يمكن، بمعنى أن الشيطان عدو للفاعلية الحضارية؛ لأنها تعني بناء جنة الأرض التي تصبح سُلَّم العروج إلى جنة السماء، وهذا لا يُرضي الشيطان الذي أقسم أمام الله أن يحتك ذرية آدم!

#### ٤- الذنوب والمعاصي:

الذنوب إذا كانت في حق الله فهي تحرم صاحبها من نعمة الإعانة والتوفيق، وهذا يضعف الفاعلية، وإذا كانت في حق الناس فهي انتقال إلى الطرف الآخر للفاعلية؛ أي أنها تصبح معولا لتقويض البناء كله.

ومما لفت السورة الأنظار إليه دور الذنوب في صناعة الخوف داخل قلب المذنب، فقد أمر الله موسى عليه السلام وهو يهيئه للرسالة أن يلقي عصاه فألقاها، فلما رآها حية تهتز كالجان، دبَّ الخوف إلى قلبه مع أنه في حضرة الله تعالى: ﴿وَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، كما وصفه الله، فناداه الله بأن لا يخف، فلا ينبغي أن يخاف لديه المرسلون ثم قال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْتًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١١].

وكان موسى قد تدخل في صباه لنصرة فتى من قومه ضد شاب مصري، فوكزه موسى ففضى عليه بدون قصد، هذا الذنب الذي ارتكبه بدون قصد وقبل الرسالة جعله يخاف في هذا الموقف، والخوف بالتأكيد أنه ينال منفاعليات الأفراد والجماعات وفق حجم وخطورة هذا الذنب.

والخلاص من الذنوب يكون بتجنب أسبابها، فإذا وقعت فإن التوبة بشروطها المعروفة تزيل آثار الذنوب، كما أشارت الآية السابقة، وقد أوردت السورة دعوة صالح عليه السلام قومه للاستغفار وهو بوابة التوبة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٦].

## ٥- الجهل ومآلاته:

الجهل عدو للفاعلية فهو عدو بذاته، وعدو بغيره، لأنه بيئة خصبة لاستزراع كل العقبات والمحبطات والمشبطات، التي تتال من الفاعلية.

ومن اللفات التي أوردتها السورة في سياق تقبيح الجهل وتبيين عواره وعوراته، ما قاله نبي الله لوط الذي استنكر فعل قومه في إتيان الرجال شهوة من دون النساء، فقد قال لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ [٥٥]، فالجهل أسهم في إيصالهم إلى هذا الانحطاط الأخلاقي السحيق.

وفي معرض حديث الله عن آياته ونعمه الكونية قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦١] وفي الحديث عن تكذيب الكفار بالآخرة، أشارت السورة إلى دور الجهل فقالت: ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [٦٦]. وفي يوم الحشر ورد أن مما سيقوله الله للمكذبين الكافرين: ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بَيِّنَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٨٤]. كل ذلك يبين العواقب الوخيمة للجهل التي يمكن أن تقتلع الفاعلية الحضارية من الجذور، كما في عصرنا الحاضر، إذ رغم كثرة المتدينين وقوة العواطف، وشدة الأمانى، إلا أن الأمة لم تغادر مربع التخلف الحضاري، والجهل هو المتهم رقم واحد بالتأكيد!

## ٦- التقاليد الراكدة وتيار القطيع الاجتماعي:

وجود الحس الجمعي في أي مجتمع هو سلاح ذو حدين، فإن كان واعياً فهو لصالح الفعالية الحضارية، وإن كان أعمى فهو ضدها، وأصحابه أقرب إلى القطيع الاجتماعي الذي يتحرك بغرائزه لا بعقله. وقد أشارت السورة إلى النوعين، ففي القسم السلبي قال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [٤٣]، وأشارت إلى القسم الإيجابي من خلال دعاء سليمان ﷺ ربه، حيث ورد في آخرها: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٩]، وفي آخر السورة ورد على لسان المصطفى محمد ﷺ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩١]، لأن الانتماء إلى جماعة

الصالحين يزيد من همة الفرد وفاعلية الجماعة، ويسهم في تلاحق الأفكار وتمازج الرؤى، وتكامل الصورة والجهود والتخصصات، وهذا كله يثير الفاعلية الحضارية.

#### ٧- الحرب النفسية:

تتأثر قوة الإنسان سلباً وإيجاباً بمظهر خصمه، ولذلك تلجأ الأنظمة والمنظمات إلى سلاح الإعلام والتوجيه المعنوي، وهذا ما لفتت إليه السورة، حيث أوردت مواقف من إظهار القوة والحرب النفسية بجانبها السلبي (ضد أهل الحق) والإيجابي (معهم). في الجانب السلبي كانت مظاهر العظمة في مملكة سبأ واضحة في انبهار الهدد، وحاولت الملكة بلقيس استخدامها في الهدايا التي أرسلتها، لكن نبي الله سليمان كان أكثر تفوقاً منها لكونه نبياً بجانب كونه ملكاً، ولذلك رفض الهدية وأصر على الهداية بقوة، فذكر أنه يملك أفضل منها، وأردف بتهديد شديد الوعيد جاء فيه:

﴿ أَرْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [٣٧]..

وعندما وصلت إليه الملكة في مدينة بيت المقدس كان قد أعد من مظاهر القوة والعظمة، ولا سيما الصرح الممرد من قوارير والذي حسبته لجة فكشفت عن ساقها، لما أصابها من انبهار، فسأهم ذلك -بجانب دعوة سليمان- في إيصالها إلى شاطئ الإسلام، حيث قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٤٤].

وهكذا، صنع سليمان مع بلقيس كما صنع رسول الله ﷺ مع أبي سفيان قائد قريش يوم فتح مكة من عرض قوي لكتائب الفتح، مما كان له أثر كبير في إقناع أبي سفيان باللجوء إلى المودعة، وعدم جدوى حمل السيف. هذا السلاح إذاً خنجر يمكن أن تُعمده في صدر عدوك، ويمكن أن يُعمده عدوك في صدرك!.



## رابعاً- التفكير الذي يستثمر آيات الله في البناء:

من المعلوم أن إحدى المقاصد الرئيسية من خلق الإنسان استعمار الأرض، عبر خلافة راشدة، فإنه قد أوجد كل الخيرات في هذه الأرض، وما يحيط بها من أجرام، وأوجد نظرية العمارة في آيات الكتاب العزيز، وما على الإنسان إلا أن يعمل فكره في قراءة القرآن ليُجهد عقله في الفهم وهو ما نسميه بـ«الاجتهاد» الذي يأتي ثمرة للتدبر، ثم يُجهد حواسه وقواه عبر عملية «الجهاد» لاكتشاف الطاقات واستثمارها في عملية البناء والتنمية والاستعمار.

هذا ملخص القضية، ويبدو أن سورة «النمل» سعت لتحقيق هذا الشيء عبر الأمور الآتية:

١- الدعوة إلى تدبر القرآن وتلاوته، كما سبق بيانه.

٢- بيان أهمية إعمال جهاز الوعي في الإنسان، وأن أي خير مهما كان مصدره، لا يمكن أن يستفيد منه أحد ما لم يُشغل عقله وسمعه وبصره، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

٣- الدعوة إلى قراءة واستثمار آيات الكون في تنمية الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ آتَانَ جَعَلْنَا آتِلًا لِّسَكْنُو فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [٨٦] والإيمان في الإسلام ليس مجرد شعارات وأمانى، وإنما هو منهج لعمارة الحياة، ولذلك فإن من يقرأ أحاديث «شعب الإيمان» -كما في كتاب «شعب الإيمان» للإمام البيهقي- سيجد أن أغلبها مرتبط مباشرة بحقوق الإنسان، وأن جميعها تتظافر في الأخير لتحقيق العبودية بصناعة حياة حرة كريمة، والدفاع عنها أمام اعتداءات ومؤامرات الداخل والخارج.

٤- الدعوة إلى قراءة التاريخ والاستفادة من عبره، حتى لا نصبح عبرة لغيرنا.

وقد أولت السورة آيات التاريخ اهتماماً بالغاً، ابتداءً من الاسم المرتبط بحادثة تاريخية (النمل)، ومروراً بالحجم؛ حيث أوردت السورة عدة قصص تاريخية:

- قصة موسى مع فرعون وقومه: ٧ - ١٤ .

- قصة داود وسليمان: ١٥ - ٤٤ .

- قصة صالح وقومه ثمود: ٤٥ - ٥٣ .

- قصة لوط وقومه: ٥٤ - ٥٨ .

وبجانب ذلك تضمنت السورة لفتات خطيرة ولطيفة في شأن سقوط مجتمعات وأمم تحت معاول العقاب الإلهي كنتيجة للانحراف والكفران، ومن ذلك:

- في آل فرعون قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٤].

- وفي ثمود قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٥٢، ٥١].

- وَلَقَدْ نَزَّلْنَا نَبِيًّا مِّمَّنْ لَدُنَّا أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٦٩].

ورغم هذا كله أوردت السورة تهديدات لم يعملوا عقولهم ويقرؤوا الآيات:

الأول: الدابة التي تفضح هؤلاء قبل يوم القيامة بقليل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [٨٢].

الثاني: الآية الأخيرة في السورة والتي توعدت هؤلاء، بقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيُّنِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٣].

#### خامساً- العلم والمنهج السببي:

##### ١- العلم:

سأبدأ هذه الفقرة بما انتهت به الأولى، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ طَآءِذٌ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ ﴾ [٥٤]. وهو استفهام إنكاري، فإنه يحاكمهم إلى جهاز الوعي الذي يحملونه في ذواتهم، حيث يملكون أنية الإبصار، ولكن الأنية وحدها لا تنفع بدون المحتوى والمضمون وهو العلم، ولذلك أردف في الآية التالية قائلاً لهم: ﴿ أَيَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَّحْلُونَ ﴾ [٥٥].

ولأهمية العلم وخطورته في كل شيء، ولا سيما في معركة الفاعلية الحضارية، فقد أوردت السورة عدداً من مخاطر الجهل التي أسلفنا في بيانها، وأوردت عدداً من اللفات في سياق تعظيم العلم والحث على التعلم، ومن ذلك:

- المنّ على داود وسليمان بإتيانهما العلم: ١٥، هذا العلم هو الذي مكنتهما من استثمار الطاقات وتجنيد الإنس والجن لعمارة الحياة.

- إظهار قدرة العلم على الابتكار والتفوق في قطع المسافات الطويلة وحمل أشياء ثقيلة خلال بضع دقائق إن لم تكن ثواني، فقد تكفل الذي عنده علم من الكتاب بالمجيء بعرش بلقيس -على عظمتها- من مأرب في اليمن إلى القدس في فلسطين خلال ثوانٍ [٤٠].

- مدح سليمان عليه السلام بأنه أوتي العلم قبل الملكة بلقيس: ٤٢.

- تعليق الاعتبار بأية إهلاك قوم ثمود بالعلم: ﴿ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥٢].

- مطالبة الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر بالبرهنة على صدق معتقدتهم [٦٤].

- إيراد عدد من الآيات ذات الصلة بالآفاق اكتشف علماء هذا العصر بعد التقدم العلمي الرهيب أن فيها صورًا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهي: ١٨، ٦١، ٦٣، ٦٨، ٨٨. وعلى سبيل المثال توجد في الآية: ٦١ وحدها أربع صور من صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

- استفادة نبي الله سليمان - وهو ملك أيضًا - من مخلوق بسيط وهو الهدهد، حيث قال له: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَحِجَّتِكَ مِنْ سَبِيلٍ بِنِيَّ يَقِينٍ﴾ [٢٢]، وهنا تتحقق الحكمة المعروفة: «قد يضع سره في أضعف خلقه»، وهو درس بليغ في وجوب التعلم والاستفادة من كل أحد لأن «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»<sup>(١)</sup>.

٢- الأسباب:

انحازت السورة - مثل كل سور القرآن - إلى السنن والأسباب، بشكل مكثف وواضح، والجديد أن السورة في إطار تأصيلها للمنهج السببي أوردت نقطتين:

الأولى: التنديد بهروب الكفار من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الأسباب إلى عالم الخرافات. وأوردت في هذا السياق نموذجين، الأول: عجز الفراعنة عن الرد على معجزات موسى عليه السلام، فما كان منهم إلا أن اتهموه بالسحر: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [١٣]. والآخر: عجز قوم ثمود عن الرد على نبيهم صالح في عالم الحجاج العقلي، وذهابهم في المقابل إلى التطير به وبمن معه: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَيْرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧].

١- سبق تخريجه.

الثانية: لفت الأنظار إلى أن للأسباب دوراً حتى في إطار المعجزات، رغم أن المعجزات أمور خارقة للعادة، لكن الله ترك فيها حلقة للأسباب ليبين للناس أهميتها، هذه اللفظات وردت في ثلاث معجزات:

المعجزة الأولى: تحول العصا إلى حية تسعى، وهي إحدى معجزات موسى، فقد ترك الله لموسى دوراً، حيث قال له: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِي لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾، فالله يستطيع أن يقول للشيء كن فيكون، ولكنه قال لموسى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فحدثت المعجزة بعد الإلقاء.

المعجزة الثانية: تحول اليد من لونها الطبيعي إلى يد بيضاء من غير سوء وهي معجزة أخرى لموسى، وكان الله قادراً أن يقول لها: كوني بيضاء فتكون، ولكنه قال لموسى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِثْلَ بَيْضَاءِ مِثْرٍ سَوْءٍ﴾ [١٢].

المعجزة الثالثة: معجزة فهم سليمان عليه السلام للغة الطيور وقدرته على التفاهم معها، وكان الله قادراً أن يحقق هذا الأمر بدون مقدمات، لكنه علم سليمان لغة الطير، كما قال تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [١٦].

#### سادساً- إرساء العديد من المبادئ والقيم الحضارية:

استعرضت السورة العديد من المبادئ والقيم التي تستطيع المساهمة في صناعة الفاعلية الحضارية، لتكون قيماً أصيلة في أي عملية للبناء الحضاري وفق الرؤية القرآنية، وأهمها باختصار شديد:

#### ١- الحرية:

من المعلوم أن كل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة وبعث المصطفى ﷺ إلى الناس عامة، فكيف أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه وهو إسرائيلي

وهم مصريون؟ في الحقيقة أن موسى رسول من رسل بني إسرائيل، لكنه بالنسبة للفرعنة داعية حرية، ولذلك لم تكن رسالته إلى فرعون من أجل دعوته إلى الإسلام والتوحيد كسائر الأنبياء والرسل: [١٢]. وهذا يبين قيمة الحرية ومكانتها الرفيعة في الإسلام.

ولقدسية الحرية والاقتناع فإن الأنبياء لا سلطة لهم على الناس ولا وظيفة لهم غير البيان، ولهذا خاطب الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۗ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ۗ﴾ [٨٠، ٨١]، وأورد على لسانه ﷺ قوله: ﴿وَأَنْ أَتَلَّوْا الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۗ﴾ [٩٢].

## ٢- المسؤولية:

المسؤولية في الإسلام قيمة حضارية أصيلة، ابتداءً بمسؤولية الرجل عن أسرته، كما فعل موسى عليه السلام في صحراء سيناء عندما ذهب يبحث لأهله عن نار لعلهم يصطلون: ٧، ومروراً بمسؤولية الحاكم المسلم عن رعيته، ولذلك قال تعالى عن الحاكم المسلم سليمان عليه السلام: ﴿وَتَقَقَّدَ الظَّيْرَ ۗ﴾ [٢٠]. وانتهاءً بمسؤولية الداعية المسلم عن الناس جميعاً، كما فعل سليمان ﷺ عندما وصله تقرير الهدهد عن قوم سبأ وأنهم يسجدون للشمس، حيث أرسل إلى ملكة هؤلاء الناس قائلاً: ﴿الَّا تَعْلَمُوْا عَلٰى وَاَتُوْنِي مُسْلِمِيْنَ ۗ﴾ [٣١]. وقد فعل هذا بوصفه حاكماً مسلماً، أما النبوة فهو مرسل لقومه فقط.

ومن أهم صور المسؤولية: الاعتراف بالخطأ وظلم النفس، ونقد الذات، كما فعلت الملكة بلقيس عندما اعترفت على الملأ بظلم نفسها ثم اعتنقت الإسلام مع سليمان وعلى يده؛ طلباً لثواب الله وفراراً من عقابه: ٤٤.

### ٣- الثواب والعقاب:

المسلم يعرف أن الله خلقه للابتلاء، حيث يبتليه بالخير ليرى هل سيشكر، ويبتليه بالشر ليرى هل سيصبر، وهذا ما أدركه نبي الله سليمان في قمة ملكه وعنفوان قوته، وذلك عندما نجح الذي عنده علم من الكتاب في وضع عرش بلقيس بين يديه خلال ثوانٍ قليلة، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [٤٠].

ويتفرع عن الابتلاء مبدأ الثواب والعقاب وهو من أهم المبادئ التي تساهم في الرقي بالأعمال والفاعليات، ولذلك عندما تفقد سليمان ﷺ الطير ولم ير الهدهد توعد بالعباب أو القتل إن لم يأتيه بسُلطان مبین: ٢١. وبجانب الثواب والعقاب الدنيويين، هناك الثواب والعقاب الأخرويان، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [٨٩، ٩٠].

### ٤- الموضوعية والإنصاف:

ورد في تقرير الهدهد عن مملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٣] ونلاحظ في هذه الآية كيف كان صادقاً أمام الملك سليمان، ولم يكذب عليه بل وصف الملكة بأنها أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وهذا الكلام في العادة يستفز الملوك، لكنه كان شجاعاً وصادقاً وموضوعياً.

وفي اللغات الآتية من تعليمات الله ودستوره، شعر موسى بالخوف لأنه قتل القبطي، كما عرفنا من قبل: ١١، لأن هذه سنة الله فيمن عصى، ولم يستثن الله من هذه العقوبة رجلاً يعده لكي يكون كليمة وأحد أولي العزم من رسله.

وعندما قالت الملكة بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذًى ۖ ﴿٣٤﴾، أقر الله مقولتها - كما أسلفنا - فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [٣٤]، رغم أنها كافرة، لأن الله يريد أن يُعَلِّمَ عباده أن ينظروا للقول لا للقاتل من أجل يكونوا موضوعيين ومنصفين.

ويشبه ذلك العقوبة التي نزلت على قوم لوط، فإن الله لم يستثن زوجة نبيه لوط: ٥٧؛ لأنها كانت شريكة في الجرم. وهكذا يُعَلِّمنا الله أن نكون موضوعيين في: الحب والكره، في الولاء والبراء، في الثواب والعقاب. وبهذا تقوم الدول وتتصر الأمم، حيث تجد المواهب فرصها ويلاقى المحسنون جزاء إحسانهم، فتتعاظم الفاعليات وتسمو الحضارة.

٥- الشورى والحوار:

كانت ملكة سبأ حكيمة بكل المقاييس، ومنها عدم استبدادها بالأمر وتفردها بالقرار، فعندما وصلتها رسالة الملك سليمان عليه السلام جمعت الملائ، وهم البطانة وأهل الحل والعقد، وعرضت عليهم الأمر بوضوح وشفافية، دون أن تُصدر أي قرينة تُوجِّه الشورى في اتجاه ما، بل قالت بكل وضوح: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [٣٢].

والشورى من أهم قيم تكامل الحقائق وائتلاف القلوب وتشابك الأيدي، وتعظيم الفاعليات، وعكسها الاستبداد وهو أشبه بالإيدز لأنه يُضعف جهاز مناعة المجتمع، ويجعله عرضة لكل العلل والأمراض، مما يضعف فاعليته ويسلمه إلى الغثائية والوهن.

٦- التبيين والتثبُّت:

بناء القرارات على معلومات صحيحة ودقيقة عامل قوة، وحضور العكس يصبح عامل ضعف، ولذلك أبرزت السورة هذه القيمة، فالهدم لم يعتمد في تقريره على الأقاويل والإشاعات أو الوشائيات أو حتى الانطباعات، لكنه



شاهد بدقة وتبين وتأكد، ولذلك بدأ تقريره لسليمان عليه السلام بقوله:  
﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِينِ﴾ [٢٢].

وأعظم من هذا ما صنعه سليمان، فرغم هذا التأكيد من الهدهد، إلا أنه بعد أن استمع إلى التقرير قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٢٧]. وحتى في التحليل -وليس في المعلومة فحسب- فإن الأمر بحاجة إلى تبين، ولذلك وضعت الملكة لسليمان اختبار (الهدية)، لتعرف إن كان ملكاً طامعاً أم نبياً داعية. ولكي يفهم نبي الله سليمان الملكة تماماً، فيتصرف معها بناء على معرفة دقيقة، صنع لها بدوره اختبار (تتكير العرش): ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَهَنْدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [٤١].

٧- الخلافة:

في معرض بيان السورة لنعم الله على هذا الإنسان وآلائه التي يستحق بموجبها العبادة، أورد بعض آيات التسخير وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [٦٢]. وهذه إشارة إلى قيمة الخلافة في الإسلام. والقضية واضحة من خلال تناول عدد من السور الأخرى لها، حيث تجعل الإنسان خليفة الله في الأرض، لعمارتها وفق منهجه.

٨- الإعذار:

جاءت قيمة الإعذار -أي البحث للأخرين عن أعذار- من نملة فقيهة، حيث قالت لبنات جنسها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٨] ونلاحظ الإعذار واضحاً في فاصلة الآية: وهم لا يشعرون. وهذا يعني أن الأصل في التعامل مع الآخرين حسن الظن، وهذا درس آخر بليغ من امرأة لم تكن مسلمة وهي ملكة سبأ، حيث وصفت أمام الملاً كتاب سليمان عليه السلام إليها بأنه: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾

[٢٩]، مع أنها لم تتعرف على سليمان بعد، مع أن طريقة إلقاء الكتاب إليها عبر هدهد يُفترض أنها تثير التوجس والارتياب، لكن حكمتها وحسن ظنها جعلها تصفه بأنه كريم.

٩- معرفة الواقع والناس:

كانت ملكة سبأ حكيمة، والحكمة من أهم معالمها معرفة الناس وفهم الواقع وفقه الحياة، ولهذا عرفت طبيعة الملوك: ٣٤، ولأن سليمان عليه السلام أحكم منها، نجح في فهمها وعرف كيف يتعامل معها، فعندما أرسلت له الهدية -الاختبار- رد عليها برسالة قوية جداً: ٣٦، ٣٧، وأدرك تأثيرها سلفاً، وتوقع أنها ستأتي إليه مسلمة، ولهذا بعد أن أرسل هذه الرسالة القوية قال لبطانته: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [٣٨]. وهذه صورة من صور استشراف المستقبل، وهو جزء من فقه الحياة، ولأهمية هذا الموضوع بالنسبة لتكوين العالم المسلم، روي عن الإمام ابن قيم الجوزية قوله: لا يكون الفقيه فقيهاً حتى يجمع بين فقه الواجب وفقه الواقع!.

١٠- أهمية استعراض القوة:

قال تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِسَالِمِينَ جُنُودَهُ، مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٧] ويُقصد بـ(يوزعون): يوقف أولهم حتى يلحق به آخرهم. فهذا الاستعراض يرسل رسالة قوية للخصوم والأعداء، ويساهم في تثبيت هيبتها وفعاليتها المعنوية، إضافة إلى انعكاس هذا الأمر التنظيمي إيجابياً على الأمة نفسها، كما تذهب إلى ذلك علوم التنمية البشرية المعاصرة.

١١- أهمية المظهر:

في مسألة معجزة اليد التي كان موسى عليه السلام يدخلها في جيبه، فتخرج ﴿يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [١٢]، والسوء هو تغير اللون بالبرص أو غيره،

فإطلاق عبارة «السوء» تدل على اعتبار الإسلام للمظهر، ولا سيما للدعاة، ولكن المظهر ليس بذات أهمية الجوهر بالطبع.

١٢- التبسم والضحك:

عندما تكلمت النملة محذرة بنات جنسها من جيش سليمان، وبان فقهاها ببحثها لجيش سليمان عن عذر، سمع سليمان هذا الكلام فَصَدَرَ مِنْهُ تصرف عبرت عنه السورة بالقول: ﴿ فَبَسَّ رِجَالًا كَمَا مَنَّ قَوْلُهَا ﴾ [١٩] (١).

فالتبسم والضحك قيمة حضارية، إذا كان في زمانه ومكانه المناسبين، وبقدره الطبيعي، ولذلك ابتسم هذا النبي الملك إلى حد اقترب من الضحك، رغم أنه كان يقود جيشاً، ولم يمنعه حزم القائد وهيبة الملك، وقبل ذلك حزن النبي من التبسم الضاحك، وهذا أيضاً حدث للنبي ﷺ، فقد روي عنه أنه كان يبتسم، وكان أحياناً يضحك حتى تبدو نواجذُه. وكما قال الإمام ابن القيم فإنه ﷺ: «كان يضحك مما يضحك منه وهو مما يُتَعَجَّب من مثله ويُستغرب وقوعه ويُستندر» (٢).

١٣- الاصطفاء:

الاصطفاء يمكن أن يسهم في زيادة الفاعلية، سواء كان للناس أو للأرض أو للبلدان، وهذا كله تناولته هذه السورة، فالله أعلم حيث يجعل رسالته:

- بالنسبة للأرض، سيناء هي أرض مصطفىا، وفي الآية الثامنة إشارة إلى ذلك، وخاصة إذا جمعنا هذه الإشارة مع آيات صريحة وردت في سور أخرى، حتى إن وادي طوى في سيناء عرفه القرآن بأنه ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ [النازعات: ١٦].

- بالنسبة للرسول وأهاليهم الصالحين، قال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ

١- انظر: تفسير هذه الآية عند المفكر والداعية التركي فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ترجمة: أورخان محمد علي، ط١ (القاهرة: دار النيل، ٢٠٠٣)، ص ٢٨٦ - ٢٨٩.

٢- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد. تحقيق: د. يحيى مراد (القاهرة: مكتبة مصر، دت): ٩٨ / ١٠.

عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ .

- وبالنسبة للبلدان، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ  
الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٩١]، ومن  
المعلوم أن قدسية مكة والمدينة والقدس غير كل مدن المسلمين. ولهذا، فإن  
الصلاة في مساجدها المقدسة مضاعفة كثيراً - كما هو معلوم - مع وجود  
تفاوت نسبي بينها.

هذه هي سورة النمل، وهذه هي عوامل الفاعلية الحضارية، فمن ذا  
سيستفيد؟ وأليس من الغريب أن يعيش المسلمون في ظلام هذا التخلف  
الدامس مع امتلاكهم لكل هذه الأنوار؟

## خصال (الأنعام) من كفار البشر!!

سورة «الأنعام» مكية إلا الآيات: [٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١ - ١٥٣] فإنها مدنية، وآياتها ١٦٥ نزلت بعد الحجر، وترتيبها ٥٥ في النزول و٦٤ في المصحف. وسميت بـ«الأنعام» لورود ذكر «الأنعام» فيها ست مرات كما يقول المفسرون<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن هناك سبباً آخر لهذه التسمية، فقد أكثرت السورة من ذكر عدم استفادة الكفار من آيات الكتب المقدسة، وآيات الآفاق وآيات الأنفس وعبر التاريخ، فكأن من عطل جهاز وعيه (العقل والسمع والبصر) وعجز عن استيعاب كتب: القرآن، والكون، والأنفس، يكون من «الأنعام» البشرية! لأن ذلك سيترتب عليه نتائج وخيمة في الحياة، حيث ستخرج كثير من زوايا الحياة من دائرة العبودية لله إلى الشركاء، وسيتم اختزال الإسلام في بُعد واحد من أبعاده الشاملة، ولذلك حذرت هذه السورة - كما سيأتي - من تفريق الدين [الآية: ١٦] وأكدت على أن كل شيء لله [الآيتان: ١٦٢، ١٦٣].

وبأسلوب آخر يمكن القول: إن للإنسان قوامين: القوام المادي الذي يتفق فيه مع الأنعام وسائر الحيوانات، مع زيادة تميز البشر عن سائر الحيوانات تجعله يميز النافع من الضار في شؤون الدنيا، وإلا فالكل سواء: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ مِثْلَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُرِيدُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [٣٨].

أما القوام الآخر فهو القوام المعنوي، ومضمونه هو تفعيل جهاز الوعي الذي أودعه الله في هذا الإنسان، وبه استحق التكريم حتى أسجد الله له ملائكته، ويستطيع الترقى في معارج الكمال حتى يطاول الملائكة مرة أخرى، أو يهوي إلى أسفل سافلين، حتى ينحط عن «الأنعام» في التسفل والانحطاط!

١ - انظر مثلاً: أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير: ص ٢٧٧.

يبدو أن السورة كلها تتمحور حول هذا الموضوع بشكل أساسي، إذ أن معظم آياتها تشريح وتوصيف للفكر «الأنعامي» الذي يسكن عقول وقلوب الذين يكفرون بالله، ومن ثم يقوم بتوجيه سلوكهم نحو العدوانية والطفيان والسلب والاستحواذ.

والآن لنستعرض هذه الصفات وتلك الخصال واحدة واحدة، ولكن باختصار شديد حتى نعطي للقارئ صورة كلية في مساحة صغيرة. هذه الخصال والصفات هي:

١- العدول عن ألوهية الله: العدول عن ألوهية الله هو بداية الخلل كله، ولذلك افتتح الله به السورة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [١]، وكرره في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْبَغِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [١٥٠].

هذه هي الجريمة الكبرى؛ أن تعدل عن عبادة الله إلى عبادة غيره، أو أن تعدل به شريكاً وتجعل له مثيلاً، ومن هذه الجريمة الكبرى تسلسل بقية الجرائم وصفات الفكر «الأنعامي»!

٢- الممارسة في البعث، والشك في الحشر بعد الموت، والوصول إلى حد الإنكار والسخرية والاستهزاء: (٢، ٢٩، ٣١).

٣- الإعراض عن آيات الله، والسخرية والاستهزاء بها، والسخرية بأنبياء الله ورسله: (٤، ٥، ١٠، ٦٨، ١٥٧).

٤- تكذيب الأنبياء واتهامهم وكتبتهم بالسحر، في محاولات للهروب من الحقائق والبراهين إلى الظنون والأوهام، ومن عالم الشهادة البين الواضح إلى عالم الغيب الهلامي الدخاني المتوهم: (٧، ٩١)، كنسبة الآيات المادية والبراهين العقلية والحقائق الواقعية إلى السحر!

٥- الصمم والعمى عن آيات الله في الأنفس والآفاق، ومن ثم غياب العقل تماماً عن المشهد، مما يحول أصحابه إلى «أنعام» أشد خطورة من الأنعام الطبيعية، وقد ركزت السورة على هذه القضية، فعالجتها من زوايا عديدة، وتناولتها بطرق مختلفة، وأكدت عليها في مواضع كثيرة، منها: (٦، ٢٥، ٣٢، ٣٦، ٣٩، ٤٦، ٥٠، ٦٥، ١٠٤، ١٢٢). وأكثرت السورة من التركيز على هذه القضية لأنها الأرضية الخصبة التي سمحت وتسمح بنمو الثقافة «الأنعامية».

وتولت عدد من الآيات توفير المعالجات لهذا الداء العضال، وهذه الآفة الفتاكة، في محاولة لفك القيود عن السمع والبصر وتمزيق أغلال العقل والقلب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [١٠٤]، وتقديم الكتاب الكريم، الصغير بمبناه الكبير بمعناه، والذي يتبارك بالتدبر وإعمال العقل، وتنزيله إلى الواقع للإجابة عن التساؤلات وحل المشكلات، تقديمه كدواء شافي لمن أراد الاستشفاء: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٥] ولن أراد العودة إلى الحياة والأحياء، لأن من تحلى بالفكر (الأنعامي)، صار بلا سماع ولا بصر ولا عقل، ومن ثم يصير في عداد الأموات: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٢٢].

٦- الإكثار من طلب الآيات الحسية، ومجيء المعجزات المادية كتحويل الصفا والمرورة إلى ذهب [كما في الآية ١٠٩]<sup>(١)</sup>، حيث الفرار من آيات الله في عالم الشهادة، الآيات التي تحمل الهداية والرحمة والإمهال، إلى آيات (عالم الغيب)، الآيات الخارقة التي يعقبها العذاب الاستثنائي

١- راجع سبب نزول هذه الآية في: السيوطي: أسباب النزول: ص ١٨٤.

عندما لا يؤمن بها من رآها [٨، ٣٧، ٥٧، ١٠٩، ١١١، ١٢٤، ١٥٨]، وقد امتنع الرسول ﷺ عن الاستجابة لهذه الطلبات والمطالبات خوفاً على هذه الأمة من أن تُكذَّبَ فينزل عليها العذاب الذي يستأصل شأفتها، لأنه الرحمة المهداة للعالمين، ولأن هذه الأمة الأمة الخاتمة!.

٧- الإشراف بالله وعبادة الأوثان، بكل صور الشرك أو بعضها، كتوزيع خصائص الألوهية بين الله والأصنام أو الشركاء أيًا كانوا [١٩، ٢٢، ٧٤، ١٠٠، ١٠١].

٨- ممارسة التحليل والتحرير وفق الأمزجة والأهواء وما تواطأت عليه المجتمعات، وليس وفق الوحي الذي جعل هذا الأمر من أخص خصائص الألوهية، كتوزيع الحرث والأنعام بين الله والأصنام [١٣٦ - ١٣٨]، وتحريم بعض الطيبات على الإناث دون الذكور [١٣٩]، وقد عاب القرآن هذا الأمر، وجَرَّمَهُ، وشن عليه الغارة [١٤٣ - ١٤٥] وبين ما حرم عليهم من كبائر الذنوب والآثام التي يقترفونها ليلاً ونهاراً [١٥٠ - ١٥٢].

٩- الكذب على الله، والافتراء عليه في بعض القضايا والموضوعات إلى حد اختلاق الوحي، وادعاء نزول الوحي من السماء، في مقابل التكذيب بآيات الله، والتلاعب بها، والسخرية منها، مما عده الله من أكبر الكبائر وأظلم الظلم، بل وأكفر الكفر [٢١، ٩٣، ١٤٤].

ومثل ذلك أو قريب منه الجحد بآيات الله [٣٣]، والصدوف عن آيات الله والتكذيب بها بمختلف صور التكذيب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [١٥٧] وكان في آية سابقة قد قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيْدِ تَمَّهُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [٤٦].

والصدوف عند أهل اللغة له معانٍ عديدة، كلها تدور حول الميلان



والإعراض والنفور<sup>(١)</sup>، ومن جرائم هذا المربع الخوض في آيات الله بدون علم والإساءة إليها، والسخرية منها [٦٨].

١٠- الكذب على النفس ومغالطتها والكذب على الله [٢٣، ٢٤، ٢٨]، ويصل امتهان الكذب والإدمان عليه واعتياده إلى حد أن صنفاً من هؤلاء يكذبون على الله في الآخرة، بل ويحلفون الأيمان الكاذبة على ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ كُنْتُمْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٣٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [٢٣، ٢٤]، ولكن بعد المحاجة يشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين [١٣٠].

١١- الفرق في ظلمات الجهل، والانجراف مع عواصف الظنون والأوهام والتخرصات، وعدم الوصول إلى شاطئ العلم وبرّ اليقين: [١١١، ١١٦، ١١٩، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠].

١٢- قسوة القلوب وتجمد العقول، والنسيان، واتباع تزيين الشيطان وخطواته ووسوساته ونزغاته، والاستجابة لدعوته، والوقوع في أحابله: [٤٣، ٤٤، ٧١، ١٠٠، ١٤٢].

١٣- خسران النفس وظلمها بعدم الإيمان، والسير في طريق الشذوذ، ومناقضة تيار الكون الهادر في طريق العبودية لله والتسبيح بحمده، وإهلاك الأنفس بالنأي عن هذا الدين الذي فيه فلاح الدنيا والآخرة: [١٢، ٢٠، ٣١، ٢٦].

١٤- الدخول في تأثير دوامة التحالف إبليسي بين شياطين الإنس والجن، الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، واتباع خطواتهم وإيحاءاتهم، والتأثر بزخارفهم وتزيينهم: [١١٢، ١٢١، ١٢٨، ١٢٩].

١٥- معاداة الأنبياء والصالحين: ١١٢، والسخرية من المؤمنين،

١- انظر مثلاً: ابن منظور: لسان العرب: ٢٤/٤، الفيروز أبادي: القاموس المحيط: ص ١٠٦٨، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ١/ ٥١٠. وانظر: أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ١٢٢/٤.

والاستهزاء بأقدار الله، والافتتان بتقسيم الله للرزق بين الناس: ٥٣.

١٦- الانفصام بين توحيد الربوبية، حيث الاعتراف بالله خالقاً وناقلاً وضاراً ورازقاً ومجيباً ومميتاً، وبين توحيد الألوهية، حيث يتجهون بالطاعات والقربات والندور إلى غير الله، ولهذا فإنهم عندما يتعرضون للأخطار يدعون الله، وعندما تنكشف الغمة وتزول الكربة فإنهم يشركون بالله: ٦٣، ٦٤.

ولهذا، فإنهم يتجهون بالحاكمية إلى غير الله: ١١٤، وقد عاب عليهم القرآن هذا الفصل، ودعاهم إلى عبادة الله في كل شؤون الحياة، ولقن الله نبيه محمداً ﷺ كيف يُخلص العبادة لله جميعاً في محراب الحياة.. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَرُزٌّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٢ - ١٦٤﴾ .

١٧- المحاجة في الله: ٨٠، وإنكار الوحي: ٩١، والاستكبار عن آيات الله، والقول على الله بغير حق: ٩٣، واتخاذ الدين لهواً ولعباً، وجعل الدنيا غاية في حد ذاتها وتقديم الدنيا على الآخرة: ٧٠، ولا يقتصرون في اتباع الأهواء على أنفسهم - كما أسلفنا - بل يدعون الآخرين إلى اتباع هذه الأهواء: ٥٦، ولأن الله يمهلهم ويفتح عليهم في الدنيا، فإنهم يقعون في استدراج الله لهم، حيث يعاقبهم بتزيين الباطل لهم بعد استفاد كل الآيات والندر، مما يزيدهم طغياناً وكفراً: ١٠٨، ١٢٢.

١٨- العمه في الطغيان: ١١٠، ووصول الطغيان والحمق والجهل إلى حد استعجال العذاب: ٥٧، ٥٨. ورغم تتابع آيات الله وبصائرهم فإن تظافر الجهل والطغيان والاستكبار يعميهم عن رؤية هذه البصائر، ولهذا فإنهم يتحملون

مسؤولية أنفسهم، ولا يملك لهم الرسول ﷺ شيئاً رغم حرصه الشديد عليهم، ورحمته بهم: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [١٠٤].

١٩- تفريق الدين، بأخذ بعضه على حساب بعض وفق الهوى والظروف، وتشجيع كل جماعة لبعد من أبعاد الدين، بالتمحور حوله وحده، واختزال الدين كله فيه، وتسفيه الذين يتمحورون حول الأبعاد الأخرى، ومن ثم يتحول الدين إلى أداة لتمزيق الأمة وتوزيع الإحن، وإشاعة الفرقة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [١٥٩].

٢٠- ممارسة كل صور وصنوف الإجرام والمكر، وهي الذنوب الكبيرة وبالأخص المرتبطة بحقوق الناس، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [١٢٣]، لكنه توعد المجرمين بالصغار: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [١٢٤].

ونلاحظ في الآيتين كيف ربط الله بين الإجرام والمكر، لأن الإجرام عملية سطو منظمة على حقوق الآخرين تحت حجب مضللة وبأسلحة خفية، في إطار عصابات سرية تعمل في الظلام في الغالب، رغم أن زعماءها من عليية القوم وكبرائهم!.

وقد توعد الله المجرمين بأن ينالهم بأسه: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [١٤٧] وقبل ذلك أوضح أن تفصيل الآيات من أجل أن تستبين سبيل المجرمين [٥٥] حتى لا يبقوا مموهين، وحتى لا يسقط عامة الناس في حباثتهم، وينخدعوا بشعاراتهم وأكاذيبهم.

٢١- الإساءة إلى مقام الألوهية، بإضافة الصاحبة والولد إلى الله،

وباختلاق البنين والبنات بغير علم: ١٠٠، ١٠١، ويتحميل القدر مسؤولية كل الخطايا التي يرتكبونها والانحرافات التي يقعون فيها. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٤٨].

٢٢- اتباع تزيين الشركاء إلى حد قتل الأولاد وذبح فلذات الأكباد، وتأسيس هذا الإجرام باسم الدين، وتلبيس هذا الافتراء لباس التدين [١٣٧] وقد رد الله على هذا الجرم والافتراء وأمثاله بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [١٤٠].

٢٣- اقتراف مساوئ الأخلاق ومقارفة الكبائر، ومعاقرة سائر الذنوب التي حرمها الله تحريمًا قطعياً، ولفت أنظارهم إليها بدلا من الانشغال بتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات، والافتراء على الله في هذا وذاك [١٥٢، ١٥١].

إنهم دائمو الكسب للآثام: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ [١٢٠]، ونلاحظ في الآية أن الله استخدم الفعل المضارع «يكسبون» وهو يفيد المداومة والاستمرار، وفي نفس الوقت فإن كلمة الكسب تطلق على حصول المرء على ما يراه ثميناً وذا قيمة كبيرة، بما يعني أن هؤلاء صاروا مدمنين على معاقرة الآثام، ويستمتعون بها، ويبذلون في سبيلها الوقت والجهد والمال.

٢٤- الفسق والإسراف: ومن الآثام التي ترتكبها «الأنعام» البشرية في هذا السياق، وكما بينتها السورة: الفسق، حيث قدمت السورة إشارة مميزة إلى تعريف الفسق في هذا الإطار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

بِأَيِّتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾، فَإِنَّ التَّكْذِيبَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ عَمَلِيًّا، وَلِذَلِكَ خَتَمَ الْآيَةَ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وَالْفَسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، أَيْ أَنَّ هَذَا الصَّنْفَ يَكْذِبُ بِآيَاتِ اللَّهِ عَنِ طَرِيقِ الْأَعْمَالِ وَالتَّصَرُّفَاتِ. وَالْإِسْرَافُ هُوَ جَرِيمَةٌ أُخْرَى مِنْ جَرَائِمِ هَؤُلَاءِ وَهُوَ تَجَاوُزُ الْحُدُودِ الْمَعْقُولِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُ كُنْهِي فِي سِيَاقِ الدَّعْوَةِ إِلَى زِرَاعَةِ الْأَرْضِ وَالتَّمَتُّعِ بِطَبِيبَاتِهَا [١٤١].

«إِنْعَام» اللَّهُ بِتَجَنُّبِ فِكْرِ «الْأَنْعَام»:

هَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ مَنِهْجِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يَرْتَدُّونَ إِلَى دِرْكَةِ «الْأَنْعَامِ» وَيَرْتَدُّونَ طِبَاعَتِهَا، وَيَأْخُذُونَ أَفْهَامَهَا وَغَرَائِزَهَا، وَيَسْتَعِيرُونَ أَنْيَابَهَا وَأَظْفَارَهَا وَمَخَالِبَهَا وَأَضْلَافَهَا، لِلْإِضْرَارِ بِخُصُومِهِمْ وَمَنْ يَعْتَبِرُونَ هَمَّ أَعْدَاءِهِمْ، وَيَحْوِلُونَ الْمَجْتَمِعَ إِلَى غَابَةِ مِنَ الْوَحُوشِ الْمَفْتَرَسَةِ، وَيَصْنَعُونَ قَوَانِينَ وَشَرَائِعَ غَائِبِيَّةَ تَعْتَرِفُ بِقَتْلِ الْقَوِيِّ لِلضَّعِيفِ وَالتَّهَامِ الْكَبِيرِ لِلصَّغِيرِ، وَتَكُونُ لُغَةُ الْحَوَارِ وَالتَّفَاهِمِ دَائِمًا هِيَ الْقُوَّةُ، وَتَسْوَدُ الصَّرَاعَاتُ وَتَتَسَيَّدُ قِيَمُ الاسْتِحْوَاذِ وَالتَّطْفِيقِ وَالتَّمَلُّكِ وَالْأَسْرِ.

وَحَجَرُ الزَّوَايَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ الْبَعْدُ عَنِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَغْيِيبِ جِهَازِ الْوَعِيِّ الْإِنْسَانِيِّ بِتَعْطِيلِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ وَالبَصْرِ، وَلِذَلِكَ أَدَانَتْ السُّورَةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ، فَعَرَّتْهَا، وَحَلَّلَتْهَا وَشَرَّحَتْهَا، وَوَضَحَتْ فِي ثَنَائِهَا الْمَعَالِجَاتِ وَالْمَخَارِجَ مِنْهَا.

وَقَدْ اِكْتَفَيْنَا فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ السَّرِيعَةِ بِتَحْلِيلِ الْآيَاتِ الَّتِي شَرَّحَتْ وَشَرَّحَتْ ظَاهِرَةَ «الْأَنْعَامِ» الْبَشَرِيَّةِ، أَمَّا الرَّدُودُ وَالْمَعَالِجَاتُ وَالْمَخَارِجُ فَتَرَكْنَاهَا لِلْقَارِئِ، لِكَيْ يَتَدَرَّبَ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَقِرَاةِ قِرَاءَتِهِ مَوْضُوعِيَّةً وَيُدْرِسُهُ دِرَاسَةً تَحْلِيلِيَّةً.

وَنَلَفَتْ الْأَنْظَارَ إِلَى أَنَّنَا عِنْدَمَا نَحُلُّ هَذِهِ الْخِصَالَ وَالصِّفَاتِ، وَنَسْتَبْطِئُهَا مِنْ خِلَالِ سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» الَّتِي رَكَّزَتْ حَدِيثَهَا وَخَطَابَهَا عَلَى الْكُفَّارِ

والمشركين، فإن المسلمين ليسوا بمنأى عنها، والسورة في الأصل، ضمن القرآن كله، هي خطاب للمسلمين، ومن ثم فهي تحذر من الوقوع في هذه الخطايا والأخطاء، وتدفع بالسير نحو الصراط المستقيم الذي يضم الخصال المضادة لكل ما أوردناه من خصال في هذا الموضوع.

ويكفي أن نشير إلى اللفظات الكبيرة التي قامت بها هذه السورة لأهل العقل أفراداً وجماعات، ففي إطار الجماعة ورد في السورة قوله تعالى: ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٩٧]، ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [٩٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٩]، ﴿وَلِنُنَبِّئَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [١٠٥]، ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٢٦]، فإذا لا بد من العلم والفقهِ والإيمان والتذكر من أجل الخلاص من الفكر «الأنعامي»، وتجنب صفات وخصال «الأنعام».

وعليه، فإن كل قارئ للقرآن ينبغي أن يزن نفسه بميزانه، فيعرف أين أحسنَ ليعزز الإحسان ويطوره، وأين قصر ليتلافى هذا التقصير ويتداركه ويستدركه، ويستبدله بنقيضه أو ما هو أحسن منه.

## مُجَفَّزَاتُ مَنَابِعِ الْفُرْقَةِ فِي (سبأ)!

سورة «سبأ» مكية إلا الآية السادسة فقد اختلفوا حولها، وآياتها أربع وخمسون، نزلت بعد سورة «لقمان» ورقمها في النزول: ٥٨ وفي المصحف: ٣٤.

اشتهر العرب قديماً بالتشطي وطغيان الحس الفردي، حتى جاء هذا القرآن فَقَلَّبَ حياة العرب وطبائعهم رأساً على عقب، فقد نجحت تعاليم الإسلام وشخصية المصطفى ﷺ في تأليف أمة واحدة وجعلها كالجسم الواحد من أولئك الأفراد المتساشرين، والمنة تعود لهذا الدين ومالكة تعالى الذي قال لرسوله ﷺ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ما يهمننا في هذا المقام التأكيد على أن اليمنيين الذين هم أرومة العرب ومهد العروبة يعانون من هذا الحسّ الفردي والانقسام المناطقي والتشطي القبلي، ويكفي أن نعرف أن عدد مدن وقرى ومحلات اليمن تزيد عن ١٣٠ ألفاً مع أن السكان في آخر تعداد سكاني حوالي عشرين مليون نسمة، في المقابل فإن ثمانين مليون مصري -مثلاً- يتوزعون في ٤ ألف مدينة وقرية!!.

هذا التشطي اليمني له مظاهر كثيرة، ليس مجالها هنا، وما نريد الإشارة إليه أنه ظاهرة قديمة، حيث تفرق اليمنيون قبل مملكة سبأ شرقاً وغرباً، وفي مملكة سبأ التي سميت السورة باسمها -والتي كانت عاصمتها مأرب في شمال شرق اليمن- اندلعت الخلافات بين القبائل والأسر والبيوت، وبسبب غياب الحس الجمعي وطغيان الفردية انهارت كثير من المؤسسات التي تعد مقومات للمجتمع والدولة، ومنها سد مأرب العظيم الذي انفجر وتهدم وكوّن سيل العرم الذي تحدثت عنه السورة، وحدثت مأساة تاريخية لليمنيين، وكان بعدها غير المنظور وأسوأ ما فيها هو تأصل الفردية بين

اليمنيين، وهاجرت قبائل كبرى منهم شرقاً وغرباً إلى بلاد الشام والعراق والحبشة ومصر وشمال الجزيرة العربية وشرقها، وصارت ظاهرة عريضة عَبَّرَ عنها العرب بمثل يقول: «تفرقت أيدي سبأ»<sup>١</sup>.

وتحدث القرآن نفسه في هذه السورة عن هذه المأساة، وأشار إلى هذا المثل الشائع عن تفرق «أيدي سبأ» بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [١٩]. ومع أن ست آيات فقط من سورة «سبأ» هي التي تحدثت عن هذه المملكة التي عصفت بها رياح الفرقة قبل أن يجرفها (سيل العمرم)، إلا أن السورة كلها -إذا تدبرنا نصوصها- اهتمت بمعالجة موضوع الفرقة، من خلال معالجة الجذور الفكرية العميقة، حيث حرثت الأرضية الثقافية التي توفر القابلية للتشطي والتفرق، وتولت تجفيف منابع المسؤولة عن بروز ظاهرة التشطي، وشيوع الفرقة والحس الفردي.

ونحن العرب أحوج ما نكون للبحث عن عوامل الوحدة والائتلاف، وقراءة مصادرها الدينية وتراثنا بما يجفف منابع الفرقة والاختلاف ويعزز من عوامل الوحدة والائتلاف، ولا سيما أننا صرنا في ذيل القافلة البشرية، بل وصرنا مسخرة العالم محبين ومبغضين، حتى إن كاتباً إنجليزياً صديقاً للعرب يُدعى أنتوني ناتغ قال يوماً: «إن مصيبة العرب الكبرى هي فرديتهم، فأنت لو جمعت خمسة منهم في غرفة مغلقة لخرجوا بستة أحزاب سياسية»<sup>(١)</sup>. فما هي إذن عوامل الائتلاف ومجففات منابع الفرقة والاختلاف؟ إن قراءة سورة «سبأ» بتدبر وتحليل تُظهر أنها سبعة:

#### الأول- إرساء مبادئ التوحيد والخشية لله وحده:

اعتاد علماء العقيدة على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: الربوبية، الألوهية، الأسماء والصفات، وكلها موجودة في هذه السورة، من أجل إيجاد الأساس المتين للقيم التي تريد السورة إرساءها، ولا سيما

١- انظر: سعد جمعة: مجتمع الكراهية (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت)، ص ١٦٠.



القيمة المركزية لها: الوحدة ونبذ الفرقة.

١- توحيد الربوبية:

من مفردات توحيد الربوبية الواردة في هذه السورة:

- جعل كل ما في السماوات والأرض لله تعالى [١] أي من خلقه وملكه تعالى.

- علمه تعالى بكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها [٢]، لأنها ملكه، ولا يحدث شيء من ذلك إلا بأمره.

- تفرده وحده برزق الناس من السماوات والأرض [٢٤]، بل ﴿يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [٣٩].

- الفاعل الوحيد في هذا الكون وفي هذه الحياة هو الله تعالى: [٤٨ - ٥٠].

٢- توحيد الألوهية:

- بدأت السورة بالحمد لله المستحق للحمد والشكر والعبادة [١].

- نفتت عدد من آيات السورة الشركاء لله، وحثت على الاتجاه إليه بالدعاء الخالص: [٢٢، ٢٧، ٤٠ - ٤٢]، والدعاء هو مخ العبادة. وطالبت بعض هذه الآيات بإبراز الشركاء لله، مؤكدة على وحدانيته وتفرده سبحانه وتعالى.

- من ألوهيته تعالى إفراده بالشفاعة، حيث لا شفاعة إلا بإذنه: ٢٣.

- الحديث عن حتمية إتيان الساعة، حيث أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يقسم بذاته تعالى عالم الغيب الذي لا تخفى عليه ذرة في هذا الكون، بأن الساعة ستأتي، وأنه تعالى يحصي كل شيء في كتاب مبين إلى يوم الحساب، وليجزى المحسنين في عبادته، ويعاقب المسيئين الذين رفضوا عبوديته: [٣ - ٥].

- مناقشة المكذبين بالبعث، ولفت أنظارهم إلى مخلوقات الكونية:

[ ٧ - ٩ ] من أجل نقلهم من الإيمان العاطفي إلى الإيمان البرهاني الذي لا تزغعه الجبال.

- التذكير بحتمية قيام الساعة في موعدها المحدد، والتهديد المبطن بأن موعد الناس معها ثابت لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون: ٢٩ ، ٣٠ .

٣- توحيد الأسماء والصفات:

أبرزت السورة صفات الله بصورة عملية كعادة القرآن، حيث ربطت هذه الصفات بزرع وتنمية مراقبة الله والخوف منه وخشيته في عقول وقلوب المؤمنين:

- وصفت فاصلة الآية الأولى الله بأنه ﴿ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ ﴾، وبدأت ذلك بضمير الفصل «هو» للتأكيد، وكأن الآية تقول هو وحده صاحب الحكمة والخبرة في هذا الكون، وهو كذلك.

- ووصفت فاصلة الآية الثانية الله بأنه ﴿ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴾، وبدأت بضمير الفصل «هو» مثل الآية الأولى تماماً للغرض نفسه.

- وصفت الآية الثالثة الله بأنه ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ ﴾؛ وهو ما يزرع في قلب القارئ الخاشع التعظيم والخشية.

- أوردت آيات أخرى بعض أسماء الله الحسنى، وهي العزيز الحميد: ٦ ، والرب الغفور: ١٥ ، و«ربك على كل شيء حفيظ»: ٢١ ، «وهو العلي الكبير»: ٢٢ ، «وهو الفتاح العليم»: ٢٦ ، «هو الله العزيز الحكيم»: ٢٧ ، «وهو خير الرازقين»: ٣٩ ، «وهو على كل شيء شهيد»: ٤٧ ، «علام الغيوب»: ٤٨ ، «سميع قريب»: ٥١ .

وكل هذه الأسماء والصفات في مواضعها تبرز حقيقة الألوهية في هذا الكون، وتزرع الرقابة الداخلية، مثل قوله تعالى لآل داود: ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ﴾

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾؛ وهو ما يؤدي إلى تجويد الأعمال والارتقاء بالفاعليات.

وهكذا، فإن التوحيد يؤدي إلى توحيد مصدر التلقي ويوحد الغاية العامة، فيقلل ذلك من الاختلافات؛ لأن البديل هو الأهواء، وهي ريح عاصفة تفرق أصحابها شذراً مذبذباً.

الثاني- إطلاق العنان للتعلم والتفكير:

١- العلم:

العلم والفكر يساهمان في تجفيف منابع الفرقة، لأنهما يساعدان أصحابهما على التمييز بين الحق والباطل، بين الغث والسمين، والعالم المفكر هو الذي يستطيع أن يعرف قيمة وعظمة كلام الله: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [٦] والاعتصام بالقرآن، هو اعتصام بحبل الله الذي يوحد الجميع، ويهدي إلى الصراط المستقيم، فيتحد الناس في الوجهة، وإن اختلفوا في الوسائل والأساليب، فإن مثل هذا الاختلاف لا يضر، بل ينفع، وقد يكون سبباً في التنافس على إبداع الأفضل والأكفأ والأحسن.

وتتضح قيمة العلم بصورة أكبر إذا عُرِفَتْ أضرار الجهل، فبضدها تتميز الأشياء، ومن ذلك: إنكار البعث، فإن أحد أسباب الإنكار هو «الضلال البعيد»: ٨، وهو من الجهل. وكذلك الإعراض عن الدائرة العالمية، والدوران حول العصبية الضيقة سببه جهل أكثر الناس: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٨].

وبالمثل، فإن وقوع كثير من الضعفاء في دائرة التأثير السيء للمتطرفين، أحد أسبابه الجهل الذي يتصف به العامة في العادة: ٣٤، ٣٥. وهو الذي يدفع إلى التكذيب بآيات الله، كما فعل مشركو العرب، ولهذا أشار الله إلى

جهلهم فقال: ﴿ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ [٤٤].

وتقع كثير من المشاكل بين الناس، وتتقطع الأواصر بينهم، بسبب الصراع على المال، وعدم رضا البعض عن أقدارهم وحظوظهم، وهذا يقع بسبب الجهل بالحكمة الربانية من توزيع الرزق في معركة الابتلاء، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣٦]. وأكدت آية أخرى هذه الحكمة الإلهية وختمت بالتأكيد على أنه تعالى ﴿ خَيْرُ الرِّزْقِ كَيْفَ ﴾ [٣٩].

٢- الفكر:

أما بالنسبة للفكر، فقد دعت السورة إلى التفكير في كل ما في السماوات والأرض مما خلقه الله بدون استثناء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [٩].

وأشارت السورة - لمن تمعن في النص المقصود- إلى أن الشكوك والظنون هي التي أوردت الكفار المهالك، فقد ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ [٥٤، ٥٣] وليتمعن القارئ في جملتي: ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ !.

ومن الظنون والأوهام التي لفتت السورة النظر إليها بإيماءة لطيفة في قصة نبي الله سليمان، إذ مات والجن مستمرون في العمل إلى أن أكلت الأرض «دابة الأرض» عساه وسقط [١٤]، فلم يعرفوا موت شخص بين أيديهم، فكيف يعرفون الغيب؟

ولأن التقاليد الراكدة عدوة التجديد والإصلاح في كل زمن ومكان، فإن

الكبراء والمترفين يقدمون أنفسهم كأمناء على هذه التقاليد وتراث الآباء: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ [٤٣]. ولأن هؤلاء ضد العقل فإنهم في المواجهة بين الحق والباطل، يهربون من عالم الحقائق إلى الخرافات والأوهام كما قال تعالى في نفس الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٣].

وأبرزت السورة مشهداً من مشاهد القيامة ذات الصلة بتقليد الضعفاء للأقوياء والكبراء عندما يلتقون في صعيد القيامة ويتبادلون الاتهام: ٣١ - ٣٢، ونلفت النظر إلى أن السورة أطلقت على هؤلاء المستكبرين والمستضعفين مصطلح «الظالمين»، حيث بدأت المشهد بالقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ..﴾ [٣١]، فإن الطرفين ظالمان، وهذا منتهى المحاكمة والإدانة للتقليد والمقلدين!.

وفي قضية نبوة محمد ﷺ دعت السورة المشركين إلى إعمال عقولهم بعيداً عن القطيع الاجتماعي الذي يمنع من التفكير السوي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَرِيْدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُجْرِ يُنْفَكُورًا مَا بَصَاحِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [٤٦]. وبهذا، فإن سورة «سبأ» لم تكتفِ بتقرير أهمية التفكير، وبيان أهميته، والحث عليه، بل بينت الطريقة الصحيحة للتفكير، حتى لا يكون تفكيراً عقيماً يتأثر - بدون وعي أو بوعي - بضغط القطيع الاجتماعي والتيار الجمعي.

هذا التفكير إذا حَصَلَه المرء يصبح منهجاً دائماً في حل المشكلات، ومواجهة المعضلات، وبالتالي إذا فُعِلَ فإنه سيجفف منبعاً من منابع الفرقة والتشظي والاحتراب مع الآخر، فالتفكير السليم سيوضح المحق من المبطل، وسيوفر الحل السليم بما يمنع التنازع والإصابة بداء الفرقة.

### الثالث: العمل المنضبط لعمارة الحياة:

ثبت من تجارب الأفراد والجماعات أن الفراغ والبطالة من أسباب المشاكل ومناخ الفرقة. ولهذا أولت سورة (سبأ) قيمة العمل المنضبط بالمنهج الإسلامي اهتماماً كبيراً، وهو النشاط العبادي المرتبط بعمارة أي زاوية من زوايا الحياة، والذي يعرف صاحبه أنه سيثاب عليه إن أحسن وسيعاقب عليه إن أساء، هذا في بذل الأسباب، أما في النتائج فإنه مبتلى في الحالتين، هل سيشكر إن نجح وهل سيصبر إن ابتلى بالفشل؟

#### ١- نموذج العمل الملتزم:

أوردت سورة سبأ نموذج «آل داود» للعمل الملتزم، فقد كان نبي الله داود حداداً قبل أن يصبح ملكاً لبني إسرائيل، وقد قدم نموذجاً في العمارة والاستخلاف، مع الموازنة بين الدنيوي والأخروي؛ إذ استغل الأسباب لخدمة نفسه وأسرته وأمهته، حيث صنع من الحديد دروعاً قوية واسعة «سابغات»، وأمره الله أن يحكم هذه الصنعة بقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾، وحثه هو وأهله على الالتزام بأخلاق الدين: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وحذرهم من رقابته إن زاغوا: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١].

وواصل السير في درب العمل الصالح ابنه سليمان عليه السلام الذي صار ملكاً على بني إسرائيل، وهياً الله له الأسباب فاستثمرها، ووهبه أموراً أخرى فوق عالم الأسباب، حيث سخر له الجن والريح، فجعلها سليمان أسباباً لخدمة الخلق، بصناعة المحاريب والتمائيل والجفان والقذور الكبيرة، وأمرهم الله تعالى بشكره من خلال هذه الأعمال، رغم كونهم ينتمون إلى دوحه النبوة، وشكر الخالق يكون بالإحسان إلى الخلق: [١٠ - ١٤].

#### ٢- نموذج العمل غير الملتزم:

بعد قصة «آل داود»، أورد الله قصة مملكة «سبأ»، فقد أنعم الله عليهم بأن جعل «مسكنهم آية»، في «بلدة طيبة»، ومنحهم جنتين عن يمين وشمال،

والالتزام المطلوب هنا هو ما عبرت عنه الآية بالقول: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [١٥]، لكنهم جانبوا هذا الالتزام -والذي طبقه آل داوود-: «فأعرضوا»، هذا الإعراض هو عنوان لكل مفردات التفلت من منهج الله وعدم شكره، وكانت النتيجة العقوبة المتمثلة بالمطر الغزير الذي أغرق سد مأرب، وتسبب في حدوث طوفان سماه القرآن «سيل العرم»، دمر الجنتين، وجرف التربة، لتنشأ بعد ذلك جنتان وصفهما الله بأنهما ﴿ذَوَاتَا أَكْلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [١٦]..

بالتأكيد إن كُفران النعم يؤدي إلى التفرق والاختلاف، وهذا كان قبل تهدم السد، لكن خراب الحضارة، ولا سيما دمار الجنتين وجرف التربة، وما تبع ذلك من تداعيات، أنشأ فراغاً كبيراً أدى إلى بروز الخلافات بشكل أكبر، فاندلعت حروب وانقسامات، وانطلقت موجات من الهجرة -كما أسلفنا- إلى خارج اليمن، وهذا يؤكد مرة أخرى أن العمل المنضبط أحد عوامل الائتلاف، أما العمل غير المنضبط أو اللا عمل، فإنه الطريق المؤكد إلى الاختلاف.

ولذلك عندما أصابهم الترف الذي جعلهم يقولون: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ فظلموا أنفسهم بهذا الدعاء، وكفروا بأنعم الله بإعراضهم وعصيانهم، لم يكن سيل العرم العقوبة الوحيدة، بل كانت العقوبة الأكبر هي التشظي والتفرق: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [١٩]؛ لأن تداعيات هذا التمزق لا تزال تتوالى بعد قرون طويلة إلى يومنا هذا، حيث يطفئ الحس الفردي والعصبية القبلية والمناطقية على اليمينيين، بصورة ليس لها مثيل، ولا سيما كلما ضعف تأثير الإسلام على أهل هذا البلد.

وهكذا، كانت حضارة سبأ «آية» كما وصفها القرآن، لكنها بعد الإعراض صارت عبرة للناس؛ بتفرق أيدي سبأ في الآفاق: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، وهذا ديدن التاريخ فمن لم يستفد من «آيات» الله صار لغيره «آية»!

### ٣- من قيم العمل الصالح:

العمل المنضبط هو العمل الصالح في المفهوم الإسلامي، ومن تدبر الآيات ذات الصلة في هذه السورة تتضح إشارات على طريق التأصيل للأعمال الصالحة، منها:

- أن العمل المنضبط هو شكر لله، حيث قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [١٣].

- العمل باقتناع وفق رؤية عبادية، يجعل الأمر سهلاً ومريحاً بل وممتعاً، أما عدم الاقتناع فكما قال الله عن عمل الجن بعد موت سليمان دون أن يدروا بموته، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [١٤]، والعذاب المهين هنا ليس إلا العمل، لكنه بدون رغبة ذاتية ورؤية عبادية يصبح هكذا!!!

- الدنيا بكل ما فيها من متاع هي وسيلة لا غاية، يضعها المؤمن في يده وليس في قلبه، فينال بذلك جزاءين، الأول: دنيوي وهو البركة والمضاعفة، والآخر أخروي وهو الأمن في غرفات الجنة [٣٧]، ويبدو أن اختيار الغرفات الآمنة بالذات في هذا المشهد، لأن مده يد العون للمحتاجين يُشعرهم بالأمان في بيوتهم، فالجزاء من جنس العمل!.

- العمل الدعوي هو عمل تطوعي، لا يبتغي الداعية فيه الأجر إلا من الله [٤٧].

- الإلتقان في العمل والإخلاص في الصنعة قيمة إسلامية، تظهر من وصية الله لآل داود التي أوردناها من قبل، وتظهر أيضاً في قوة الحق الذي يقذفه الله على الباطل فيموت، كما ذكرت الآيتان: ٤٨، ٤٩.

- التحرك وفق سنن الله، ومنها سنة البقاء للأفضل والانتصار الحتمي للحق: ٤٩. وهكذا، فإن العمل المنضبط يقوي اللحمة بين أبناء المجتمع،



ويقضي على الكراهية ويسد الفجوات داخل المجتمع، ويخلق الحس الجمعي، حيث يشعر المجتمع بأنه جسم واحد، أما العمل غير المنضبط، فإنه يلهب الفردية، ويشيع الخلافات، وينشر الفرقة، ويوقد الحروب.

#### الرابع- عدم احتكار الحقيقة المطلقة:

من عوامل الضخّ لظاهرة الفرقة ادعاء كل طرف أنه على الحق المبين، وأن غيره على ضلال كامل، وقد قدمت هذه السورة أعظم درس في عدم ادعاء امتلاك الحقيقة أمام الآخر، ولا سيما في أثناء الحوار، مع التحلي بمنتهى آداب الحوار مع الخصم، وهو- في المثال الذي أوردته سورة سبأ- المشركون من قريش الذين كفروا بالله وبالرسول وأنكروا الآخرة، ومع ذلك لقن الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ونلاحظ بوضوح من قراءة الآية الأولى أن الله وجه رسوله أن لا يقول للكفار نحن على الهدى وأنتم على الضلال المبين، مع يقينهم بذلك، لكنه الأدب والحوار العقلي الافتراضي، كأنه يقول هناك طرف على الهدى قد يكون أنتم وقد يكون نحن، ونفس الكلام بالنسبة للضلال، ويزيد الأمر إبهاماً في الآية الأخرى، حيث لقنه الله مرة أخرى أن يقول لهؤلاء المشركين لن تُسألوا عن جرائمنا ولن نسأل عن أعمالكم، فسمى أعمال المؤمنين جرائم وتصرفات المشركين أعمالاً، وهذا قمة الأدب الذي سيجلب هؤلاء للحوار والإصغاء، وسيؤلف قلوبهم للإسلام، وفي الأخير لن يصح إلا الصحيح، حيث سيتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق، ومن لم يصل إلى التبين في الدنيا، فإنه سيرفقه في الآخرة، كما لقن الله نبيه محمداً ﷺ أيضاً أن يقول ما ورد في الآية: [٢٦].

وحتى لا يندفع الناس لادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، ينبغي أن يعرف كل واحد أولاً أنه بشر يمكن أن يصيب أو يخطئ، لأنه يحمل استعدادات

الخطأ والصواب، وهذا ما علمه الله لرسوله ﷺ بأن ينسب الضلال لو حدث إلى نفسه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [٥٠].

ولفتت السورة الأنظار إلى أن امتلاك الدنيا بدون إيمان قد يجعل الإنسان يزكي نفسه، كما قال تعالى على لسان الكفار: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [٣٥]، فقد جعلوا الغنى والجاه حصانة لهم من العذاب في الآخرة، فكيف سيفعل هؤلاء مع العادات والأعراف والآداب والقوانين في الدنيا؟!

ولأن الغنى قد يكون أداة لفتنة صاحبه، وفتنة في الطرف الآخر للفقير، فقد بيّنت السورة أن الله حكمة في توسيع الأرزاق على أناس وتضييقها على آخرين، ودعت لتضييق المسافة بين الطرفين وتجسيرها بالإنفاق، ولأهمية الإنفاق في حل هذه الإشكالية، وعد الله المنفق بالإخلاف [٣٩]، وهو جزاء دنيوي بجانب الجزاء الأخروي.

#### الخامس- إشاعة ثقافة الشكر والتوبة:

من عوامل الفرقة عدم ممارسة التوبة ونقد الذات، وعدم إشاعة ثقافة الشكر والإشادة بالآخر في التعامل معه، وهذا منبع آخر سعت السورة لسده وتحجيفه.

#### ١- الشكر:

بدأت السورة بالحمد لمستحق الحمد المطلق وهو الله، وبالمثل فإن صاحب كل موهبة أو محمدا يستحق أن يُحمد، وصاحب كل إحسان يستحق أن يشكر، وقد قال ﷺ في هذا السياق: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»<sup>(١)</sup>. وفي الآية ١٣ أمر الله أسرة نبوية بالشكر: ﴿ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

١- أخرجه أبو داود: السنن، تحقيق: صدقي محمد جميل (دمشق: دار الفكر، ١٤١٤=١٩٩٤)، ٤٨١١.

مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرِينَ ﴿ وَكَأَن شَكَرَهُمْ عِبَادَةً، أَمَا أَهْلُ سَبَأٍ فَقَدْ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿ وَأَشْكُرُوا لَهُ. ﴾ فَأَعْرَضُوا وَتَمَثَّلَ إِعْرَاضَهُمْ فِي عَدَمِ الشُّكْرِ، وَلِأَنَّ عَكْسَ الشُّكْرِ هُوَ الْكُفْرُ، فَقَدْ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ [١٧]. وَبَعْدَ نَزُولِ الْعِقَابِ عَلَى أَهْلِ سَبَأٍ عَلَى هَذَا الْكُفْرَانِ، دَعَا اللَّهُ الْجَمِيعَ لِلْإِعْتِبَارِ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [١٩]، ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ دَائِمًا فِي ابْتِلَاءٍ، فِيمَا أَنْ يَصِيبَ السَّرَّاءَ فَيَشْكُرُ، وَإِمَّا أَنْ تَصِيبَهُ الضَّرَّاءَ فَيَصْبِرُ!.

٢- التوبة:

أورد الله في فاصلة الآية الثانية صفة الغفور، كأنه يقول للناس: توبوا فأنا غفور رحيم، وفي تخويله تعالى للناس بِنَزْلِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ قَالَ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [٩] وَالْأَوَاب: هُوَ الرَّاجِعُ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّلَاعَةِ.

وفي وصف بلاد سبأ قال تعالى عنها: ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [١٥]. وهذه كلها إشارات إلى وجوب التحلي بهذه القيمة، خاصة لو جمعناها مع الفقرة السابقة في عدم احتكار الحقيقة ووجوب نقد الذات.

السادس- الدوران في فلك العالمية:

قرر الإسلام أن الناس عالم واحد، من خلال إرسال الرسول ﷺ إلى جميع الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٨].

ومعرفة المرء بهذا الأمر ووعيه به هام جدًا في تخفيف منابع العصبية الضيقة، والتي تكون غالبًا من أسباب الحروب، سواء كانت قومية أو مناطقية أو غيرها، ولذلك ذُيِّلَ اللَّهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

## السابع- الحذر من شياطين الإنس والجن:

من المعلوم أن للشيطان دوراً في التفريق بين الناس، بإثارة البغضاء في أوساطهم والتعريض بينهم، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، ولهذا حذر القرآن منه، وفضح أساليبه، وبين كيف يتحصن المؤمن منه.

وفي هذه السورة تذكير بهذا الأمر، عبر إشارات سريعة حسب المقام، ففي تمزيق أهل سبأ كان له دور كبير، أشارت إليه السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٠]. وبينت الآية التالية أن الذي يتبع الشيطان هو في شك من الآخرة [٢١] أي أن الخلل بالدرجة الأولى في الإنسان، والشيطان يستغل هذا الخلل، وإلا فليس له سلطان على الناس. وأوضحت آية أخرى أن صنفاً من البشر: ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [٤١]. ولأن شياطين الإنس قد يفوقون شياطين الجن، فقد حذرت السورة منهم في عدد من الآيات، وهم الكبراء: ٣١ - ٣٤، ٤٣، والساعون لمحاربة آيات الله: ٣٨.

بهذه العناوين السبعة تجف منابع الفرقة، وتتوطن الوحدة، ولا يتكرر في ضوء هذه الأصول نموذج (مملكة سبأ) التي مزقتها المعاصي وعصفت بها الأهواء، ثم جرفتها السيول، لتحل فيها الأشجار العقيمة والنباتات الشوكية ويحصد الناس المسغبة، وأخطر من المسغبة الفرقة التي ذهبت بريح اليمنيين وعصفت بمؤسسات دولتهم، وبمشاعرهم الجمعية، وجعلتهم أحاديث للناس في التشطي والاحتراب لأتفه الأسباب إلا من رحمه الله.

## اكتناز (الكهف) لعوامل الفاعلية الحضارية

لا يختلف عاقلان حول أن القرآن الكريم صنع ما تسمى بالأمة العربية من عدم، فأبدلهم قوة بعد ضعف، وعزة بعد ذل، ووحدة بعد فرقة، وعلماً بعد جهل، ورشداً بعد غي، ونُضجاً بعد مراهقة، وغنى بعد فقر، ولهذا خاطب الله نبيه محمداً ﷺ ممتناً عليه وعلى قومه بالقرآن، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والذكر هنا هو الشرف والمجد والسؤدد، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بعلم وقوة ووحدة وغنى ونضج ورشد، وهذه كلها من مدخلات الفاعلية الحضارية لأي أمة من الأمم.

وواضح من الآية سאלفة الذكر أن هذه المنحة للعرب: الذكر، ليست مجانية تماماً، إذ تحتاج من العرب إلى ضريبة، فإن التشريف يقابله تكليف وهو هنا تدبر القرآن والعمل به، والتدبر عملية عقلية، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، فإن نزول القرآن بالعربية من أجل مساعدة البشر في فهم القرآن وتدبره، لأنها أوسع وأفصح اللغات، وفي المعاجم فإن من معاني العروبة: الإبانة والفصاحة. ولاشتهار العرب بفصاحتهم وبلأغتهم رغم فقرهم المعرفي وانحطاطهم الحضاري، كانوا يطلقون على غير العربي: أعجمي، ولا سيما الفرس!.

هذه المقدمة البسيطة أردتُ من خلالها إيضاح أن التخلف الذي يعيشه المسلمون عامة والعرب خاصة، سببه الأساسي هو إهمال العقل لتدبر القرآن، وممارسة الغالبية لصور من هجر القرآن، سواء كان هجر التلاوة، أم هجر الفهم والتدبر، أم هجر التنزيل والتطبيق؛ وهو ما أدى إلى فقدان العقل للتفكير في آيات الكون والتبصر في آيات الأنفس، وتطافرت هذه الثلاثية العقلية للخطِّ بأصحابها من ذروة المجد إلى أسفل دركات الانحطاط الحضاري.

## كنز (الكهف):

يبرز إعجاز القرآن في البلاغة والبيان، وفي الهداية والتشريع، وفي العلوم والمعارف، وفي المجيء بأخبار الغيب. وفي إطار الإعجاز البياني - وهو الحاضنة لكل صور الإعجاز الأخرى - تبرز صورة من صوره الكثيرة وهي الوحدة الموضوعية لكل سورة من سور القرآن مكية كانت أم مدنية، بحيث يمكن جعل اسمها ضمن عنوان تتمحور قضايا وأساليب وآيات السورة حوله - كما فعلنا في عنوان هذا الموضوع - بشرط غياب الغفلة أثناء القراءة وحضور التدبر بجناحيه الرئيسيين: الوعي العقلي والخشوع القلبي.

في هذه العجالة سنتوقف قليلاً مع سورة (الكهف) وهي سورة مكية، ورقمها ١٨ في ترتيب المصحف الشريف، و٦٩ في الترتيب النزولي. وقد وقف كاتب هذه السطور معها بشيء من التأمل فبدا له بوضوح أن (الكهف) مخزنٌ ضخم، يمتلئ بكنز فكري لا يُقدر بثمن، هذا الكنز يضم لآلئ وجواهر ودرراً، الأمة اليوم في أشد الحاجة إليها في تصورها الثقافي وعُريها الأخلاقي وبقورها الحضاري، حيث تكتظ بعدد هام وكبير من أسرار الفاعلية وعوامل التمكين الحضاري، وما سنقوم به هنا هو وقفة أولى ومحاولة عجلَى لإهالة التراب عن هذه الكنوز التي يمكن اختصار أهمها في العوامل الآتية:

### أولاً - النظرية الصحيحة في البناء الحضاري:

عندما تتكبت أمة المسلمین الطريق القويم، تفرقت بها السبل، وأوصلتها إلى تخلف مريع وغطائية ماحقة، وبعد سبات طويل في دياجير التخلف، صحا عدد كبير من المسلمین على مطارق الاستعمار، ووجدوا أنفسهم في الظلام بينما تتمتع أكثر شعوب العالم بالنور، ولو كان نوراً منقوصاً، وحاول كثيرون البحث عن مخرج، لكن الأمور لم تتحسن بعد نصف قرن على طرد الاستعمار من أغلب بلدانهم، ولأن صفات العلاج ونظريات

الخروج لم تتطابق مع الواقع المعيش، بخصوصياته الثقافية والجغرافية والتاريخية؛ بسبب الغربة التاريخية: (التقليد) أو الجغرافية: (التغريب). هذا يعني أن أيدي أكثر المسلمين لم تُمسك بعد بالنظرية الصحيحة المطلوبة للبناء الحضاري المنشود، لأنهم شرّقوا وغرّبوا، يسّروا وبمّنوا، فلُدغوا مرات عديدة من ذات الجُحر وما زال بعضهم غير واعين للدرس!.

إن القرآن الكريم يمتلك معالم النظرية المنشودة، وأصول المخطط التغييري الذي يرفع الأمة من الهامش إلى المتن، ومن الذيل إلى الصدر، وقد أسهمت سورة (الكهف) في صناعة هذه النظرية عبر الإشارات الآتية:

١- ضرورة الاهتداء بالكتاب المعصوم الذي لا عوج فيه، والذي يهدي للتي هي أقوم من الأفكار والأفعال، مع ما يحمله هذا الكتاب من منهج تربوي شامل يقوم على البشارة والندارة، والترغيب والترهيب، وهذا ما تضمنته الآيات الخمس الأولى من السورة، في سياق الحمد لله الذي أنزل هذا الكتاب العظيم.

وفي النموذج التطبيقي الذي أوردته السورة للحكم الرشيد وتمكين الصالحين الذين عمروا الأرض، وهو نموذج ذي القرنين، أكد هذا الحاكم الصالح مبدأ الثواب والعقاب في هذه النظرية، حيث قال كما روى عنه القرآن: ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾.

ولأن القرآن دستور المسلم في شؤون الحياة كلها، بالطبع في إطار الكليات والأصول والمقاصد التي نسميها الثوابت، لأنها لا تختلف باختلاف الزمان وتبدل المكان، فقد أوصى الله نبيه -ومن ورائه أمته- باتباعه: لأن التلاوة تعني الاتباع وليس فقط قراءة الحروف، قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ أَيْ اتبع تعاليم ربك، ولا خوف عليه فهو محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، فإنه لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وأشار إليها، وهذا واضح بالنسبة للثوابت، أما المتغيرات فإن الجزئيات تُشد إلى الكليات، والفروع تنظمها الأصول، وتكتسب الوسائل حكم المقاصد، مع إعطاء مساحة واسعة للعقل لكي يتحرك بحرية: تدبراً وتأملاً، تنزيلاً وتطبيقاً، بحيث ينجح في إقامة جسور متينة بين الشريعة والواقع. ولهذا حذر الله من الانحراف عن جادة القرآن في هذا السياق فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [٥٤].

٢- الأخذ بالأسباب مع مداومة التوكل على الله في الوقت ذاته، وهذا الدمج المتساوق بين استثمار الأسباب واستمداد التوكل، يجمع بين الأرض والسماء، بين قبضة الطين ونفخة الروح، بين الجهد البشري والتوفيق الرباني، وهما وجهان للعملة الإسلامية المميزة: القدر، الذي هو الركن السادس من أركان الإيمان، ولهذا تكرر الحديث عنه في سورة الكنوز الحضارية (الكهف) بوجهيه الكسبي والتوفيقي.

ومن الآيات الجامعة لوجهي العملة، قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِذْ أَوْىٰ أَلْفَيْتَهُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٠]، فقد أخذوا بأسباب الحذر عبر الإيواء إلى الكهف للتخفي فيه بعيداً عن أعين الطواغيت وسيوفهم، ثم طلبوا من الله الرحمة والتوفيق والرشاد.

وفي قصة ذي القرنين ارتبط الأمران وإن اختلف الترتيب: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿ [٨٤، ٨٥] فالله أعطاه التمكين بتهيئة مقاليد الأسباب، وهو استثمار هذه الأسباب وفق منهج الله تعالى، فأنت الثمار يانعة، وهي خدمة الخلق وطاعة الخالق على أفضل وجه.

وفي السياق ذاته.. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنِيْٓ إِنِّيْ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ عَدَا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿ [٢٣، ٢٤] فالفعل جهد بشري ومشية الله وتوفيقه إلهي، وهكذا فإن الله لا يعطي من لا يعمل، غير أن العمل وحده لا يحقق



المطلوب بدون إعانة الله، على الأقل بنفس الفاعلية العالية، وانطلاقاً من التصور الذي يجعل من الدنيا مزرعة للآخرة. وهذا ما تؤكدُه أيضاً قصة صاحبي الجنتين [الآيات: ٣٢ - ٤٤].

ولأن التدين المنقوص يقع كثيراً في وهدة (الانتقاص) من الأسباب بحجة (اكتمال) التوكل على الله، فإن السورة في كثير من مشاهدتها تُبرز الأخذ بالأسباب، كتواصي أهل الكهف بالاحذر والتخفي: ﴿وَلَيْتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [١٩]، وأخذ موسى بأسباب طلب العلم، والرحلة في سبيل ذلك، وسؤال الخضر لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ- خَبْرًا﴾ [٦٨] جرياً على الأصل. وفي المقابل فإن الله أكد على الوجه الآخر لعملة التوكل، فبين أن الهداية بيده وحده تعالى [الآية: ١٧] لأنه مالك الأسباب ومسخرها، وأوضح بالقصة العملية كيف أن القراءة الظاهرية للأسباب - وهي من عالم الشهادة - لا تكون صحيحة دائماً إذا كانت منبئة عن (عالم الغيب) فقد يخفي الله الخير للإنسان في أمر يبدو في ظاهره الشر، كما في السفينة التي خرقها العبد الصالح، وهو عمل واضح ضرره وبين فساد، وهذا ما سجله اعتراض موسى، لكن تبين صلاحه وتجسدت فأدته عندما وقفوا بين يدي الملك الظالم الذي كان يصادر بالغصب كل سفينة خالية من العيوب، ويُفرج عما فيها عيب فصار ما كان نقمة نعمة، وقد عرف العبد الصالح ذلك من إلهام الله له أو ما يسميه البعض بـ(العلم اللدني)، ويشبه هذا المشهد مشهد الغلام الذي قتله الخضر والجدار الذي أصلحه؛ وهو ما يبين وجوب الرضا بالأقدار، بعد استكمال الأسباب ومدافعة الأقدار بالأقدار، حيث يوقن المؤمن بأن ما فاتته من نفع ظاهر وما لحق به من ضرر ظاهر إنما فيه نفع سيعلمه فيما بعد، وما عجز عن فهمه فهو من الابتلاء الذي يرفع الله به درجات صاحبه في الآخرة. وبالإيمان بالقدر يستكمل المؤمن الأخذ بالأسباب مثل الناس الماديين، لكنه لا يطفى إذا تحقق الهدف، ولا يأسى إذا فاتت المصلحة، لأنه في كلتا الحالتين يعلم أن مالك أمره

هو من فعل، أو فوت، وهو دوماً لصالح الإنسان، إما في المعاش أو المعاد.

٣- التفريق بين البعد النبوي المعصوم والبعد البشري النسبي في شخصية محمد ﷺ، وهذا ما نهت عليه الآية الأخيرة ضمن معانيها الجليلة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [١١٠]. بمعنى أن التميز هو في منطقة الوحي، وهي الواجبة الاتباع، أما ما عدا ذلك فهو من البشرية التي تتأثر بضعف البشر وتجاربهم، والظروف الزمانية والمكانية المحيطة بهم، وعلى هذا فإن الإقلاع الحضاري المرتقب يجب أن يفرق فيه المسلمون بين ما يجب أخذه من سيرة المصطفى ﷺ كأسوة حسنة، وما لا يجب أخذه كتجربة بشرية تأثرت بطبيعة الظروف القائمة آنذاك وببشرية الرسول ﷺ مع ما يحمل من إمكانات الصواب وإمكانات الخطأ، وهذا واضح من تعقيبات القرآن على اجتهادات النبي ﷺ.

وهكذا، فإن في التوازن بين الوحي والعقل، ثم التوازن بين الأسباب والتوكل، ثم التفريق بين الوحي المعصوم والتجربة البشرية في السيرة النبوية، ما يتكفل بوضع أسس نظرية متينة للبناء الحضاري، والذي يبدأ عملياً بإيجاد الفرد الصحيح أو الإنسان الصالح، وهو الذي يحمل في قلبه وعقله هدايات الله.

### ثانياً- بناء هدايات الله في قلب المؤمن:

يمكن القول: إن الحضارة الغربية المعاصرة هي أرقى ما توصل إليه البشر بعيداً عن الوحي، وهذا لا ينفي وجود فتوق كبيرة فيها، أهمها اهتمامها ببناء الدولة وتفريطها في بناء الإنسان من الداخل، عبر إهمال ربط المادة بالروح والدنيا بالآخرة، ولهذا يتوحش كثير من بني الانسان عندما تعيب سلطة الدولة وسطوة القانون في مثل هذه الظروف.

ورغم أن واقع بلدان المسلمين الآن أسوأ بكثير مما هو قائم في الغرب، فإن الإسلام كدين يتفوق على الحضارة الغربية كثقافة وفكر في أمور

عديدة، ومنها ما نحن بصدده هنا، وهو قدرته على بناء الإنسان الكامل، بنقل هدايات الله إلى قلبه، وبالتالي يستمر صلاحه في كل الظروف، ولو اختفت الدولة وتهيأت كل الظروف لانحرافه وفساده. هذه الثمرة اليانعة التي تفردت بها شجرة الإسلام، جاءت نتيجة المزاوجة بين الدنيا والآخرة، وكذلك بين الإيمان وعمل الصالحات، وهذا ما أشارت إليه آيات كثيرة في سورة الكهف، منها: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧، ١١٠، حيث لا وجود لعمل صالح في كل جوانب الحياة بدون إيمان صحيح..

ولزراعة هذه الشجرة الإيمانية؛ أكثر القرآن -ومنه سورة الكهف- من الحديث عن الإيمان، وأركانه، وبراهينه، وثمراته، وعواقب الانحراف عنه في المعاش والمعاد، ولا سيما الإيمان بالله وباللوم الآخر. وكل ركن من هذه الأركان يساهم في زراعة التقوى، بحيث ترتفع النفس من دركة (الأمانة بالسوء) إلى درجة (اللؤامة) ثم (المطمئنة)، وهنا يكون المرء حريصاً على أن لا يجده الله حيث نهاه، وأن لا يفقده حيث أمره، في كل مجالات الحياة وشؤونها: الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولتأكيد هذه الرقابة الصارمة سجلت هذه السورة مشهداً مرعباً من مشاهد يوم القيامة، جاء فيه قوله تعالى: ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا أَلْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [٤٩]. ويعظم الخطب عندما يعرف المرء المقصود بالصغيرة والكبيرة، حيث قال حبر هذه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة هي البسمة، والكبيرة هي الضحكة!.

وما فتئ القرآن يرفض الانفكاك بين العلم والإخلاص في صياغة كل أعمال العبودية التي يحتويها محراب الكون، فالعلم يوفر لها جمال المبنى والإخلاص يعطيها جلال المعنى، ولذلك ختم (الكهف) بهذين الأمرين كشرطين لقبول أي عمل، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَلِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [١١٠] فقد ربط العمل الصالح بالإيمان بقاء الله، وقرن في بنية العمل المقبول بين الصلاح - وهو لا يتأتى إلا بالعلم - وعدم الإشراف، وهو لا يحصل إلا بالإخلاص.

### ثالثاً- العلم بحقائق المعاش والمعاد:

احتوت سورة الكهف على كنوز معرفية ضخمة تتوازي مع الأهمية البالغة للعلم في القرآن، ودوره في قيام الحضارات، وقد تنوعت الإشارات القرآنية للعلم في هذه السورة بصورة كبيرة، وجاءت في سياقات كثيرة، ومنها:

١- العلم اليقيني مصدره القرآن، والجدل مصدره طبيعة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ [٥٤] فمن طبائع الإنسان الطينية: الجهل والطمع والطفيلان والفجور وكلها تسهم في إبراز طبيعة الجدل عنده.

٢- وجوب تسليط العلم على (عالم الشهادة) والتوقف في حقائق (عالم الغيب) عند حدود الوحي، مع وجوب الاهتمام بما ينفذ وعدم السؤال عما لا ينبني عليه عمل، مثل السؤال عن عدد فتية الكهف، حيث عابت الآية الثانية والعشرون على الذين يتحدثون عن العدد رجماً بالغيب، ووضحت أنه لا يعلم عددهم إلا الله وقليل من أصحاب العلم، وختمت بالنهي عن المراء غير الظاهر فيهم، وعن الاستفتاء فيهم، لأنها ليست مسألة ينبني عليها عمل كما أسلفنا، ولهذا لم تحدد السورة عددهم.

وفعلت الآية السادسة والعشرون مثل هذا الأمر بالنسبة للمدة التي لبثها أهل الكهف، حيث نسبت العلم بالمدة إليه تعالى وحده، مع أن الآية السابقة لها قد أوردت المدة ليعرف السامع عظمة هذه الآية!

٣- ضرورة تفعيل جهاز الوعي في التفاعل مع آيات الله القرآنية والكونية والاجتماعية، حيث لا أظلم ﴿مَنْ ذُكِّرَتْ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ

يَدَاهُ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ عَلَىٰ هَذَا الصَّنِيعِ تَعْطِيلُ جِهَازِ الْوَعْيِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ  
 أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن نَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا  
 أَبَدًا ﴿ [٥٧].

وبينت آية أخرى أن الكفار من أهل النار هم: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ  
 عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿ [١٠] وهذه الآية تتشابه مع آية في  
 سورة الملك تقول على لسان المجرمين: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي  
 أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ [الملك: ١٠].

٤- خطورة الجهل على أصحابه، لدرجة أنه قد يلتبس عليهم الأمر،  
 فيصنعون عملاً دائماً وسعيًا دؤوبًا، دون أن يفهم ذلك شيئاً من عذاب  
 الله، رغم إخلاصهم، لأنهم لم يستفيدوا من بوصلة العلم، فأضلّتهم بوصلة  
 الجهل، ولهذا اعتبرهم الله أخسرين، وعجّب رسوله ﷺ وأمته منهم، فقال  
 تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ  
 يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ [١٠٣، ١٠٤].

وأوضحت الآية الأخيرة من السورة - كما أسلفنا - أن العلم أحد جناحي  
 ارتقاء العمل إلى الله، بجانب الإخلاص، وهذا يشير في المقابل إلى خطورة  
 الجهل على الأعمال، حيث لا تنفع النيات الصالحة بدون رؤى صالحة  
 وأعمال نافعة.

٥- ضرورة التعلم ولو بالتغرب في طلبه، وسؤال أهل الذكر، والاستفادة  
 من أصحاب العلم، وهذا ما جسده السورة عملياً، من خلال قصة موسى  
 عليه السلام - وهو أحد أولي العزم من الرسل - حيث رحل لطلب العلم مع  
 ولي من أولياء الله فاق موسى علماً، لأن الله آتاه من لدنه علماً، وتتجسد في  
 هذه الرحلة آداب طالب العلم، مع أن المعلم ليس نبياً على الأرجح، والمتعلم  
 كليم الله وأحد أولي العزم من رسله!.

٦- إباحة الاتباع لا التقليد، بالنسبة لمن لا يعلم، وهذا اتضح من قصة

نبي الله موسى مع الرجل الصالح الذي أشار إليه المفسرون بأنه (الخضر) حيث قال له موسى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٦٦] ويتضح الأمر في هذه الآية من إشارتين:

الأولى: قول موسى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ولم يقل: أقلدك، ولذلك فرّق أهل العلم بين الاتباع والتقليد، فالاتباع يقوم على معرفة دليل المتبع وهو أمر سائغ لمن لا يعلم، أما التقليد الذي يكون للشخص وليس للدليل فهو حرام عند المحققين من أولي العلم.

الأخرى: تقييد موسى تعلمه من العبد الصالح بالرشد ﴿ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٦٦].

٧- التفضيل في الإسلام يكون وفق معايير موضوعية، يأتي في طليعتها العلم، فبه فضل الله آدم على إبليس وأسجده له تكريمًا لما يحمله من علمه تعالى الذي علمه إياه، كما ورد في الآية الخمسين من الكهف.

ولأن العلم سلاح ذو حدين، إما أن يرفع الإنسان إلى أعلى عليين، وإما أن ينحط به إلى أسفل سافلين، وذلك بحسب عمله بمقتضاه، فإن إبليس أيضًا - كما في ذات الآية - قد رفعه الله بالعلم فأدخله في زمرة الملائكة، وهذا ما يفيد الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ فهو استثناء منقطع لأن إبليس ليس من الملائكة، وإنما من الجن كما تصرح ذات الآية: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾، ولهذا غضب الله عليه ولعنه، فإن معصية العالم أخطر من معصية الجاهل.

٨- تجاوز الإيمان العاطفي إلى الإيمان البرهاني، وقد عملت سورة الكهف على تحقيق هذا الأمر في مواضع عديدة، منها موضع اهتداء قوم فتية الكهف إليهم، فقد علل الله ذلك بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ

لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿ [٢١] ، فإن النوم ثلاثة قرون برهان على إمكانية البعث.

ومن أجل تعزيز ذات القضية أوردت السورة بعض صور الإعجاز العلمي، منها تقليب أهل الكهف ذات اليمين وذات الشمال أثناء النوم، فقد أوضح العلم الحديث أن نوم الإنسان لساعات طويلة على جنب واحد له مخاطر على وظائف الأعضاء والأجهزة العاملة في جسم الإنسان كالجهاز الهضمي والدوري، إضافة إلى إصابة الجلد بقروح شديدة.

وأوضحت السورة أيضاً الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية بدقة متناهية، عند قوله تعالى: ﴿ وَلِئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [٢٥] فمدة لبثهم في الكهف هي ثلاثمائة سنة شمسية وازدادوا تسع سنوات بالتقويم القمري، وهو ما يتفق مع حقائق علم الفلك بنسبة ١٠٠٪.

رابعاً: المنهج السببي واستثمار سنن الله الكونية والاجتماعية في العمارة:

انحازت سورة الكهف كشأن القرآن كله إلى العلم والأسباب - كما أسلفنا - وبينت بأن الكون يجري وفق سنن، وأن من واجب الإنسان عمارة الدنيا وفق منهج الله ووفق هذه السنن، كطريق لعمارة الآخرة، فإن عمل الصالحات مع الإيمان بينان للإنسان فردوس الدنيا الذي هو الطريق لعمارة فردوس الآخرة، وهو ما تدل عليه وتشير إليه الآيتان: ١٠٧، ١٠٨ من السورة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ وكأن الفعل: (كانت) يفيد أن إقامة فردوس الدنيا هو الطريق لفردوس الآخرة؛ لأن الجزء من جنس العمل. وفي آية أخرى في ذات السورة قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [٣٠].

ووازن القرآن بين الدنيا والآخرة، يجعل الدنيا طريقاً للعبور إلى الآخرة، بمعنى أنها وسيلة وليست غاية، وبالتالي مهما أوتي المؤمن من زينتها ومتاعها فإنها تظل في يده ولا تتسلل إلى قلبه، قال تعالى: ﴿ وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ [٤٥، ٤٦].

وهكذا، فإن الإسلام لا يعيب عمارة الدنيا، بل يعيب عبادتها، والمعيار ليس كم يملك المرء من حطامها، بدلالة أن ذات السورة عدت مملأك السفينة مساكين وليسوا أغنياء [الآية: ٧٩] بل المعيار أين تضع الدنيا: في قلبك أم في يدك؟ فإذا كانت في يدك فإنها ستكون طوع أمرك وستتصرف بها وفق شريعة الله ومنهجه، وستبتغي بها رضاه، أما إذا صارت في قلبك، فإنها تصبح غاية، وسيجمعها المرء من ثم من أي طريق وبأي وسيلة، وبالتالي سيتزاحم الناس ويتحاربون، ويأكل بعضهم حقوق بعض.

وبينت السورة من إيرادها لنموذج ذي القرنين كيف اتبع الأسباب: ﴿ فَأَنْعَمَ سَبَّأًا ﴿٨٥﴾؛ وهو ما مكنه من الذهاب إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، وإلى منطقة ما بين السدين، فصال وجال بفضل استثمار السنن، والاستفادة من طاقات الأرض كالحديد الذي صنع منه سداً، والطاقات البشرية التي فعلها ﴿ ءَأُتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأُتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ونتيجة هذه الخبرة وذلك الإقتان في العمل، كانت النتيجة سداً قوياً قال الله عنه: ﴿ فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ [٩٧].

خامساً- الشعور بالمسؤولية والسلوك الإيجابي:

بينت سورة الكهف أن أصحاب الحضارة هم أصحاب الأداء الرسالي والبلاغ المبين الذي يسترخص كل شيء في سبيل ذلك، إلى حد أن الأنبياء



قد يهلكون أنفسهم من أجل أقوامهم بلاغاً وبياناً، بشارة ونذارة، كما في الآيات الست الأولى.

وأوردت السورة قصة أهل الكهف كنموذج للبلاغ الرسالي والتضححية الغالية في سبيل الدعوة، وأوردت قصة موسى الذي أوحى الله إليه أن يذهب لتعلم على يد شخص صالح، وعندما رأى منه ما يخالف ظاهر المنهج الإلهي من خرق للسفينة وقتل للطفل سجل اعتراضه لما يراه منكراً، فلم يترك فريضة النهي عن المنكر حتى في هذا الظرف رغم إعلامه له بأنه سيرى أموراً غريبة لن يطبق لها صبراً.

ووضحت الآيات [٥٦، ٥٧] أن وظيفة رسل الله - وبالتالي أتباعهم - في هذه الحياة هي البشارة والنذارة، مع وجوب التذكير بأن المنهج الإسلامي لا يعرف الفصل بين الدنيا والآخرة حتى في هذا المقام.

وتتضح إيجابية المتحضر الرسالي في شعوره بالمسؤولية عن الناس، حيث يجلب لهم المصالح ويدراً عنهم المفاسد، في العاجل والآجل، كما فعل العبد الصالح (الخضر) في هذه السورة، بخوفه على سفينة المساكين من الملك الظالم، وعلى الأبوين من ابنهما العاق الجاحد، وعلى جدار اليتيمين وما فيه من كنز من أهل القرية الطامعين، وكما فعل ذو القرنين الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً، لا يريد الغزو والقهر وتكديس الأموال، لكنه كان يبغي التقرب إلى الخالق بخدمة الخلق، وأدرك تماماً أن الاختلاف العرقي والثقافي ليس مبرراً للعود عن تقديم المساعدة لمن يحتاجها [الآية: ٩٣] حيث خلص مخالفه من فساد يأجوج ومأجوج، عبر إيجاد سد يحول بين هؤلاء وأولئك المفسدين، وهذا ديدن المصلحين الذين لا يفتأون دوماً بينون السدود والحواجز التي تمنع من تمدد الفساد وطغيان الفاسدين.

وتتضح هذه الإيجابية - كما أسلفنا - في تفعيل طاقات المجتمع: ﴿فَاعْبُدُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [٩٥]، ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ [٩٦]، وهكذا فإن الحضارات توظف

الخبرات، وتستثمر كافة الطاقات والمواهب، من أجل تعميق أسس البناء ورفع مداميك الحضارة وبنائها.

#### سادساً- إقامة موازين العدل ووضع مداميك المساواة:

تتحاز سورة الكهف، كما سائر سور القرآن، إلى قيم العدل والمساواة الإيجابية والمساعدة والإحسان، كيف لا والعدل هو أعظم مقاصد الإسلام، والغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين؟! ولهذا، عندما طلب المشركون من الرسول ﷺ أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء من المسلمين، لعلمهم يسمعون الرسول ﷺ فيهدون ويسلمون، ولأن الرسول ﷺ حريص على هدايتهم إلى حد أنه كاد أن يهلك نفسه من أجل هذا الهدف كما في مطلع السورة، فلعله فكر بهذا الأمر مرحلياً، إلا أن الله أبى على قيمة المساواة قيمة مطلقة عندما قال له: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٢٨].

وأسهمت هذه السورة في التأسيس لحرية التدين والاختيار، والتأصيل للحرية والمشيئة، وحصر مهمة الرسل والدعاة من بعدهم في البيان والبلاغ فقط، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [٢٩].

وكما أسلفنا، فإن هذه السورة أوضحت أن موازين الإيمان وعمل الصالحات هي وحدها معيار التفاضل، والطريق الوحيد لجني الأرباح واقتطاف الثمار في فردوس الدنيا والآخرة معاً. وبالتالي فإنها لا تأبه بالمعايير العرقية واللونية والجهوية والطبقية والفئوية والقبلية، وغيرها من العصبية الضيقة.

وأكدت بأن الظلم مؤذن بالخراب، وموصل إلى الدمار، قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [٥٩]  
وبالتالي تكون سنن الله في الهلاك والتمكين محايدة، وليست منحازة لأحد  
غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أيًا كانوا.

وهكذا، يتبين لنا من هذه الجولة السريعة في رحاب سورة الكهف أنها  
تمتلي بكل أسرار الفاعلية وأهم عوامل النهوض الحضاري؛ وهو ما يؤكد أن  
القرآن بيد مسلمي هذا العصر جوهرة تحتاج إلى جد في كشفها والإفادة  
من جمالها وجلالها.

## عَسَلِ (النَّحْلِ) الشَّافِي لِلنَّاسِ مِنَ الْفَوْضَى!

«النحل» سورة مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فإنها مدنية، وتحتل المرتبة السبعين من حيث النزول، والسادسة عشر وفق ترتيب المصحف الشريف، تقع بين الحجّر والإسراء، أما من حيث النزول فقد نزلت بعد «الكهف» وجاءت بعدها سورة «نوح»، وآياتها: ١٢٨. ويطلق عليها المفسرون سورة النعم لكثرة الآلاء التي ذُكرت فيها.

وسميت بـ«النحل» لورود ذكر النحل فيها في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]. إذن العسل المعروف هو ثمرة هذه الحشرة الطيبة وهو خلاصة رحيق الأزهار الموجودة في منطقة حركة النحل، وقد صار معلوماً أن العسل، نتيجة هذه الخصيصة وتجمعه في جوف هذه الحشرة، هو أفضل علاج طبيعي لتقوية جهاز المناعة في جسم الإنسان، ولذلك قال عنه القرآن: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾<sup>١</sup>.

ويبدو أن هذه السورة لا تحتوي فقط على العسل المقوي لجهاز المناعة في الإنسان، بل إن المتدبر فيها يجد أنها تحتوي على عسل آخر أكثر قيمة، هذا العسل فيه شفاء للناس مجتمعات وأممًا من الفوضى والفرقة والتمزق والشتات.

وإذا كانت «النحل» -الحشرة- يُضرب بها المثل في النظام والانسجام والائتلاف والتعاون والتخطيط الإداري المنظم إضافة إلى شفائها للناس<sup>(١)</sup>، فإن «النحل» -السورة- فيها شفاء للناس، يسهم بقوة في تقوية الجهاز

١- انظر: د. مصطفى مسلم: مباحث في علوم القرآن. ط٢ (دمشق: دار القلم، ١٤٢٤ = ٢٠٠٣)، ص ١٩٩ - ٢٠٧. وعبد اللطيف عاشور: التداوي بعسل النحل.

المناعي للمجتمع، ووقايته من أمراض الفرقة والفوضى والتشظي والتمزق والاحتراب.

هذه السورة تمتلك إذاً عناصر العسل الشاي في من هذه الأوبئة الاجتماعية، وسنستعرض هذه العناصر باختصار على النحو الآتي:

أولاً- غرس التوحيد وتجفيف منابع الشرك:

يمثل الشرك أرضية خصبة لشيوع الأهواء وتنازع الأفكار، وتعدد المشارب المتباينة، وتضارب العقائد، ومن ثم انتشار الفرقة والفوضى، ولهذا اهتمت هذه السورة بغرس قضية التوحيد، وتجفيف منابع الشرك في آيات كثيرة متوزعة في ثناياها، وبأساليب عديدة، ومدخل متنوعة، ومؤثرات مختلفة، موزعة بين استخدام البرهان العقلي والخطاب الوجداني.

بدأت الآية الأولى بتأكيد أن أمر الله المتمثل في الساعة قد أتى، وبالنهي عن استعجاله، ثم تنزيه الله عن الشرك والشركاء ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١].

وقررت الآية الثانية أن الله ينزل الملائكة بالوحي من أمره تعالى على من يشاء من عباده الأنبياء، حاملين مضمون رسالته تعالى إلى خلقه: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [٢].

وتحدث المولى عن تقرده بالخلق والرزق وحده عز وجل، وهما القضيتان المركزيتان في وجدان الإنسان، حيث يمثلان منطقة الآمال بطول العمر وزيادة الرزق، والخوف من وقوع العكس، ولذلك تكرر الحديث عنهما في عدة آيات في السورة [الآيات: ٣، ٤، ١٧، ٢٠، ٧٠، ٧٣] ليقرر من ذلك ضرورة انفرادة تعالى بالألوهية وحده، كما قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٢]، وكرر هذا الأمر

مرة أخرى داعياً إلى توحيدِهِ بحيث يُفرد سبحانه وحده بالخشية والرهبة: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُونَ﴾ [٥١].

وأوردت السورة شبهة المشركين وعلى رأسها الفكر الجبري: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٣٥]، وفي ذات الآية تم التأكيد على أن هذه العلة الجبرية هي من الثوابت عند كل المنحرفين والمشركين: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم أثبتت قضية الحرية التي يتمتع بها البشر، فهم يهتدون أو يضلون بإراداتهم، ولا دخل للرسول في ذلك: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [٣٥].

ورغم عدم تدخل الأنبياء في الهداية التي لا يملكها إلا الله وفق نواميس مضبوطة وعادلة أجراها تعالى في هذه الحياة، إلا أن هؤلاء الأنبياء ظل شغلهم الشاغل وقضيتهم المركزية هي غرس التوحيد ومحاربة الشرك بكل صوره، عبر البلاغ المبين بالطبع: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [٣٦]. فمن هداهم الله هنا نسبة إلى سنن الهداية التي اتبعها هؤلاء الناس فاهتدوا، وكذلك الأمر بالنسبة لمن ضلوا، فلا مكان إذن للجبرية.

وانطلقت الآيات لتفضح الانقسام القائم عند المشركين بين توحيد الربوبية (الخلق والرزق والضر والنفع) وتوحيد الألوهية (الطاعة والاتباع والتقرب والتذلل)، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تُمْرًا إِذَا مَسَّكُمْ أَلْضُرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَفَرِّتُونَ﴾ [٥٣ - ٥٦] وكرر الأمر مرة أخرى بأسلوب مختلف: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
 أَفِيَابِطِلٌ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا  
 يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ [٧٢، ٧٣].

ودعت السورة أصحاب الشرك سواء من أصحاب التثنية أو غيرهم، إلى توحيد الله بالعبادة وحده، وأوردت أصنافاً من التصرفات العملية التي تدفع أصحابها إلى خاثة الشرك، محذرةً من عواقبها الوخيمة على أصحابها [٥١ - ٦٠]. وأبرزت السورة دور الشيطان - وهو العدو الأزلي للإنسان - في التزيين للإنسان ودفعه نحو الإشراك بالله: ﴿ تَأَلَّهَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ [٦٣]، وحتى لا يزداد أثر الفكر الجبري على أصحابه سوءاً في هذا السياق، فإن الآيات تبرز بالمقابل ضعف الشيطان، وتوضح أن أبواب الإنسان الموحد لله أمامه مغلقة، ولا يستطيع النفاذ إلا من أبواب الشرك، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [١١] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ [٩٩، ١٠٠]، فالشرك هو الذي يستدعي الشيطان، والشيطان يُزَيِّنُ، وقبل ذلك يوسوس، لكنها وسوسة ضعيفة تتطرد بالتذكر والاستغفار.

وبسبب المكانة الهامة التي يحتلها إبراهيم عليه السلام في سائر الديانات، أي عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يمارسون صوراً من شرك التثنية والتثليث، وإشراك الأبحار والرهبان، وكذلك عند مشركي العرب الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، لهذا أكد القرآن على حنيفية إبراهيم وتوحيده: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٠] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحْبَبْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [١٢٠]، [١٢١]. ونلاحظ ربط الآية بين توحيد الربوبية والألوهية، حيث إن المنعم المتفضل يستحق الشكر، وما دام منفرداً بالإنعام فإنه يستحق الإفراد

بالشكر، وهو هنا العبادة وفق الشريعة التي جاء بها الوحي.

وتربط الآية التالية بين الوجدانية المقررة سلفاً في دعوة إبراهيم، والوجدانية التي يدعو إليها محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٢٣].

ثانياً- تسخير الله كل المخلوقات لصالح الإنسان:

سبقت الإشارة إلى أن بعض المفسرين أطلقوا على هذه السورة (سورة النعم) لكثرة ما ذكر فيها من نعم الله في السماء والأرض: براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، تراباً وماء، على الإنسان. وقد أوردت هذه السورة الكثير من الآلاء في سياق معالجة النفس البشرية من لؤم الشرك، وتنوعت هذه النعم في كل الاتجاهات، مثل:

- الحيوانات وما توفره للإنسان من دفاء وأكل وجمال وركوب وحمل أثقال وزينة، ومنافع أخرى، وذكر منها: الأنعام والخيل والبغال والحمير [٥ - ٨].

- المياه المطرية وما تسببت بإنباته من أشجار وزروع وثمار كالزيتون والنخيل والأعناب، إضافة إلى شرب هذه المياه التي فيها حياة سائر المخلوقات ولا سيما الإنسان [١٠ - ١١].

- المخلوقات الكونية الموجودة خارج إطار الأرض، لكن نفعها يصل إلى الإنسان داخل الأرض، كالليل والنهار وما يستفيده الإنسان من تعاقبهما، والشمس والقمر والنجوم [١٢].

- المعادن والعناصر والخبايا الموجودة في بواطن الأرض، مما اختلفت ألوانه وتعددت منافعه، فقد ذرأها الله لصالح هذا الإنسان منذ آحاد طويلة من الزمان، كالنفط والغاز والفحم، والحديد والزنك والفوسفات والألمنيوم، والذهب والفضة والنحاس والقصدير، وغيرها من المعادن والعناصر التي وفرت الرفاه للإنسان [١٣].



- الكائنات والمعادن والعناصر البحرية التي توفر للإنسان اللحوم الطرية والحلي الثمينة، كاللؤلؤ والمرجان، إضافة إلى فوائد البحار والمحيطات المرتبطة بالنقل، من خلال السفن العملاقة التي تمخر عباب البحر بيسر وسهولة لتحمل الناس، وتوصل إليهم كل ما تحتاج إليه حياتهم [١٤].

- الجبال الرواسي التي تساعد في تثبيت حركة الأرض حتى لا تميد بالناس، والأنهار والسبل المنحوتة في سلاسل الجبال الضخمة، ومعالم الطرق والنجوم بفوائدها المرتبطة باهتداء الإنسان في الصحاري والبحار والبراري، ولا سيما في الظلمات [١٥، ١٦].

ولأن ما أورده هذه الآيات هي معالم النعم وعناوين الآلاء أو مجرد نماذج، فإن السياق ينتقل للحديث عن صعوبة إحصاء نعم الله على الإنسان لحوال هذا الإنسان أن يفعل، فقط عليه أن يعمل عقله: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨).

ونلاحظ في هذه الآية أن الله استخدم كلمة «نعمة» مفردة ولم يستخدم الجمع «نعم»، ومع أنها اسم جنس، لكن استخدامها في هذا السياق يلفت الأنظار إلى وحدة هذه النعم وتكاملها، فهي مسخرة وتتضافر جميعها لخدمة هذا الإنسان، لكن التدخل السيء للإنسان في هذا الكون، هو الذي يخلق الشقاق والتناقض بينها وهو الذي يظهر الفساد في البر والبحر.

ومن المعلوم أن هذا (التضافر) بين النعم هو من ثمار التوحيد، بينما يأتي (التنافر) كثمرة من ثمار الشرك، وبهذا تضع هذه السورة أساساً من أسس الوحدة، وتوفر عنصراً من عناصر العسل الشايف للمجتمعات من الفوضى والفرقة.

- التأكيد على آلاء الله على الإنسان بهذه النعم، حيث لفتت السورة الأنظار مرة أخرى إلى الأنعام، موردة نعمة الحليب، حيث يخرج لبناً سائغاً للشاربين من بين فرث ودم [٦٦].

- لفت الأنظار أيضاً إلى ثمرات النخيل والأعناب، ومنها اتخاذ الخمر والعصائر [٦٧].

- الحديث عن النحل التي ألهمها الله أن تتخذ لها بيوتاً في الجبال والشجر وعرائش البيوت والشجر. وكيف ألهمها أن تأكل من كل الثمرات وتسير في السبل المؤدية إلى اختلاط رحيق جميع الأزهار والثمار في بطنها ليخرج منه العسل بألوانه المختلفة، والذي يحمل للناس الشفاء والعافية، فهو غذاء ودواء [٦٨، ٦٩].

- لفت الأنظار إلى الطير المسخرة في جو السماء، والحث على الاعتبار بها، والطيран من خلال أجنحتها إلى الله، لأن الذي أمسكها عن السقوط هو الله، ولذلك ذيل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٧٩].

- الامتنان بالسكن في البيوت، بالحديث عن جلود الأنعام التي تصنع منها الخيام، وكهوف الجبال التي تصلح أكناناً للإنسان، ثم الحديث عن الظل، والأثاث واللباس المتخذ من أصواف وأوبار وأشعار الحيوانات، وكذلك الثياب والدروع التي تقي الناس من الحر والقر، وتقيهم من بأس الحروب والقتال [٨٠، ٨١].

شكر المنعم:

ولأن هذه النعم المجانية بحاجة إلى شكر وضريبة، فقد ختم الله الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [٨١].

والإسلام هو الاستسلام لله، بالتزام أمره واجتناب نهيهِ، وهو فائدة أخرى للإنسان بل هو أم النعم، لأنه يتكفل بالجمع للإنسان بين السعادة الدنيوية والفوز الأخروي. ولهذا دعت هذه السورة الإنسان مرة أخرى إلى

التمتع بخيرات الله وطيباته ونعمه وآلائه: ﴿وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [٧٢]، مع التزام منهجه تعالى في التحليل والتحرير، لأنها من مقتضيات التوحيد ولتوازم الألوهية.

ولعظيم منة الله على هذا الإنسان، فقد جعل الأكل من رزق الله حلالاً طيباً عبادةً له، إن قام بمقتضيات الشكر، وتمعنوا معي في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [١١٤] كأنه يقول: إن كنتم تعبدون الله وحده فكلوا مما رزقكم حلالاً طيباً واشكروه على هذه النعمة. وكانت آية سابقة في هذه السورة قد تحدثت عن تسخير الله البحر للناس ليأكلوا منه لحماً طرياً، ويستخرجوا منه حلبة يلبسونها، وتسير عليه سفنهم، وختم هذه الآية بقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٤]، فالشكر هو الثمن المطلوب مقابل هذا التسخير وهذه النعم، والشكر العملي إنما يعود خيره على الإنسان.

وزاد تعالى من امتنانه على خلقه بأن جعل دائرة الحلال هي الأكبر والأوسع، بل جعل الأصل في الأشياء الإباحة والحل، وحصر المحرمات في نطاق ضيق، مع إباحة هذه المحرمات -على قلتها- عند وجود الضرورة لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١١٥].

ولحرص الله على التيسير على الناس، ولأن التحليل والتحرير من خصائص الألوهية، فقد عاب على المشركين قيامهم بهذا الأمر وعده من جرائمهم التي هي من ثمار الشرك، كما في الآية ٣٥ من هذه السورة. وحذر من الإقدام على هذا الجرم، وهذا الافتراء والافتئات على الله، وتوعد أصحابه بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾.

ومن المعلوم أن وعيد الله في كثير من الآيات للمشركين والمجرمين والعصاة يتوزع بين داري الدنيا والآخرة، فإن الشرك لا يورث أصحابه إلا الدمار في الدارين، على عكس الإيمان، وهذا هو العنصر الثالث في العسل الشافي للناس من داء الفوضى وآفة التمزق.

ثالثاً- الشرك دمار والإيمان عمار للدارين:

الإيمان هو هدية السماء للأرض، ومنحة الخالق للمخلوقين، لأن فيه الضمانة الكاملة لتحقيق مصالح الناس في المعاش والمعاد، ومن خلال استقراء العلماء والمفكرين لنصوص الإسلام العظيمة وجدوا أنها تتمحور حول غاية عظيمة وهي تحقيق المصالح ودرء المفسدات، ومن هذه الغاية العظمى تسلسل المقاصد الخمس الكبرى للشريعة الإسلامية، وهي: حماية الدين والنفس والعرض والأنساب وحماية المال، وحماية العقل، وليس ذلك فحسب، بل جعلت كل ما يصلح هذه المقاصد فرضاً واجباً، وكل ما يفسدها أو ينال منها حراماً، والعبادة في زبدتها هي التقوى، والتقوى هي إتيان الأوامر واجتناب النواهي، أو كما عبر عنها بعض السلف: أن لا يجردك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك.

ومن المعلوم أن إحدى قواعد القرآن في الدعوة إلى الإيمان ومحاربة الكفر والشرك هي الترغيب والترهيب، ومن الترغيب: الوعد بصلاح الدارين، ومن الترهيب: الوعيد بخراب الدارين.

وقد أوردت هذه السورة عدة آيات في سياق الوعد على الإيمان بالجزاء الحسن في الدارين، وأهم هذه الآيات:

- ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ ﴾ (٣٠)

عَدِنِ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ  
الْمُتَّقِينَ ﴿ [٣٠ - ٣٢].

- ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَالْآخِرَةُ  
أَكْبَرُ ۗ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤١].

- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً  
طَيِّبَةً ۗ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٩٧].

ولأن الإحسان هو جزاء الإحسان، فإن الله تعالى بكرمه وعد بالإحسان  
المضاعف لمن أحسنوا كما في الآية الأخيرة، مع أنهم قد استفادوا في الدنيا  
من الصالحات التي قاموا بصناعتها، والصالحات هي كل ما يحقق مصلحة  
لتلك المقاصد الكبرى، ويدراً عنها مفسدة وهي كلها لصالح الإنسان، وبهذا  
ربحوا الحياة الطيبة، وهكذا حازوا السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.  
وتبدأ ثمار الإيمان في هذا السياق بلمّ شمل الفرد نفسه وجمع شعبته، لأنه  
يقضي على الفوضى والتناقض والتضاد داخل شخصيته، حيث تتكامل  
أبعاد: العقل والروح والجسم ولا تتآكل، لأن هذه الأبعاد تتحد في المنطلق وفي  
المقاصد، فالمسلم يتعبد الله بإشباع حاجاته الجسمية: أكلًا وشربًا وجنسًا  
ولبسًا وركوبًا، كما يتعبد الله بتلبية حاجاته الروحية والعقلية.

وقد قدمت هذه السورة نموذجًا للإيمان الذي تجسد في شخص من عباد  
الله، فَوَحَّدَ شمله وجمع كيانه وعظّم شخصيته وضاعف فاعليته حتى صار  
أمةً وحده، إنه نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي جمع الله له بسبب ذلك  
بين حسنة الدنيا وصلاح الآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً  
قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ۖ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِيهِ ۖ أَجْتَبَهُ وَهَدَنَهُ  
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ ۗ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾  
[١٢٠ - ١٢٢].

وللتفريق بين فاعلية الإيمان وانتقام الشرك من أصحابه بالنيل من حواسهم وفاعلياتهم، ضرب الله المثل بقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٧٦].

هذا بالنسبة للإيمان، أما الشرك فهو يوجد أرضية رخوة تربتها الأهواء، وهذه التربة بيئة خصبة لاستزراع أشواك الفوضى، ونباتات التفرق والتمزق؛ وهو ما يكون سبباً في سقوط المجتمع الذي يصير هذا حاله، هذا السقوط يسميه القرآن عذاباً، لأنه يأتي نتيجة صراعات وحروب داخلية أو عذاب استتصالي في صورة كوارث طبيعية، وكل هذه الصور بجانب التخويف بالآخرة عرضت لها هذه السورة في سياق التحذير من الشرك والكفر. ويمكن إبراز هذا الأمر بصورة منظمة في النقاط الآتية:

#### ١- التخويف بنزول العذاب الديني:

قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [٤٥ - ٤٧].

٢- التأكيد على أن من اقترف هذه الجريمة من السابقين فقد تعرض لهذا العذاب الديني الاستتصالي، قال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٦]. ونلاحظ أن الله ذكر أنه أتى بنيانهم من القواعد، بمعنى أن الهدم كان داخلياً، وجاء من الناس أنفسهم، فقد هدموا صروحهم بأيدي كفرهم وبفؤوس شركهم وانحرفهم.

٣- العذاب دائماً نتيجة، وأعمال السوء مقدمة، وبالتالي فإن الناس هم

الذين ظلموا أنفسهم، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ- يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٣٤، ٣٣].

وتكرر في السورة التأكيد على أن الإنسان - في الجزاء الدنيوي أو الأخروي - إنما يحصد ما قدم لنفسه، فإذا انحرف فقد ظلم نفسه ولم يظلمه الله، وبالتالي لا يلوم إلا نفسه، تكرر هذا الأمر في الآيات: [١١١، ١١٢، ١١٣] وحتى تحريم الله على اليهود بعض الأشياء المذكورة في مواضع أخرى في القرآن، إنما جاء بسبب ظلمهم وتطعمهم وتشدهم: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [١١٨].

٤- التخويف بالعذاب الأخروي: إذ توعد الله المشركين بأصناف من الفضيحة والإهانة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة والعذاب الأليم، وقد تكرر هذا الوعيد في عدد من الآيات [٦١ - ٦٣، ٨٤، ٨٥، ٨٩]. وورد الوعيد أيضاً بحق الكافرين [١٠٤، ١٠٦].

وفي ذات السياق ورد في هذه السورة التخويف بقيام الساعة: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هَوَاقِرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٧٧].

٥- تسجيل مشهد التبرؤ في القيامة من المشركين: ورد في هذه السورة أن المشركين عندما يرون من أشركوهم مع الله، فإنهم يشيرون إليهم بالبنان، لكنهم يكذبونهم ويتبرؤون منهم، فيضيع شركهم هباءً ويتحول إلى حسرة وعذاب [٨٦، ٨٧].

٦- من مقاصد القيامة حسم الخلافات بين المشركين وبيان الحقيقة: من المعلوم أن مقاصد البعث والقيامة عديدة، وقد ذكرت إحدى آيات هذه السورة الغاية من البعث في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [٣٩] وأكد الأمر في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٩٢].

ومن الأمور المختلف عليها بين الديانات، اليوم المقدس في الأسبوع، فقد ذهب اليهود إلى أنه السبت، وذهب النصارى إلى أنه الأحد، وقد هدى الله المسلمين إلى يوم الجمعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [١٢٤]، ونلاحظ أن الله جعل السبت (على) اليهود، بعكس الجمعة التي جعلها ربنا للمسلمين وليس عليهم، أي أن السبت محنة والجمعة منحة!.

رابعاً- استدامة المراقبة لصاحب العلم المطلق والحذر من عقابه الأليم: حرصت هذه السورة على بذر بذور المراقبة لله وخشيته، من خلال التأكيد على أنه تعالى عليم بكل أمر، محيط بكل شيء، وإن كل قول وفعل هو موضع للمحاسبة بعد المراقبة والإحصاء، ولا سيما في فواصل الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [١٩]، ﴿لَا جُرْمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [٢٣].

وتلفت السورة الأنظار إلى أن الإشراف بالله يميز المجتمعات ويشقها إلى شيع وجماعات متناحرة، من أجل إرضاء الشركاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ [٢٧]. ونلاحظ أن الله سائلهم على هذا الإشراف وهذه المشاققة. وتؤكد آية أخرى هذه المسألة، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَأْنٌ عَمَّا كُنتُمْ تَقْتِرُونَ﴾ [٥٦]. ويزيد المولى عز وجل الأمر تأكيداً



في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَتَّبِعُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٣].

وهكذا يربط الله بين المساءلة والمراقبة له تعالى كما في (الفاصلتين) السابقتين، ويربط كذلك بين مراقبته وبين الوعيد الأخروي عمومًا، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسْمَاءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٢٨] فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ [٢٨، ٢٩].

ويثبت المولى شجرة الخوف منه والمراقبة له بالتأكيد على عجز المشرك عن الدفاع عن نفسه، لعدم إذن الله له بذلك، مع حضور الأنبياء والمصلحين شهودًا على أقوامهم ومجتمعاتهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [٨٤]، ومثل هذه الآية: الآية ٨٩ من نفس السورة غير أنها زادت أن الرسول ﷺ سيكون بدوره شهيدًا على هذه الأمة.

وفي سياق زرع رقابة الله والتحذير من وعيده، فإن هذه السورة تحذر من الشرك والفساد والانحراف مما يمكن اعتباره لازماً لصاحبه، بمعنى أن ضرره منحصر على مقتدره، لكنها حذرت بصورة أكبر من التحول إلى دائرة الشرك والفساد والانحراف المتعدي، كتحويل الفاسد إلى مفسد، فمع أن ذلك لا يعفي المفسد الضحية لأن الله سلّحه بالعقل والسمع والبصر، إلا أن المفسد يتحمل تبعات ذلك بمضاعفة الوزر ومراكمة السيئات، ومن ثم العذاب المضاعف.. قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [٢٥]..

إن المفسد يصد الناس عن سبيل الله ويدفعهم إلى سبل الشيطان، ومن ثم يحل به هذا العذاب المضاعف: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [٨٨]. هذا الصد

هو الجريمة التي تستحق تعظيم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا نُنْخِذُكُمْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ بِكُمْ فَكُلُّ مَن بَعَدَ بُيُوتَهَا وَتَذَوَّقُوا سُوءَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٤].

خامساً- القرآن هو المخرج ما أحسن الناس تدبره:

القرآن هو المخرج من كل العضلات، بما فيها معضلة الفوضى والفرقة، غير أن عدم تدبر القرآن لا يفيد القارئ شيئاً بل قد يعرضه لنقد القرآن وهو يظن أنه يحسن صنفاً<sup>(١)</sup>.

ولما كان القرآن هو المهيم على الكتب السابقة بعد أن حُرِفَتْ ثم نسخت، فإن إحدى الغايات من تنزل القرآن، بوصفه كتاباً عالمياً، هي حسم القضايا محل الخلاف بين أهل الديانات السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [٤٤].

وواضح من هذه الآية أن القرآن يبدأ بحل هذه المعضلة من خلال القول الفصل في القضايا المتنازع حولها، كقضية صلب المسيح التي نفاها القرآن، لكن استخراج الأدوية من (صيدلية القرآن) بحاجة إلى تدبر، ولذلك انتهت فاصلة الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾، سواء التفكر في آيات القرآن الذي نسميه التدبر، أو التفكر في آيات الكون، أو التبصر في آيات الأنفس.

ويؤكد المولى عز وجل على دور القرآن في تبين القضايا المتنازع عليها، بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٦٤].

١- حول ظاهرة نقد القرآن لمن يقرأه بدون تدبر، راجع كتابنا: انتقام الأفكار.. جذور الإعاقة الحضارية في فكر المسلمين، ط١ (تعز: منتدى الفكر الإسلامي، صنعاء: مؤسسة أبرار، ٢٠٠٩)، ص٢٣ - ٧٢.

ولأن القرآن هو الدليل البصائري للإسلام، فإن هذه السورة تبين أن هذا الدين شامل للحياة جميعاً، ومن ثم فإن المسلم مطالب بطاعة الله دائماً في كل الحالات: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْفِقُونَ﴾ [٥٢] فإن «واصباً» تأتي بمعان عديدة أهمها: دائماً<sup>(١)</sup> وهو المعنى الذي يستقيم مع مطلع الآية التي يبدو أنها تنتقل من إقرار توحيد الربوبية ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى تقرير وحدة الألوهية: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي في كل الأوقات، فلا ينفع أن يُعبد الله في المسجد مثلاً ثم يعصى في شؤون الحياة أو في أي شأن من شؤونها؛ لأن التقوى تقتضي أن يكون المؤمن ملتزماً بكل أمر، مجتنباً لكل نهي، ويؤكد ذلك نهاية الآية ذاتها والتي تقول في صيغة سؤال استنكاري: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْفِقُونَ﴾؟

ولأن الإسلام اكتسب شموليته من القرآن، فإن هذه السورة اشتملت على أهم الآيات في إثبات شمولية القرآن لكل شؤون الحياة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [٨٩]، وذلك من خلال احتوائه على القواعد العامة التي تنتظم تحتها كافة مفردات الحياة، ونص على الثواب التي لا تتغير بتغير الزمن وتطور الحياة واختلاف الظروف، وحث على أعمال العقل اجتهاداً في الأمور الجزئية على ضوء كلييات القرآن، وفي الأمور الفرعية في ضوء الأصول، وفي الوسائل والأساليب والآليات مع الانضباط بالمقاصد واستحضار الغايات. وهذا كله بحاجة إلى تدبر، فثمار التدبر كبيرة وكثيرة، وهي ثمار عقلية وقلبية وعملية<sup>(٢)</sup>.

وبما أن القرآن رؤية كلية للحياة جميعاً، فإن القراءة الجزئية لا يمكن أن تؤتي ثمارها، بل تعرض صاحبها لنقد القرآن. ومن ذلك بروز الأفهام

١- قارن هذا المعنى بتفسير سيد قطب للآية: في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٧٦.

٢- حول هذه الثمار انظر كتابنا: تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية،

ط١ (صنعاء: نقت للخدمات العامة، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨)، ص ٢٢٨ - ٢٦٨.

الجزئية، والتمحور حول قضايا وموضوعات محدودة مهما كانت أهميتها وحصر الإسلام فيها، مما يؤدي إلى تجزئ الإسلام وتمزيق المسلمين<sup>(١)</sup>.

وعملية التدبر هي جهد كبير لقارئ القرآن، له شروطه ومتطلباته وأدابه، لأن القارئ بحاجة إلى مساعد خارجي، هذا المساعد ينقسم إلى قسمين: التخيلية ثم التحلية: التخيلية تكون باستبعاد الملهيات والاستعانة بالله على ذلك، وعلى رأسها الشيطان، ولذلك وجَّه الله في هذه السورة قارئ القرآن بالقول المبين: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [٩٨]، أما التحلية فتكون بكمال الاستعانة بالله على كل شيء، بما في ذلك قراءة القرآن، وأول الاستعانة قراءة البسمة بعد الاستعاذة التي هي التخيلية.

وتتضح أهمية التدبر وخطورته من خلال هذه السورة، من أن الله بعد آية الاستعاذة أورد بضع آيات حول القرآن وما يقوله المشركون عنه، ثم أطلق وعيده الخطير بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٠٤] وقد أثبتت التجارب ذلك والعياذ بالله!!.

ولأن المؤمن الحق لا بد أن يكون قد ارتفع إلى درجة الإيمان عبر بصائر التدبر، فإن المؤمن هو من يُثبته الله بالقرآن، أما المسلم العادي فهو له هدى وبشرى، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [١٠٢].

ومهما يكن الأمر، فيبدو أن حجر الزاوية في القراءة المثمرة للقرآن هي التدبر، وهي عملية عقلية قلبية، غير أن العقل لا يقف عند حدود آيات القرآن، بل يتعداها إلى آيات الأنفس والآفاق؛ وهو ما يجعل من الضرورة بمكان فتح المجال له للعمل، وهذا الأمر هو العنصر الآتي في موضوعنا هذا.

١- حول عواقب القراءة الجزئية ودورها في تمزيق المسلمين، راجع كتابنا: انتقام الأفكار: ص ٢٦-٣٥.

## سادساً- إعمال العقل في آيات الأنفس والآفاق:

من يقرأ القرآن عموماً يلاحظ أن مصطلح الآيات يطلقه المولى عز وجل على الجمل القرآنية مطالباً إيانا بالتدبر، وعلى المخلوقات الكونية ويطالبنا إزاءها بالتفكر، وعلى المخلوقات الحية، ولا سيما الإنسان، ويطالبنا إزاءها بالتبصر، وعلى القصص الاجتماعية والأحداث التاريخية ويطالبنا إزاءها بالاعتبار.

وإذا كنا قد تناولنا ما يرتبط بالآيات القرآنية في الفقرة السابقة، فسنتناول بقية الآيات من خلال سورة النحل في النقاط الآتية:

١- **التفكر في النباتات والثمار:** تحدثت السورة عن نعمة المطر، وكيف ينبت الله به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وكل الثمرات، ثم ذيل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١١]. فكان لهذه الأشجار والنباتات ثمرتين: الثمرة المادية المعروفة، والثمرة الأخرى هي التفكر، وهذه الثمرة لا يراها ولا يقطفها إلا صاحب العقل المتفتح.

٢- **تعقل الآيات الكونية:** في الآية التالية ورد الحديث عن تسخير الله الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لصالح الإنسان، ثم ذيل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١٢].

وأمر الله في آية أخرى برؤية ما خلق الله من أشياء ذات ظلال، ودعا إلى الائتلاف مع المخلوقات والملائكة في «سيمفونية» السجود الكوني إلى الثقلين، والحث غير المباشر على التشبه بالملائكة الذين يخافون الله ويفعلون ما يأمرهم [٤٨ - ٥٠].

٣- **التذكر بخبايا الأرض:** لفت الله في الآية التالية الأنظار إلى ما ذرأ للناس في الأرض مما اختلف ألوانه من المعادن والعناصر التي ساهمت في صناعة الحياة للإنسان وتوفير الطاقة والزينة له، وختم هذه الآية بالحث

على التذکر قائلاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٣].

ولو تفكرنا قليلاً لتذكرنا -على سبيل المثال- عدل الله حتى في مثل هذا المقام، فإن متابعتنا لخارطة النفط -مثلاً- ستظهر لنا أن معظم حقول النفط في الكرة الأرضية -وهو أهم ثروة في هذا العصر- تتمدد في مناطق الصحاري وهي أفقر مناطق العالم، كنوع من التوزيع العادل للثروة من قبل اللطيف الخبير!!.

٤- الاهتداء بطرق الأرض: في آية أخرى امتن الله على عباده بأنه ألقى في الأرض جبالات ترسيها حتى لا تميد بهم وأنهاراً وسبلاً، وذيل الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١٥]، وهنا يتبادر إلى الذهن الهداية الحسية، وهو صحيح ولا سيما عندما نقرأ الآية التالية لها: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الرَّحْمَٰنُ الصِّيَادَ وَرَبَّ الَّتَابِغِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١٦]، لكن السياق العام وطبيعة النظم القرآني والهداية الفرقانية تجعل الهداية المعنوية مقصودة في الآية أيضاً كالهداية الحسية.

٥- النظر إلى مصائر الأمم للاعتبار بها: في سياق توضيح السورة لاتجاه جميع الرسل إلى الدعوة لعبادة الله واجتباب الطاغوت، وتوزع البشر بين الهداية والضلال، أطلقت الآية دعوة للتفكير بهذا الأمر، فقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [٣٦].

٦- إعمال كافة القوى العقلية في الطبيعة وما فيها: في قلب سورة (النحل)، تحدثت آية عن إنزال الله المطر وإحياء الأرض به، وذيل الله الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٦٥].

وفي الآيتين التاليتين تحدث عن لبن الأنعام وعن ثمرات النخيل والأعناب التي تُتخذ منها الخمر والعصائر، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٦٧]، وتحدثت الآيتان اللاحقتان عن (النحل) وكيف ألهمها الله السكن في الجبال والشجر والعروش، والأكل من سائر الثمار والسير الممهد في سبل

ربها، وكيف يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ليختم هذه اللوحة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٦٩].

وهكذا، عرضت الآيات مشاهد عدة في لوحة واحدة، حادثة العقل على العمل، لكن طبيعة العمل تختلف قليلا مع طبيعة المشهد في هذه اللوحة الكونية الجميلة، ولذلك قال: يسمعون مرة ويعقلون مرة ثانية، ويتفكرون مرة أخرى.

٧- إعمال جهاز الوعي الإنساني في الآيات شكراً لله: في حديث القرآن عن النعم التي حباننا الله بها في البحر: غذاءً، وزينةً، وركوباً، حث في آخرها على شكره تعالى [١٤]. وبالطبع فإن أول درجات الشكر هي التفكير في حقيقة هذه النعم وما وراءها، ولهذا فإن تفعيل جهاز الوعي في الإنسان، ونقصد به العقل وما يؤدي إليه من سمع وبصر هو بداية الطريق الصحيح إلى شكر الله، وهذا ما أكدته بصورة جلية آية أخرى من آيات هذه السورة المباركة، وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧٨].

٨- ضرورة التعلم وخطورة الجهل: مثل كل سور القرآن الكريم، فإن سورة (النحل) تتجاز إلى العلم وتحت على التعلم، والتفكير هو أرقى عمليات التعلم، لكن الجديد في هذه السورة حثها على سؤال من يعلم عند انعدام العلم، قال تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٤٣]، وبينت السورة أن الله يضع سره في أضعف خلقه - كما يقال - من خلال بيان أن الفائدة قد تخرج من بين فرث ودم، وهي هنا الحليب، ولذلك أمر القرآن بالاعتبار بهذا الأمر فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتَتَّقُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦].

وفي سياق التعلم الشامل، حث القرآن على السير في الأرض وارتداد المجهول، واكتشاف أو اختراع وابتكار كل جديد، كما في الآية التي تحدثت

عن ركوب الخيل والبغال والحمير، حيث ذيلها المولى تعالى بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨].

وحول خطورة الجهل، وضحت إحدى الآيات أن إنكار البعث نتيجة من نتائج الجهل، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٨].

ولأن إنكار البعث كفر، وأحد أسبابه الجهل، فإن العلاقة تتكامل بين الكفر وتعطيل جهاز الوعي في الإنسان، فقد بينت هذه السورة أن الطبع على القلوب والسمع والأبصار سببه الكفر [١٠٦ - ١٠٨]. ولما كان الإنسان لا يدخل في عداد الأحياء إلا بجهاز وعيه العامل، فقد وصف الله الكفار بأنهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [٢١].

وهذا كله يبين بجلاء خطورة الجهل ومدى أهمية العلم وفرضية التعلم. ويتضح عموماً ضرورة إعمال العقل في كل ما خلق الله، بصورة ممنهجة وسليمة، لأن انعدام التفكير السليم يصنع القابلية للفوضى والتخبط والعشوائية، إضافة إلى أنه يسمح بنمو الزوائد وربما باستزراع قنابل موقوتة في العقل قد تنفجر بصاحبها وبالمجتمع في أي وقت، ولا سيما أن الجهل يوهم صاحبه أنه أعلم العلماء وأنه يمتلك الحقيقة المطلقة!

#### سابعاً- الاهتمام بالتخصصات واحترام الاختلاف:

لكي لا يصل أي مجتمع إلى ادعاء أبنائه امتلاكهم الحقيقة المطلقة، وحتى لا يُسَفَّهُ بعضهم بعضاً، أو تمارس جهه ضد أخرى صوراً من الاستعباد والإقصاء والاجتثاث، لا بد من الاهتمام بالتخصصات واحترامها، واحترام الاختلاف، واتباع آداب الاختلاف، والتخلي بآداب الحوار، وهذا كله ما دفعت باتجاهه سورة النحل في سياق شفاؤها للناس من داء الفوضى والشتات.



١- سؤال أهل التخصص: في اهتمام السورة بالجانب العلمي، سبق أن أوردنا حثها على التعلم وسؤال من يعرف، وهنا أرست الآية التي ورد فيها هذا الأمر قيمة أخرى وهي سؤال أهل التخصص، أهل المعرفة والخبرة والدراية: ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٤٣].

ولما كان السياق الذي جاء فيه هذا الأمر هو الحديث عن الوحي، فقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يسأل أهل الكتاب العالمين بالتوراة والإنجيل، وكان يمكن أن يسميهم، لكنه استخدم مصطلح: ﴿ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾، لكي يشمل المصطلح كل صاحب تخصص، وبالتالي فإن الآية تؤسس لاحترام التخصصات والعودة إلى أصحابها في حال نشوء الأسئلة والمشاكل.

٢- تزكية الذات من علامات الجهل: من ثمار العلم أنه يُعرّف صاحبه بضآلة نفسه وحقيقة ذاته، لكن الجاهل يظن أنه يعرف الكثير، ويمارس صوراً من تزكية الذات واحتكار الحقيقة، ومن ثم فإنه ينطلق إلى تسفيه الآخرين.

في سياق تشریح السورة لمقولات وأفعال الجاهلين الجاهلية، ورد قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنْ هُمْ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ [٦٢]. فهؤلاء الجاهلون يدعون أن لهم الحسنى.

٣- التفكير بالتعدد: أوردت السورة مشهداً تنزل المطر على أرض واحدة، فينبت بذلك الماء الواحد: الزرع (الحبوب) والزيتون والنخيل والأعنان ومن كل الثمرات، وختم هذه الآية بالدعوة للتفكير بهذا المشهد: ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١١] فقد اتقنت المدخلات، وهي هنا: المطر، التربة، المناخ، الفلاح، لكن المخرجات اختلفت، فالحبوب مختلفة والثمار والفواكه مختلفة، سواء في الحجم أو الشكل أو اللون أو الطعم أو الفائدة.

وفي آية (النحل) لفت المولى عز وجل الأنظار إلى حشرة ألهمها الأكل من كل الأشجار والثمار، ثم إلى العسل الذي يخرج من جوفها مختلف الألوان، داعياً إلى التفكير في هذا المشهد: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٦٩]. وهكذا فإن هذه الآيات تلفت الأنظار إلى أن الاختلاف طبيعي، لأنه اختلاف تنوع لا تضاد.

٤- طبيعة اختلاف التنوع: قال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٣]. فإن الاختلاف في ألوان المعادن في هذه الآية، والنباتات والثمار وألوان العسل في آيات سابقة لا ينفي تنوعها وتعاضدها في خدمة الإنسان. وتنوع الآراء والأفكار في إطار الثوابت الإسلامية هو مثل هذا التنوع، وهو الذي تصدق فيه المقولة المشهورة: «الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية!». ومثل ذلك: «السرابيل» المذكورة في هذه السورة [الآية: ٨١] فإن فوائدها متعددة على الإنسان وحمايته من الحر والقر والحرب. ويشبه ذلك التعدد الذي يصنعه التفاوت في الرزق [٧١]؛ فإنه تعدد طبيعي لا ينبغي أن تنشأ بموجبه عصبية وتناقضات داخل المجتمع، مع توجيه الإسلام إلى ضرورة تجسير العلاقة بين الأغنياء والفقراء حتى لا تنشأ فجوات وفوارق وطبقات.

#### ثامناً- التحلي بالقيم والأخلاق الفاضلة:

أوردت هذه السورة عدداً من القيم والأخلاق التي لو تحلى بها أصحابها لساهمت بفاعلية في تحريرهم من رقّ الفوضى وريّقة الفرقة، وحتى لا يطول الموضوع، فسنعتمد في هذه الفقرة إلى الاختصار أكثر، ولا سيما أن هذه القيم والأخلاق من الواضح بمكان:

- ١- العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى [٩٠، ٧٦]، ومن العدل المماثلة في العقوبة وعدم الزيادة؛ لأن الزيادة اعتداء [١٢٦].
- ٢- الوفاء بالعهود والمواثيق [٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٥].

٣- الحرية: حيث ضربت السورة مثلاً بشخصين أحدهما عبد والآخر حر فإنهما لا يستويان [٧٥] فالحر صاحب فاعلية كبيرة، بينما العبد لا يقدر على شيء. ومشيئة الله لا تلغي مسؤولية الإنسان، وتأمل معي فاصلة الآية التالية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣]. وبجانب ارتقاء الحرية بفاعلية الفرد فإنها أساس كرامته ومناطق التكليف، وإذا غابت الحرية وحضر الإكراه سقط التكليف [١٠٦].

٤- الصبر: والصبر خلق مركزي في كافة شؤون الحياة، ولذلك تكرر ذكره في هذه السورة في مواضع عدة وفي مناسبات مختلفة: [٤٢، ٩٦، ١١٠، ١٢٦، ١٢٧].

٥- التقوى والإحسان: [٢، ٣٠، ٣١].

٦- التوكل على الله والاعتماد عليه: [٤٢، ٩٩].

٧- الصدق في كافة الأقوال والتصرفات: [١٠٥].

٨- الهجرة والجهاد في سبيل الله: [١١٠].

٩- التوبة إلى الله بدون واسطة أحد، والتخلص من ثقل الذنوب وغل الأوزار: [١١٩].

١٠- الدعوة إلى الله تعالى بالحسنى: [١٢٥] وتقديم الأمر بالمعروف في الدعوة، على النهي عن المنكر بإيجاد البدائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عَٰلِمٌ غَيْبٍ يَعْظَمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٩٠].

١١- تجفيف منابع الفرقة: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [٩٠].

وهكذا، نستطيع القول: إن هذه العناصر الثمانية تتمازج مع بعضها لتكون

عسلاً فكرياً، يمتلك القدرة على تقوية الجهاز المناعي للمجتمعات ضد العلل الاجتماعية، ولا سيما ما يرتبط بالنظام والانسجام والتعاون، ولهذا كان عنوان السورة (النحل)، لأنها مثال للكائنات المثالية في النظام والانسجام والائتلاف والتعاون، إضافة إلى أنها تنتج العسل وهو أفضل غذاء ودواء لتقوية جهاز المناعة الذي يقاوم كافة الأمراض في جسم الإنسان.

## عوامل الاصطفاء لـ (آل عمران)

### و«خير أمة أخرجت للناس»!

سورة آل عمران مدنية، آياتها: ٢٠٠، ترتيبها النزولي: ٨٩، والمصحفي: ٣. سميت بهذا الاسم، لأن الله أورد آل عمران في سياق الحديث عن اصطفائه لأفضل خلقه. الجدير بالذكر أن مصطلح «اصطفى» ورد في القرآن أربع مرات، الأول في سورة البقرة: ﴿ وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٢] وكانت الآية التي قبلها قد أمرت إبراهيم بأن يُسلم لله تعالى. أما الآية الثانية فهي في آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ والآية الثالثة في النمل وهي: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ [٥٩]. وذلك في ختام الحديث عن لوط عليه السلام وقومه، ولوط هو ابن أخ إبراهيم، وإبراهيم ينتسب إليه آل عمران. أما الآية الرابعة والأخيرة فهي قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٤].

وهكذا نلاحظ أن الاصطفاء هو للصفات وليس للأشخاص، بدلالة أن الله عندما اصطفى لوطاً خرجت زوجته من هذا الاصطفاء، بل ونالها ما نال القوم الظالمين من أصناف العذاب، حيث لا يزال البحر الميت شاهداً وآية من آيات ذلك العذاب الذي هلكت فيه امرأة لوط.

نعود إلى «آل عمران» حيث أوردت السورة بعض قصص آل عمران: امرأة عمران، وابنتها مريم، وخالها زكريا وزوجته وابنه يحيى، وعيسى ابن مريم. وعند حديثه عن مريم العذراء عليها السلام كرر تعالى الحديث عن الاصطفاء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لِكَرَامَتِكَ وَطَهَّرَكَ وَأَصْطَفَىٰكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [٤٢].

هذه السورة تحدثت عن «آل عمران» في عشرات الآيات، والمتدبر في هذا المقطع وفي سائر مقاطع السورة، سيجد من تحليل نصوصها أنها تؤصل لعملية الاصطفاء، لأنها عملية مفتوحة، فالله لا يحب أحدًا لعرقه وجنسه، أو لونه وجماله، وإنما إذا توافرت صفات محددة في أي كائن فإنه يكون أهلاً للاصطفاء، ولهذا أكثرت هذه السورة من نفي الظلم عن الله وتأکید أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، بمعنى أن الأمر متاح لمن أراد.. فما عوامل الاصطفاء في هذه السورة؟

من خلال قراءة آيات السورة، واكتشاف هذه العوامل، آثرنا أن نقسمها إلى قسمين: الأول يتعلق بعوامل اصطفاء «آل عمران» من خلال قصتهم، والآخر: عوامل الاصطفاء عامة من خلال آيات السورة كلها. وقبل البدء أنبه على أننا سنجمل ونختصر، لأن التفاصيل لو غصنا فيها فستحتاج كتابًا كاملاً.

### القسم الأول- عوامل اصطفاء «آل عمران»:

من قراءة قصة آل عمران يبدو أن الله اصطفاهم لتوافر عدد من العوامل فيهم، أهمها:

#### أولاً- الإيمان بالله وطاعته:

من يصطفيهم الله لا بد أن يكونوا مؤمنين حقاً به كرباً خالق رازق حكيم قادر محيي مميت، وأن يؤمنوا أنه يستحق وحده كل صور العبودية من حب وخشية، من توكل واستعانة، من دعاء وتضرع، من تسييح وقنوت، من صلاة وصيام، من نذور وقربات، وهذا ما فعله آل عمران. لقد آمنوا أنه قادر على كل شيء فتوجهوا إليه بالدعاء: ٢٨، وهم يردون كل الأمور إليه تعالى وعلى رأسها الرزق: ٢٧، ومن الإيمان بالله: الإيمان بكتابه، واليقين بما فيه من عبر وقصص، والاستهداء بما فيه من هداية: ٥٨، ٦٢..

ولأنه المستحق وحده لكل أصناف العبادة والتعظيم، فقد اتسم آل عمران بالانتماء في الطاعات ومداومة القنوت: ٤٣، وبطاعة الله المطلقة في كل صغيرة وكبيرة، ومن ذلك الوفاء بالندور له تعالى: ٣٥ - ٣٧، وترطيب الألسن بذكره تعالى وتسبيحه: ٤١، والقنوت والركوع والسجود مع الشعور بالانتماء إلى أمة المسلمين: ٤٣، وهذا ديدن آل عمران وأتباعهم وأنصارهم فإنهم جميعاً مسلمون. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٥٢].

وقد تفتن آل عمران في العبادة، وتقلبوا بين أطباقها، ومارسوا كل صورها، بما في ذلك الصوم عن الكلام لأيام، كما صام زكريا عليه السلام ثلاثة أيام: ٤١، عندما جاءت به البشارة بأن زوجته العاقرة قد حملت ببيحي عليه السلام: ٣٩، ٤٠.

#### ثانياً- العبودية لله في محراب الكون والتسابق على فعل الخير:

الإسلام هو دين الله من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع بعض التغيرات في رسالات الأنبياء إلا أن القاسم المشترك بينها جميعاً هو توحيد الله، والبحث عن خير الناس، ولهذا فإن العبادة عند المصطفين تتجاوز الحق إلى الخلق، وتخرج من المحراب إلى الحياة فتجعلها كلها محراباً لعبادة الله، حيث الحرص على تقديم المنافع للناس ودفع المضار عنهم.

لقد اتصف آل عمران بالعبادة القويمة لله في محراب الكون، ولهذا كان مضمون رسالة عيسى لبني إسرائيل: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [٥٠، ٥١].

وفي غمرة هذا التسابق فإن الذي يشحن العزائم ويقوي الهمم هو تذكر وعد الله بالأجر والثواب وتذكر وعيده بالحساب والعقاب، ولهذا ورد في آخر قصة عيسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدِبْهُمْ

عَدَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾  
 [٥٧، ٥٦].

ووصل التسابق والتنافس على عمل الخير في آل عمران ضربوا القرعة  
 بعد التخاصم والتنافس على من يتولى كفالة مريم: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ  
 إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾  
 [٤٤].

ثالثاً- الاستفادة من الآخرين:

اتسم آل عمران بالاستفادة من كل مصادر الفائدة، ومن ذلك اتباع  
 الرسل وطاعتهم: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا  
 مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٥٢]. والتصديق بالكتب السابقة والاستفادة مما  
 فيها، ولهذا قال تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّرَ بِكَ يَدَىٰ مِنَ  
 التَّوْرَةِ وَلِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن  
 رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [٥٠]. وبجانب الرسل والكتب، الاستفادة  
 من الحكمة المبتوثة حول الإنسان إذا أعمل عقله فيها، ولهذا تأمل زكريا  
 في حال مريم - وهو نبي وهي ولية، وهو رجل وهي امرأة، وهو كبير وهي  
 فتاة صغيرة- فتعلم منها درساً كبيراً، فعندما رأى معها فاكهة الصيف في  
 الشتاء قال لها: ﴿ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا؟ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [٣٧]، وعلق تعالى  
 على هذا المشهد فقال: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ  
 ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [٣٨]. وهكذا تتلمذ هذا النبي على يد فتاة،  
 حتى ذلك الوقت كانت لا تزال فتاة عادية، سوى أنها تقيّة نقيّة متبتلة.

رابعاً- التحرك في دائرة الأسباب:

لا يعني الاصطفاء أن يكون أصحابه على اتصال بعالم الغيب، بعيداً عن  
 عالم الشهادة، أو أن يغترفوا من بحر الكرامات والمعجزات والخوارق،



ولا يأتون بالأسباب، بل هم يتحركون في إطار عالم الأسباب لمعرفة أسباب هذه الأسباب هي قوانين الله ومشيتته التي لا يجوز خرقها إلا بإذنه، أما التمرد عليها فهو معصية تستحق العقاب إما في الدنيا وإما في الآخرة أو في كليهما.

ولتحرك آل عمران في إطار قوانين الله، فإنهم أبدوا استغرابهم عندما خُرقت هذه القوانين، فعندما حملت زوجة زكريا في خريف العمر مع أنها طاعنة في السن وعاقرة، قال زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [٤٠]. وكذلك عندما بُشرت مريم ببعيسى اندهشت وأبدت نفس الاستغراب: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٤٧]. ونلاحظ هنا اختلاف التعقيب من الله على الاستغراب، فقد استخدم مع زكريا: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ومع مريم: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾، لأن ما فعله مع زكريا على غرابته هو فعل، إذ أن ركني الخلفة موجودان وهما زكريا وزوجته، أما بالنسبة لمريم فإن حملها من غير زوج هو خلق لأن ركن الأب غير موجود، ولذلك قال في آية أخرى في ذات السورة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٥٩]. ولأن الأسباب هي مشيئة الله، فإن خرقها معجزة لا تتم إلا بإذن الله، ولهذا نلاحظ أن عيسى في معجزاته المرتبطة بنفخ الروح في الطير المكون من الطين قال: ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، وكذلك الأمر بالنسبة لإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فإنها ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [٤٩].

وفي هذه المعجزات نفسها، ورغم أن الله قادر على أن يقول للطين مثلا كن طيرا فيكون، إلا أنه كان يترك تصرفا بسيطا للأنبياء يرمز للسببية ويذكر الناس بالأسباب، ولذلك قال عيسى: ﴿ أَنِّي أَنشَأْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [٤٩]. إذا هو بإذن الله في

الأخير، ولكن الله أمر عيسى أن ينفخ فيه كسبب، بمعنى أن الأسباب تأخذ دوراً حتى في المعجزات، ولو كان دوراً رمزياً أو شرفياً. وفي الآية ذاتها إشارة إلى سبب آخر، فقد كان من معجزات عيسى إعلام الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، والادخار هو نوع من الأخذ بالأسباب ولا يتنافس مع التوكل على الله!.

#### خامساً- التربية والتعليم:

لا شك أن التربية والتعليم وسيلة رئيسة للوصول إلى حالة الاصفاء، ولذلك يُعلمنا الله في هذه السورة ويرينا، وكذلك فعل أنبياء آل عمران مع أسرته ومع قومهم بني إسرائيل حتى يرتقوا في معارج الاصفاء. ولهذا، ذكر الله في الآية التالية لآية الاصفاء قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣٤].

لقد شاركت امرأة عمران في تربية ابنتها مريم على الصلاح، ونمت فيها صفات وخصال الارتقاء في عالم الاصفاء وأعادتها وذريتها بالله من اغتيال الشيطان الرجيم: ٣٦، وكان لذكريا دور كبير في كفالة مريم: ٣٧ وتربيتها، ولا بد أنها في مقامها عنده تعلمت الكثير منه.

ولأن تغيير الله هو نتيجة لتغيير الإنسان، وإصلاحه نتيجة لإصلاح الإنسان، فإن قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [٣٧] يدل على أن أسرة مريم بذلت الكثير لإصلاحها، فتقبل الله هذا الجهد قبولا حسناً، وأذن بإثماره وباركه، وهياً الأسباب لمريم لمزيد من الصلاح بأن هياً كفالتها لنبي من أنبيائه وهو زكريا عليه السلام.

ورغم أن عمران والد مريم كان قد مات، فإن زوجته قامت بالواجب، ويبدو واضحاً للعيان من هذه الآيات ومن حوادث الأيام أن صلاح الآباء ينعكس على صلاح الأبناء، ولهذا كانت بصمة عمران واضحة في صلاح

ابنته مريم رغم وفاته، بسبب الطابع الذي دمج به أسرته والجو المحافظ الذي تركه، ومع ذلك يظل دور الأمهات أكبر من دور الآباء في تربية الأبناء، ولا سيما في الطفولة.

أما عن التعليم، فإن آل عمران كانوا في بيت علم وعرفان، وكان أشرف مصادر التعليم هو الوحي الرباني، وقد قال تعالى عن عيسى مثلاً: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [٤٨]. وعندما تعلم عيسى وترى، تحول إلى معلم ومرّب، من خلال قيامه بالبلاغ والبيان، وبحثه عن الأنصار لإتمام هذه الرسالة، قال تعالى على لسان عيسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٥١، ٥٢].

ولأن التيسير هو ثمرة من ثمار الفقه لدين الله، فقد كانت إحدى بنود رسالة عيسى التيسير، قال تعالى على لسانه: ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [٥٠]. وكما قال سفيان بن عيينة: «إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد». ولهذا كان التشديد قرين الجهل، وثمرته قد تكون كما فعل الخوارج، والتيسير قرين العلم كحال الصحابة رضي الله عنهم.

#### القسم الثاني- عوامل الاصطفاء في سورة «آل عمران» عامة:

من يتأمل سورة آل عمران بعين البصيرة ومجهر التدبر، سيجد أنها سارت في ذات الدرب، حيث أصلت بأسلوبها المعجز لموضوعات كثيرة تتمحور حول الموضوع الرئيسي وهو عوامل الاصطفاء، كأنها تجيب عن سؤال يقول: ما العوامل والخصال التي ينبغي أن أتحلّى بها وأؤديها حتى أكون من الجديرين باصطفاء الله، أو حتى أكون عضواً فاعلاً في ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ٥٩.. الجدير بالذكر أن آية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ... ﴿ في هذه السورة الكريمة: ١١٠؛ وهو ما يؤكد أنها سورة اصطفاء وتربية وتعليم وتأصيل، فما هي إذاً عوامل الاصطفاء في هذه السورة؟

أولاً- الاتصال بالوحي واستمداد هداية السماء:

أوردت «آل عمران» أن الله ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ﴿٣، ٤﴾. فالقرآن مصدق للكتب السابقة: التوراة والإنجيل والزيور ومهمناً عليها، وأطلق عليه الفرقان في تأكيد إنزاله، لأنه يفرق بين الحق والباطل، الخير والشر، الحسن والقبيح، الطاعة والمعصية، كما فعل في مطلع سورة أخرى سماها باسم «الفرقان».

وأكد مطلع السورة مرة ثالثة إنزال الله لهذا الكتاب، وقسمه إلى محكم ومتشابه، فالمحكم هو: الواضح المعنى الذي لا يختلف عالمان في فهمه. أما المتشابه فهو: الذي يحتمل عدة معانٍ وتشابه الأفهام حوله وتتعدد... مشيرة إلى الكيفية التي ينبغي أن يتم بها التعامل مع المتشابه: ٧، مع اختلاف العلماء بالطبع حول دور الراسخين في العلم في فهم المتشابه.

وأوردت السورة مرة ثانية تأكيد القرآن لما جاءت به الكتب السابقة: ٣٠، واحتواء القرآن على قصص السابقين لأخذ الدروس والعبر منها، ولذلك سمي أحداث الأمم السابقة بالآيات: ﴿ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾، إشارة إلى أنها علامات بينات على طريق الهداية، كآيات القرآن وآيات الكون.

وحثت السورة بأساليب متعددة على الالتحام بهذا القرآن واستمداد هداية السماء، من خلال تدبره وتعلمه وتعليمه، قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ فالطريق إلى

الربانية هي الاتصال بكلام الرب عبر فهمه وتعليمه ودراسته.

ودعا الله المسلمين للاعتصام بحبله المتين وهو القرآن، وحذرهم من التفرق، وذكّرهم بنعمة القرآن التي أَلَفَ اللهُ بها بين قلوبهم وصاروا بفضلها إخواناً، وختم الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٠٢].

وأكدت آية أخرى على الدور المركزي للقرآن في الهداية والبيان: ١٣٨. ونلاحظ دقة التعبير القرآني، بتفريقه بين وظيفته نحو عموم الناس وهو البيان، أما الهدى والموعظة فليستا إلا للمتقين، لأنهم هم من سيستفيدون منهما، ومن يستحقونهما.

وحذرت السورة في آيات عدة من الإعراض عن آيات الله، وأشارت إلى العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [٢٣]. والإعراض عن آيات الله هو إعراض عن حاكميته تعالى، وهذا خلل في أصل توحيد الله وطعن بألوهيته، ومناقض للاصطفاء تماماً.

### ثانياً- الإيمان بالله ومداومة الطاعة والمراقبة:

حقيقة الألوهية ضخمة؛ لأنها هي من خلقت هذا الكون بكل من وما فيه، وهي التي تديره وتتصرف به، ولذلك ينبغي أن تتصرف إليه تعالى بكل صور التعظيم والعبادة..

١- أثبتت السورة لله الخلق لهذا الكون وإدارته والتصرف فيه: ٢، ٤ - ٦، ٨، ٩، ٢٦، ٢٧، ٢٩ - ٣١، ١٥٦، ١٨٠، ١٨٩. فهو صاحب الصفات والأفعال المطلقة في هذا الكون لا شريك له في ذلك.

٢- وجوب رد النعم كلها إلى الله بما فيها النصر فهو وحده من يملك

النصر أو الهزيمة، التوفيق أو الخذلان: ١٢٦، ١٣٩، ١٥٠، ١٦٠.

٣- وجوب معرفة صفات الله واستحضار معيته تعالى وعلمه وإحاطته، من أجل مراقبته وتقواه، والنأي بالذات عن المعاصي والكبائر، ومن هذه الآيات: ١٠٢، ١١٥، ٢٠٠.

٤- وجوب طاعة الله ورسوله: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط  
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [٣٢]. مع العلم أن هذه الآية تسبق مباشرة آية الاصطفاء لآل عمران، كأنها تقول بأن الطاعة هي البراق الموصل إلى سماء الاصطفاء. وتكرر التنويه بطاعة الله ورسوله، والتحذير من مخالفتها في مواضع عديدة في السورة، ومن هذه الآيات: ٨١، ١٣٢، ١٧٢.  
وبيئت السورة عواقب المعاصي، ومنها جلب المذلة والهوان لأصحابها، كما فعل بنو إسرائيل: ١١٢.

وعدَّت السورة أن خشية الله من علامات توحيد وطاعته: ١٧٣، ١٧٥، وكذلك التوكل عليه وحده: ١٢٢، ١٥٩، ١٦٠. ولأن التوكل يكون بالاعتماد على الله دون أن يحدث خلل أو تقصير في معاقرة الأسباب، فقد أورد الله عدة أوامر هي من أسباب النصر والتمكين وهي: اللين والعفو والاستغفار والمشاورة في الأمر، ثم أمر بالتوكل: ١٥٩.

٥- الحذر من جحود الرب وآياته، فإنهما يستنزلان عذاب الله وتقمته، وهو العزيز الجبار، ذو الانتقام، ومن هذه الآيات: ٤، ١٩، ٢١، ٢٢. وممن أهلكهم الله بسبب هذا الجحود به وبآياته: آل فرعون والذين من قبلهم والذين قال تعالى عنهم: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١١].

وشعائر الله هي من آياته التي ينبغي تعظيمها، وهذا موضوع العامل القادم من عوامل الاصطفاء.

ثالثاً- تعظيم شعائر الله وإقامة جسور الدعاء معه:

لا يمكن أن يكون من أهل الاصطفاء من لا يعظم شعائر الله أو حرماته، ومن لا يلغي المسافات بينه وبين الله عبر محطات كثيرة، أهمها:

١- الحج وتعظيم الكعبة: قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ ﴿٩٦، ٩٧﴾. والله غني عن العالمين دوماً وأبداً، لكن رحلة الحج ذات مقاصد مرتبطة بالتدرب على تعظيم حقوق الناس، وتذكر مبدأ المساواة بين الجميع، وتذكر الحشر، وغيرها من الثمار التي ترفع الرصيد الإيماني لمن فعل ذلك من أجل الله.

٢- الصلاة: لقد جاءت البشرى لذكريا بيحيى وهو يصلي، قال تعالى: ﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبيّاً من الصالحين ﴿٣٩﴾. ولأن الصلاة صلة بين العبد وربّه، فإنها تلغي المسافات، وتقرب الإنسان من الله، حيث يكون قريباً منه تعالى بقدر خشوعه وذله بين يديه، ومن هنا تكون أهم محطات في الصلاة هما الركوع والسجود، وقد ورد ذكرهما في هذه السورة المباركة. فمن ضمن أربع مرات ورد ذكر «يسجدون» في القرآن، مرة منها في آل عمران، حيث أثنى الله على طائفة من أهل الكتاب ووصف أصحابها بالقيام لتلاوة آيات الله آناء الليل وهم يسجدون: ١١٣. كناية عن الصلاة الخاشعة بين يدي الله..

وأوضحت آية أخرى أن الصلاة كانت من أهم مؤهلات اصطفاء الله لمريم عندما أمرها الله بذلك، قال تعالى: ﴿ يَمْرِيْمُ اقْنُصِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكُعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾، حيث جاء هذا الأمر بعد آية اصطفائها مباشرة.

ونلاحظ هنا كيف تنمي الصلاة الحس الجمعي عند الفرد والإحساس بالانتماء إلى الأمة، فقد قال الله لمريم: ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [٤٣]. فحتى لو صلى المؤمن منفرداً فإن هذا الإحساس لا يفارقه، لأنه يقرأ الفاتحة وكلها نداءات ودعوات لإلغاء المسافات بين الإنسان وربه، وكلها بصيغة الجماعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

٣- الذكر والتسبيح والقنوت: ورد ذكر القنوت في السورة في أكثر من موضع: مرة بالوصف: ١٧، ومرة بالأمر: ٤٣، أما الذكر والتسبيح فقد ورد الأمر بهما في قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [٤١].

٤- الشكر: وهو ثناء على الله خالق النعم كلها ومالكها وواهبها، ما ظهر منها وما بطن، وما ارتبط منها بشؤون المعاش أو المعاد، ولهذا لا بد أن يكون الشكر صفة من صفات عباد الله الذين يطمعون بالاصطفاء ودخول حِمَى «خير أمة أخرجت للناس».

وقد ذكر في مواضع ومقامات عدة، مثل سياق الوصف والجزاء: ١٤٤، ١٤٥، وذكر ضمن صفات الله الحسنی، ١٤٧ التي لا بد أن يتحلى بها المسلم، وجاء أيضاً في سياق الحث والدفع والطلب: ١٢٣، ١٤٧.

٥- الدعاء: سورة آل عمران من أكثر سور القرآن تسجيلاً للدعاء في سياقات متعددة، ففي دعاء الله بالوقاية من النار، ورد هذا الدعاء ثلاث مرات في القرآن كله، مرتان منها في سورة آل عمران، في الآيتين: ١٦، ١٩١. وفي الآية الثامنة ورد على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [٨]. وورد طلب المغفرة من الله والوقاية من النار: ١٦، ودعا نبي الله زكريا ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٨]، وعلى لسان المؤمنين ورد دعاء



بمرافقة الأنبياء يوم القيامة والشهادة لهم بالبلاغ: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا  
أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٥٣].

وأوردت السورة نموذجاً من دعاء المجاهدين في أرض المعركة مع العدو:  
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِينَ ﴾ [١٤٧]، حيث الانشغال بالذنوب حتى في أوقات مواجهة  
العدو؛ لأنها أعدى أعداء الإنسان!!

وفي آخر السورة أوردت صفات «أولي الألباب» التي تتنوع بين التفكير  
والذكر والصلاة والدعاء، وفي الدعاء تتنوع المطالب، لكن المطلب المركزي  
هو غفران الذنوب، وتكفير السيئات والوقاية من النار والوفاة مع الأبرار:  
١٩٤ - ١٩٤.

وهكذا، بتعظيم شعائر الله، وبالإقبال على محطاته؛ يتم التزود بالتقوى،  
وصولاً إلى القنوت والدعاء، والدعوة المستجابة تختصر مسافة مليارات  
السنوات الضوئية في بضع ثوانٍ، حيث الهجرة إلى الله بالدعاء والفرار إليه  
بالحب، فكيف يتم الفرار إلى الله عبر أبواب المحبة؟

رابعاً- الفرار إلى الله عبر أبواب المحبة:

من أرقى أساليب التوجيه في سورة آل عمران إيرادها لعدد من الأصناف  
والذنوب التي لا يحبها الله، مقابل عدد من الأصناف التي يحبها الله، ونشير  
إلى أن القرآن أورد من يحبهم الله ومن لا يحبهم: ٤١ مرة، استحوذت سورة  
آل عمران على ثمانين موضع منها. وبدون أي شرح سنورد الآيات مكتفين  
بمواضع الشاهد من الآيات:

١- من يحبهم الله:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾: ٧٦

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾: ١٣٤

- ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ : ١٤٦

- ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : ١٤٨

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ : ١٥٩.

وبموازاة هذا ذكرت السورة أن من يحب الله عليه اتباع الرسول ﷺ حتى يحبهم الله ويغفر لهم ذنوبهم: ٣١.

٢- من لا يحبهم الله:

- ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ : ٣٢

- ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ : ٥٧

- ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ : ١٤٠.

هؤلاء من أورد الله أنه يحبهم أو لا يحبهم بالنص في سورة آل عمران، وهم الأهم بين من يحبهم وإلا فهو يحب كل المؤمنين، ولا يحب مرتكبي الكبائر لكن هؤلاء هم الأخطر، ونلاحظ أن من يحبهم الله أربعة أصناف، من ضمنهم المحسنين الذين أوردتهم مرتين، أما من لا يحبهم فإنهم صنفان، من ضمنهم الظالمين الذين أوردتهم مرتين، لنستنتج من هذا التصنيف أمرين:

الأول: أن أكثر من يحبهم الله هم المحسنون، والمحسنون من قراءة صفاتهم وأعمالهم في القرآن يتربعون على عرش المؤمنين ويقبعون في الذروة العالية منه، فمن الطبيعي أن يحبهم الله، أما أكثر من لا يحبهم فهم الظالمون، والظلم مغارة سحيقة مظلمة تضم بداخلها كل الأفاعي والعقارب والثعابين وسائر الهوام والزواحف والحشرات السامة والقدرة، فمن الطبيعي أيضاً أن يكونوا أبعد الناس عن الله، مع وجود فوارق نسبية بين أنواع الظلم وصوره.

الآخر: أن من يحبهم الله ضعف من لا يحبهم، وهذا مبدأ تربوي يعلمنا الله إياه وهو استخدام الترغيب أكثر من التهيب، مع أن الأمرين مقترنان، وهذا ما هم عليه وما ينبغي أن يكون عليه من اصطفاهم الله.

وإذا قسنا سائر شعب الإيمان على من يحبهم الله، وقسنا سائر الكبائر على من لا يحبهم الله، سنجد أن كل أمور الإسلام قد دخلت في هذا التوصيف والترتيب.

خامساً- الاستغلال دوماً تحت كنف الإسلام:

الإسلام منظومة متكاملة من العقائد والمبادئ، ومن الشعائر والمناسك، ومن المشاعر والأحاسيس، ومن الشرائع والمعاملات، ومن الأخلاق والآداب، تتوزع جميعها بين الاعتقادات والأقوال والأفعال، ولا بد أن يدخل المسلم إلى الإسلام من أبواب متفرقة، وأن يدعو الله أن يقيه على الصراط المستقيم، لأنه يمكن أن يزل وينحرف أو يسقط بمتعقد أو قول أو فعل فيخرج من مقتضى الإسلام.

هذا الإسلام هو نفسه الدين الخالد في كل الأزمنة والأمكنة، والصالح لكل جيل وقبيل من الناس، من مبتدأ الخليقة إلى مبعث الرحمة المهداة إلى الناس جميعاً، الكل يدين بالإسلام، وهذا ما تقرره سورة «آل عمران» بأوضح ما يكون الوضوح، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [٥٤، ٨٥].

وليس الإسلام دين الصالحين والأنبياء في كل الأزمان فحسب، بل هو أيضاً دين جميع الكائنات في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ أَفَعَبَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [٨٣].

ولما كان الإسلام هو هدية الله ورحمته لسائر الكائنات فإن الكافر يتعرض للعنة الشاملة بسبب كفره: ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ

اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾.

ولأهمية الإسلام، وخطورة الانحراف عنه، وضرورة الثبات عليه دومًا، فقد قرر الله منح الاعتماد والصلاحية لهذا الدين وحده: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١٩﴾. ورفض كل ما عداه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾.

وعلم الله رسوله محمدًا ﷺ كيف يتعامل مع من يحتاج حول أحقية هذا الدين: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾.

وان كل حوار أو مجادلة مع المشركين أو أهل الكتاب، فإن المسلمين يطلقون فيها من حقيقة هذا الدين وزيف كل ما عداه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾. والإسلام بمفهومه الذي أرساه القرآن هو العصمة من العبودية لغير الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾.

لهذا كله، سجلت هذه السورة نداء الله المدوي ووصيته الخالدة، وتحذيره الصارم الشفوق: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾.

لقد اعتنت «آل عمران» أكثر من أي سورة في القرآن بإبراز حقيقة الإسلام كدين واحد في عمر البشر، وكررت التوصيات بالثبات عليه، وحذرت من الانحراف عن صراطه القويم، وقد ذكر بالمناسبة مصطلح «الإسلام» ست مرات في القرآن، مرتان منها في هذه السورة: ٩، ٨٥.

ووردت: «فإن أسلموا» ثلاث مرات في القرآن كلها، منها مرة في آل عمران: ٢٠، و«مسلمًا» ذكرت مرتين في القرآن، مرة منهما في سورة آل عمران: ٦٧، أما «مسلمون» -بالجمع- فقد وردت في القرآن: ١٥ مرة، خمس مرات منها في سورة آل عمران: ٥٢، ٦٤، ٨٠، ٨٤، ١٠٢.

هذا التأكيد للحديث عن الإسلام في هذه السورة، لكي تؤكد أنه قاعدة الانطلاق نحو «خير أمة أخرجت للناس» ونحو الاصطفاء، مع التأكيد على ضرورة الدخول إلى الإسلام من كل أبوابه، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٢٠٨].

ومن المؤكد أن الأخلاق من أهم أبواب الإسلام، وهو أحد عوامل الاصطفاء، بل ومن أهمها، لأنه يدخل ضمن العبادات المتعدية، ولهذا جعلناه عاملاً مستقلاً.

#### سادساً- التحلي بالأخلاق ولا سيما أخلاق أصحاب العزائم:

أوردت هذه السورة عدداً من الأخلاق والقيم في سياق وصف المؤمنين أو الدعوة إليها أو بيان عاقبتها وثوابها، أو التحذير من أضدادها، وأهمها:

١- الصبر: ذكر الله الصبر مراراً في «آل عمران» في مناسبات عدة، ففي مناسبة وعد الله للمتقين بجنات وأزواج مطهرة ورضوان من الله: ١٥، وذكرت الآية بعد الثواب الأسباب الموصلة إليه، من خلال مجموعة من الصفات، بدأها بالدعاء بالمغفرة للذنوب والوقاية من عذاب النار: ١٦، ثم قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [١٧].

وأورد الصبر في مقام الابتلاء والجهاد والتمحيص: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [١٤٢].

وبعد أن تحدثت الآيات عن القتال، وعن أن الآجال محدودة والأنفاس معدودة، وعن ثوابي الدنيا والآخرة، ثم ختم بالحديث عن دخول القتال في أعمال الربانيين الذين لم يَهِنُوا لما أصابهم في سبيل الله، ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وذيل الله هذه الآية ببيان العدة التي تسلح بها هؤلاء المقاتلون الذين لم يهنوا ولم يستكينوا، وهي الصبر، من خلال قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [١٤٦].

٢- التقوى: تكررت التقوى في سورة آل عمران بصورة تلفت النظر، وهل يمكن أن يصطفي الله غير المتقين؟!

لقد وردت مشتقات التقوى في السورة وترددت كثيراً: فلفظ اتقى ورد سبع مرات في القرآن، مرة منها في آل عمران: ٧٦. واتقوا: ورد ١٩ مرة في القرآن ثلاث منها في السورة: ١٥، ١٧٢، ١٩٨. اتقوا (فعل أمر): ورد ٦٩ مرة في القرآن منها ستة مواضع في السورة: ٥٠، ١٠٢، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١، ٢٠٠. وتتقوا: ورد في القرآن ١١ مرة منها خمس مرات في السورة: ٢٨، ١٢٠، ١٢٥، ١٧٩، ١٨٦. وورد لفظ المتقين: ٤٣ مرة في القرآن، أربع مرات منها في آل عمران: ٧٦، ١١٥، ١٣٣، ١٣٨. وورد مشتقان للتقوى لم يردا في القرآن كله إلا في هذه السورة، وهما: تقاة: ٢٨، وتقاته: ١٠٢. وهذا يبين العناية البالغة في السورة بالتقوى، وأهمية التقوى ضمن خصال المصطفين.

٣- الصبر والتقوى (مع بعض): من يقرأ القرآن سيجد أن الصبر والتقوى افترنا مع بعضهما في خمسة مواضع، وسيتفاجأ عندما يلاحظ أن أربعة من هذه المواضع الخمسة هي في سورة آل عمران وحدها، فما هذه المواضع الأربعة؟ وما السر؟

المواضع حسب ترتيب آيات السورة، هي:

- ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [١٢٠]

- ﴿بَلَّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ  
ءَآلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [١٢٥]

- ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٨٦]

- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تَفْلِحُونَ﴾ [٢٠٠]. وهي آخر آية في السورة، كأنها تلخص ما عملت على  
تقريره وزراعته في ثنايا السورة كلها في آية واحدة، ولو تحققت كما ينبغي  
تماماً، فهذا يعني أن كل أهداف السورة قد تحققت.

وقد اقترنت القيمتان مع بعضهما بصورة وثيقة ومحسوبة، ويبدو أن العلة  
مذكورة في إحدى هذه الآيات: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ  
الْأُمُورِ﴾ [١٨٦]. فإن التحلي بالصبر والالتزام بالتقوى في سائر شؤون  
الحياة، لا يستطيع القيام به إلا أهل الإرادات القوية والعزائم الجبارة،  
وبالتالي تكونان أهم رافعة لأصحابهما إلى القمة السامقة التي يتبوأها  
المصطفون والتي اجتهدت سورة «آل عمران» في بيان مواصفات وعوامل  
الاصطفاء، فكأن هذا هو السبب في تركيز آيات الاقتران في سورة آل عمران.

وينتصب الموضوع الخامس كقريئة تؤكد صحة هذا التحليل والتعليل،  
فالموضوع الخامس ورد في سورة يوسف، وعلى لسان يوسف عليه السلام  
نفسه جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ، مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقد قال ذلك لإخوته عندما كشف لهم نفسه  
بعد أن احتفظ بشقيقه، وبعد أن عانى من محن وامتحانات أثبت فيها  
تقواه وصبره حتى وصل إلى وزير في مصر، رغم أنه جاء من فلسطين وبيع  
كالرقيق، بعد أن عُثر عليه في غيابة الجب. فالاصطفاء اختيار واجتباء  
وتمكن، ولذلك قال يوسف لإخوته في ذات الآية السابقة: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ  
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ، مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ...﴾ الآية.

٤- الوفاء بالعهود والمواثيق: ومن أسرار هذا الاهتمام البالغ بالتقوى أنها قيمة تتدخل في سائر شؤون الحياة، فهي أشبه بسلطة رقابية مهمتها أن تدفع الإنسان أمام كل معروف وخير وفريضة للإقدام، وتحته أمام كل منكر وشر ومحرم على الإحجام، ولهذا عرّف بعض السلف التقوى بأنها ألا يفقدك الله حيث أمرك وألا يجدرك حيث نهاك..

ولارتباطها بسائر ثغور هذا الدين وجميع ثغرات هذه الحياة، فقد ورد ذكر حب الله للمتقين في آية: ٧٦، وأتبع الله ذلك بالتحذير الشديد والوعيد المرعب لمن يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً: ٧٧. وتوزع هذا الوعيد على خمس عقوبات شديدة في هذه الآية:

- ﴿لَا خَالِقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: أي لا نصيب لهم من الخير في الآخرة.
- ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: وهو علامة الغضب والمقت.
- ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: لأن من نظر إليه الله رحمه.
- ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: أي لا يفضّل لهم، لأن التزكية هنا بمعنى التطهير.
- ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي الحديث عن «ميثاق النبيين»، وبعد أخذ العهد والميثاق على أهل الكتاب بأنهم سيؤمنون بنبي آخر الزمان وينصرونه، وبعد الإقرار وتأكيد العهد، وبعد شهادة الشاهدين: ٨١، وَسَمَّ اللَّهُ مِنْ سَيَتُولَى وَيُعْرَضُ بِالْفَسْقِ: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٨٢].

وقال عن أمثال هؤلاء في موضع آخر من هذه السورة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [١٨٧]. ونلاحظ أن مواضع الميثاق التي نقضها ونكثها طوائف من أهل الكتاب، تدور حول قضايا جوهرية مرتبطة بالنبوة والكتاب والتعليم والبيان للناس، وليست من



القضايا البسيطة، أولسنا نتحدث عن الاصطفاء؟.. فلا بد أن يتم الالتزام بالمواثيق، باتباع الرسل، والعض بالنواجذ على هداية الكتب السماوية المتجسدة اليوم في القرآن، حتى تكون الطريق سالكة نحو الاصطفاء.

ولما كان من الممكن أن يكون المرء صاحب أخلاق طيبة ونية صادقة، ومع ذلك ينحرف أو يسقط، فإن ذلك لا يحدث إلا بسبب الجهل وخفة العقل، ولهذا لا بد من التسلح بالعلم والفكر.

### سابعاً- التسلح بالعلم والتحصن بالفكر:

العلم هو أمضى سلاح، والعقل المتفكر هو أقوى حصن، ولهذا اعتنى بهما القرآن، واهتمت بهما سورة آل عمران كثيراً، وهل يمكن أن يصطنف الله الجهلة؟!.

١- سلاح العلم: أبرزت السورة قيمة العلم في الإسلام في مواضع كثيرة، مثل تمييزها لموقف من سمّتهم بالراسخين في العلم من الآيات المتشابهات:٧، وكوضع العلماء بعد الله والملائكة في الشهادة له تعالى بأنه الإله الأوحد القائم بالقسط، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١٨].

وأبرزت آية أخرى أهمية العلم من خلال الإشارة إلى دور التعليم والدراسة في الربانية، فقال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [٧٩].

وتبيين القيمة الكبرى والنعمة العظمى في العلم، من خلال تسجيل السورة لمن الله على المؤمنين بهذا الرسول الذي وظيفته الأساسية هي التربية والتعليم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [١٦٤].

ومع هذا التعظيم للعلم، فإن السورة أوردت نماذج من الانحرافات والكبائر التي مورست مع وجود العلم، حيث وردت في سياق الاستنكار أو الاستغراب أو السخرية، وفي كل هذه الحالات فهي تلفت الأنظار إلى إمكانية الانحراف مع وجود العلم، وتحذر من الوقوع في ذلك، ومن هذه الآيات: ٧١، ٧٥، ٧٨، ١٣٥..

ولكن كيف يجتمع العلم والانحراف كالفسق ومعاقرة الكبائر والعبث بكلام الله؟ المسؤول عن ذلك هو أحد أمرين. إما أن يكون علماً بدون إخلاص، فلا يتقي به المرء الله وإنما يحوله إلى أداة لإشباع شهواته ورغائبه، وإما لأن تحصيله كان مجرد تكديس، ولم يحضر العقل فيه إلا بالذاكرة - كما هو الغالب في عصرنا - بينما سائر قوى العقل المفكرة غائبة عن المشهد؛ وهو ما يؤدي إلى عدم إتيانه ثماره، ولهذا كان الفكر شطر العلم وشرطه.

٢- حصن الفكر: إن تحصيل العلم بدون فكر، يعرض صاحبه لصور من انتقام هذا العلم الذي سيكون - حتماً - منقوصاً، وقد يكون مغشوشاً؛ وهو ما يؤدي بصاحبه إلى ارتكاب حماقات، أقلها الدوران مع ظواهر النصوص وسطوح الحوادث، فتكون أحكامه مشوهة ومشوشة، والتقلب مع النصوص الجزئية دون دراية بالمقاصد الكلية؛ وهو ما أظهر نتوءات في الآراء والأفكار والفتاوى لا تتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية.

وحتى لا يقع المؤمن في هذه الوهاد وما هو أشد منها، فإن الفكر هو الحصن، فإنه الذي يُفعل سائر طاقات العقل، ويمهد السبيل أمام صاحبه لإتقان فقه الشريعة وفقه الواقع، ولا يزال يمكنه من الترقى في عالم الفقه - بدائرته العريضة - حتى يصل إلى درجة الحكمة، وهي المنحة الأندر والأثمن في هذا الوجود، ولهذا قال تعالى عنها: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ولهذا ورد في آية امتنان الله على المؤمنين بهذا الرسول ﷺ أن إحدى وظائفه: ﴿ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [١٦٤]، والكتاب هو القرآن، أما الحكمة فيبدو من استقراء الآيات التي وردت فيها الحكمة أنها القدرة على تنزيل النصوص على الوقائع بصورة صحيحة ومثمرة، وتكون السنة - على رأي من قال بأنها الحكمة - داخلة في ذلك لأن أغلبها هو فهم وتنزيل وتأكيد لما جاء في القرآن، وما استقلت به السنة ولم يرد في القرآن هو قليل جداً، إذ أن تخصيص عام القرآن، وتفصيل مجمله، وتفسير مبهمه، وتطبيق حكمه، كل ذلك يدخل ضمن الحكمة وهي ثمرة عمل العقل.

ولاهتمام السورة بعمل العقل، فقد حثت على تدارس القرآن وتدبره وحل مشاكل الأمة به، كما أسلفنا في بيان ذلك في العامل الأول من عوامل الاصطفاء، وأضافت السورة الكثير من المفردات ذات الصلة بعمل العقل كالمحاججات التي ورد فيها، والبرهنة والتدليل والتمثيل، وكذا الحث على إعمال العقل في آيات الله الاجتماعية والتاريخية، مثل قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [١١٨]. كأن الآية في مفهوم المخالفة تقول: إن لم تستفيدوا من هذه الآيات فأنتم لا تعقلون، لأنها بيّنة واضحة!!.

وحث السورة على قراءة الآيات الكونية ببصائر الأبواب: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [١٩٠]، وبيّنت أن أولي الأبواب الذين أعملوا عقولهم فكراً في آيات السماوات والأرض والليل والنهار هم: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [١٩١].

ونلاحظ كيف يدمج التفكير القرآني - من خلال هاتين الآيتين - بين عالم الشهادة وعالم الغيب، بين طاقة العقل وزاد الروح، بين حقائق الدنيا ومشاهد الآخرة، ثم بين الفكر والذكر، وكذا بين الفكر والدعاء، ولا سيما

إذا قرأنا الآيات التالية لهاتين الآيتين.

٣- الاتباع لا التقليد: يتفاوت الناس في العقول والعلوم والملكات، ومن ثم لا بد أن يستفيد المرء ممن هو أعلم منه، ولكن ذلك يجب أن يتم -كما يحث القرآن وهذه السورة خاصة- عبر الاتباع لا عبر التقليد، والفرق بينهما كبير، فالتقليد يتم عبر الثقة والعاطفية أو التعصب في غياب العقل، أما الاتباع فيكون بإعمال العقل، وهذا يتم بمعرفة الدليل الذي اتكأ عليه العالم المتبع. ولذلك لم ترد مفردة التقليد بتاتاً في سورة آل عمران في سياق التعلم، بل الاتباع، حتى بالنسبة للرسول ﷺ نفسه، ولهذا قال له ربه: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَرَبِّي لِيُخْرِجَنِي مِنَ الْبَلَاءِ بِمَا أَتَّبَعْتُ وَمَا كُنْتُ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ [٢٠]. وهي المرة الوحيدة التي استخدم فيها هذا الاشتقاق في القرآن كله، ومثله اشتقاق آخر ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَدُنْكَ مَعْرِفَةً إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٥٣].

وأطلق الله على أمة محمد ﷺ ما يؤيد سيرهم خلف إبراهيم ﷺ على علم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٨]، وحول تعالى في آية أخرى هذا الوصف إلى طلب وأمر: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٥]. وهذا هو ديدن نبي هذه الأمة ورسول البشرية جمعاء الذي جاء لتكريم وتفعيل العقل، حيث طالب أمته باتباعه لا بتقليده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣١]. ومثل ذلك البحث عن رضوان الله، سواء كان المقصود به سبب الرضوان وهو الطاعة في الدنيا، أو نتيجته وثمرته وهو النعيم في الآخرة، فإن السورة تجعل العقل حاضرًا في سائر الأعمال المحققة للرضوان، كما في قوله تعالى: ١٦٢، ١٧٤. والعقل يعمل في مجالات كثيرة، منها قراءة السنن الاجتماعية، وهي ثروة كبيرة، وعاملاً آخر من عوامل استحقاق الاصطفاء والتمكين.

## ثامناً - استثمار سنن الله الاجتماعية:

من أجديات هذا الدين أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن أحداً لا يستطيع أن يسير عكس مشيئة الله، وهذا معلوم للجميع، غير أن ما لا يدركه إلا الفقهاء والمفكرون أن الجزء الأكبر من مشيئة الله هي السنن والقوانين الاجتماعية والكونية، وأنه تعالى عندما يخرقها فلائنه يريد أن يلفت أنظار خلقه إلى أنها لا تفعل وحدها، وأنه هو من يعطيها الفاعلية والتأثير.

إذاً هناك سنن ربانية في الحياة الاجتماعية لا بد من استثمارها في عملية الترقى، ما دمتنا قد اتفقنا بأن عملية الاصطفاء ليست قيمة أخروية فقط بل هي قبل ذلك قيمة دنيوية، فما السنن التي أوردتها سورة «آل عمران»؟

١ - سنة الابتلاء:

هذه السنة تعني أن الله قبل أن يصطفى ويؤمن وينصر لا بد أن يمتحن عباده بالشدائد التي تتنوع بين الحروب والكوارث والأوبئة والمحن المختلفة، لكنها تعني عندما تأتي أن الإنسان يسير في الطريق الصحيح، وأنها ستعلي الدرجات وترفع الفاعلية إن كان المؤمن صادقاً صابراً، وقد أشارت إليها آيات عديدة، منها: ١٤١، ١٤٢، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٦، ١٧٩، ١٨٦.

## ٢ - سنة الإملاء والإمهال:

وتعني ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [١٧٨]، وتشبهها آية أخرى هي: ١٩٧. وهذا الأمر عندما يستقر في روع المؤمن، فإنه يقتلع من قلبه الهالة من الكفار ويعطيه اليقين بأنهم آيلون إلى الزوال والبوار؛ وهو ما يرفع من منسوب فاعليته بدرجة هائلة.

### ٣- سنة الاستدراج:

وهي تشبه آية الإملاء والإمهال، ولكنها تزيد عليها في أن الله قد يغري بعض الكفار بأشياء من عرض الدنيا ليزيدوا في غيهم وضلالهم، بسبب عظم الجرائم التي ارتكبوها، وهذا يعني أن حال هؤلاء أسوأ ممن سبقهم، وإلى هذه السنة أشارت آيات عدة في هذه السورة، منها: ١٧٦، ١٨٠، ١٨٨.

### ٤- سنة النصر للمؤمنين المتزمين:

إن مجرد إطلاق مصطلح الإيمان بمعناه الدقيق، وليس مجرد الإسلام والتصديق، يعني أن من أطلق عليه يستحق النصر والتمكين، لأنه أخذ بكل أسباب النصر المادية والمعنوية، وما دام قد بذل الوسع واستفرغ الطاقة فإن الله يتعهد بنصره، وإن كان أقل عدداً أو عدة من الطرف المقابل، هذه السنة أشارت إليها آيات عدة: ١٢٦، ١٣٩، ١٥٠، ١٦٠.

وفي المقابل، فإن السورة أبرزت دور الضعف الداخلي -الذي تحدثه المعاصي- في إيقاع الهزيمة بالمسلمين ولو كانوا صحابة، كما حدث يوم أحد عندما هُزم جيش المسلمين وفيه محمد ﷺ وكبار الصحابة، لكن الله أراد أن يلفت أنظار المسلمين إلى سننه التي لا تحابي أحداً، فعندما يتسلل الوهن إلى نفوس المسلمين وصفوفهم فإن الهزيمة ستكون حتمية، ولهذا سجل الله هذا الحدث والتساؤل المفزع الذي أنتجته صاعقة الهزيمة، وبين السبب حتى يتربى المسلمون عملياً بهذا الحادث إلى قيام الساعة، قال تعالى:

﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١٦٥].

### ٥- سنة المداولة:

تتبنى هذه السنة على ما سبقها، فمن استثمر السنن أكثر سينتصر، ومن قصر أو أهمل فسيجني الخسارة، ولهذا فإن الحياة مداولة بين الحق والباطل، فقد انتصر المسلمون في بدر وانهزموا في أحد، قال تعالى:

﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فَزَعٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَزَعٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا  
 بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ  
 الظَّالِمِينَ ﴾ [١٤٠].

وبالقراءة الدقيقة لأسباب الهزيمة واستكمال عوامل النصر، يمكن أن تصبح الهزيمة المحدودة في موقعة ما نصراً (استراتيجياً) تكون له آثاره العميقة، مثلما حدث للصحابة بعد أحد، فقد خاضوا عشرات المعارك مع الرسول ﷺ ومع خلفائه الراشدين من بعده في جبهات الشام والعراق وبلاد فارس ومصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى وغيرها، ولم يُهزموا إلا في عدد يسير من المعارك لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة وكلها معارك صغيرة، أما المعارك المفصلية والكبيرة فقد كسبها جميعاً كفتح مكة واليرموك والقادسية وغيرها من المعارك التي غيرت وجه التاريخ.

وبسبب الأهمية البالغة لهذه السنن في إحداث النصر والتمكين، ومع أنها حاضرة وتعمل دائماً مثل سنن الله الكونية، إلا أنها بحاجة إلى تأمل وبحث ودراسة، حيث تبرز للمتأمل في أحداث التاريخ، ولهذا أمر القرآن بالسير في الأرض لمشاهدة كيف تعمل هذه السنن حتى تتم الاستفادة منها، لتصبح عامل بناء لا معول هدم، وهذا ما يوصلنا إلى عامل آخر من عوامل الاصطفاء، وهو الاستفادة من قصص السابقين.

#### تاسعاً- الاستفادة من قصص السابقين:

لنبدأ من حيث انتهينا، حيث أكدنا على ضرورة الاستفادة من السنن الاجتماعية والتاريخية حتى لا تصبح معول هدم، فكيف تصبح كذلك؟ عندما تسير جهود الإنسان عكس اتجاه أي سنة من هذه السنن فإنها ستصطدم بها وتصير معول هدم في صرح هذه الجهود، ولذلك لا بد من قراءة التاريخ فهو منجم ضخم لهذه السنن ودراسة كافة العوامل السلبية والإيجابية:

١- الاستفادة الإيجابية: ما نقوم به في هذا المقام من بحث عن عوامل الاصطفاء في «آل عمران» هو استفادة إيجابية من حدث تاريخي، لأننا نحلل كل التفاصيل لنكتشف عوامل القوة التي جعلت «آل عمران» أهلاً للاصطفاء، ومع اختلاف التفاصيل والظروف والعناوين والوسائل إلا أن التاريخ يكرر نفسه - كما يقولون- من جهة وجود هذه العوامل الكبيرة والسنن العريضة التي تختفي تحت ركام الجزئيات والتفاصيل، لكنها مشاركة بقوة في صناعة: النصر أو الهزيمة، القوة أو الضعف، التقدم أو التقهقر، العلو أو السقوط.

ومن هنا تكون الاستفادة الإيجابية في دراسة عوامل القوة، وأسباب النصر، وظروف التقدم في أي تجربة تاريخية لتنمية مثيلاتها في مشروع اليوم، مع مراعاة الأمور التي تتغير بتغير الزمان والمكان والناس والعوائد والأعراف، فإن هذه الأمور تستدعي تغير الفتوى فكيف بتجربة حضارية مليئة بالتفاصيل والوسائل والأساليب المختلفة باختلاف الزمان والمكان؟

لقد وصل الحال بسورة آل عمران إلى حد مطالبتها المسلمين بالاستفادة من سنة خارقة، أي ليست سنة جارية مرتبطة بجهد الناس، وإنما هي معجزة ربانية حدثت يوم بدر، والشاهد أن الله بعد أن سجل الحادثة طلب من أولي الأبصار الاعتبار بها.. قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتَيْنِ اتَّقَاتَا فَمَثَقَرَتْهُ فِي سَكِينِ اللَّهِ وَأُخْرِي كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى أَعْيُنٌ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [١٣].

ورغم أنها خارقة فإن أعمال البصيرة بظروف مجيئها تلفت الأنظار إلى استكمال المسلمين الأخذ بالسنن الجارية والأسباب المادية والمعنوية، ومع ذلك بقي ميزان القوة لصالح المشركين، فهنا يأتي التدخل الرباني الذي يعد جزءاً من سنة النصر للمؤمنين كما أسلفنا.



٢- الاستفادة السلبية: وتعني أن قراءة قصص السابقين وأكثرهم مارسوا الكنود والجحود، والتكذيب والطفیان، وقارفوا الفساد والاستبداد، فتعرضوا للإهلاك، سواء عبر السنن الجارية المتدرجة أو السنن الخارقة السريعة، هذه القراءة ستؤدي إلى مشاهدة الثغرات والفجوات، ومعرفة عوامل الضعف وأسباب السقوط، مقدمات الانحطاط وأسباب العذاب، فلماذا هذا كله؟ للاعتبار والاتعاظ، لأنها قوانين وسنن ربانية لا تتبدل ولا تتغير، فإن حدوث العذاب أو السقوط لأمة ما هو نتيجة لأسباب وعوامل أحدثها الإنسان، وإن حضور هذه العوامل والأسباب في أي زمن أو مكان آخر ستؤدي إلى نفس النتائج، باستثناء نزول العذاب الاستصالي، فإنه من الأمور القليلة التي استثنيت منها هذه الأمة، ليس لسواد عيونها، ولكن لأنها الأمة الخاتمة، ولأنها لا تخلو من طائفة صالحة تمنع موجبات نزول العذاب الاستصالي كالاستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممارسة صور من الإصلاح.

ومما يجب تجنبه في هذا السياق مما ورد في سورة آل عمران:

- عوامل الإعراض والتكذيب والاستكبار التي استدعت العذاب، ولا سيما ما يرتبط بعِلل التدين عند أهل الكتاب، وقد وردت في آيات عدة مثل: ٢٤، ٧٠، ٧١، ٧٨، ٩٣، ٩٤، ٩٩، ١١٢، ١٨١ - ١٨٤، ١٨٧.

- الحذر من الفكر الجبري الذي كان دائماً معلماً من معالم الانحراف والنفاق، سواء عند أهل الكتاب والمشرّكين أو عند منافقي المسلمين، وله آثاره السلبية الفادحة على حياة المسلمين، اقرأ مثلاً: ١٥٤، ١٥٦، ١٦٨ من هذه السورة.

وما دمنّا قد تحدثنا عن استفادة إيجابية وأخرى سلبية، فهذا يعني أنه لا توجد تجربة أو حضارة أو أمة على صلاح كامل أو فساد خالص، وهذا ينقلنا إلى الموضوعية وعدم التعميم كعامل جديد من العوامل المطلوبة لاستحقاق الاصطفاء.

عاشراً: الموضوعية وعدم التعميم:

الموضوعية هي النظر إلى الموضوع أو القول أو الفكر دون صاحبه حتى تظل الرؤية منصفة ولا تعميها عواطف الحب أو الكره، مع ما يتطلبه ذلك من عدل وإدراك الأمور النسبية وملاحظة الفروق الفردية والبعد عن الشخصنة، أما التعميم فهو أمر واضح.

١- عدم التعميم: في حديث سورة آل عمران عن أهل الكتاب، ومع فضحها لانحرافاتهم، ولؤامراتهم ضد المسلمين، إلا أنها أقرت بوجود فوارق بينهم، حيث أكدت أنهم «ليسوا سواء» قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣].

واستخدمت السورة في الحديث عنهم ألفاظاً ترفض التسوية والتعميم، مثل: ﴿مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١١٠]، وكذلك: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِذَا تَأَمَّنَهُ بِنظَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنٌ إِذَا تَأَمَّنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥]، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٨].

وحتى لا يكون هذا الأمر محل ريبه أحد فإن الله يؤكد بمؤكدين لفظيين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَاثَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٩٩].

٢- العدل: من صفات الله تعالى قيامه بالقسط في كل شيء، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨]، وما أنزل الله الكتاب والآيات إلا من أجل

تحقيق العدل وإقامة موازينه بين الناس: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [١٠٨]، وما شرع الثواب والعقاب إلا من أجل أن يستوي الناس حقوقهم: ٥٧، وأوجد القيامة للحساب حيث يأخذ الله حق المظلوم ويقتص من الظالم: ٢٥، ١٦١، وكل عقوبة دنيوية أو أخروية تحيق بالناس فهي نتيجة ظلمهم، أما الله فلا يظلم أحداً: ١١٧، ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [١٤٠]، ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [١٨٢]. وكرهه تعالى للظلم فإنه ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٨٦].

إذن.. العدل من صفات الله التي انعكست على قيم هذا الدين وتعاليمه التي تطالب المسلمين بأن يكونوا أهل عدل في أقوالهم وأفعالهم، وأن يؤديوا الأمانات إلى أهلها والحقوق إلى أصحابها، وأن يتخلقوا بأخلاق الله، ويدركوا بأن مثقال الذرة محسوب لهم أو عليهم.

٣- عدم الشخصانية: الموضوعية تقتضي النظر إلى الموضوع والدوران مع الفكرة والموضوع لا مع الشخص، وهذه قيمة أخرى ترسيها سورة آل عمران. ففي سياق الحديث عن علل التدين عند أهل الكتاب أشارت إلى هذه الشخصانية التي تسببت في تفرقهم وظلم بعضهم لبعض، قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [١٩]، فجملة: «بغياً بينهم» تشير إلى هذه الشخصانية لأنهم علماء، وتكمن المشكلة في التنافس الشخصي وحضور الحسد والأحقاد الشخصية، ولأن هذه الآية هي رسالة للمسلمين، فقد بدأ مطلعها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَلْإِسْلَامِ ﴾ [١٩]، وختمها بتحذير شديد: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [١٩]، وهي إشارة إلى أن عقوبة الشخصانية معجلة في الدنيا، بحدوث التفرق وحضور التشطي اللذين يذهبان الهيبة ويجلبان الأعداء!.

وحذر تعالى من هذه الآفة مرة أخرى بصورة أكثر وضوحاً في قوله تعالى:  
 ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ  
 عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ  
 الشَّاكِرِينَ ﴾ [١٤٤].

٤- النسبية والتفاوت: التعميم يكون بين الخير والشر، لكن النسبية تدخل  
 إلى الخير فتبرز الفروق في الإحسان، وتدخل إلى الشر فتبرز الفروق في  
 الإساءة، ومن الطبيعي أن فروق الأعمال تقتضي فروقاً في الجزاء، سواء  
 كان ثواباً أو عقاباً. وإلى هذه القيمة أشار تعالى بقوله: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ  
 اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٦٣]. وهذا لا شك يدفع الناس إلى التسابق  
 على أعمال الخير.

#### حادي عشر: المسارعة في الخيرات ومساعدة الخلق:

لما كانت «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على  
 المشاححة» كما يقول الأصوليون، فإن التركيز الشديد في إدراك الفروق  
 يكون في حقوق الناس أكثر من حقوق الله، وهذا يستدعي حساسية شديدة  
 في التعامل مع حرمان الناس وحقوقهم، ويتطلب مسارعة في أعمال الخير  
 التي تخدم الخلق وترضي الخالق.

١- المسابقة والمسارعة في أعمال الخير وخدمة الخلق: وصف الله صنفاً  
 من أهل الكتاب بأفضل وصف، فقال: ﴿ يَوْمُنُورٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ  
 مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١١٤]، ولأن الجزاء من جنس العمل، فإن ضخامة العمل  
 تستوجب ضخامة الأجر، ولذلك عقب الله على المسارعة في الخيرات لهؤلاء  
 بقوله: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾  
 [١١٥]. وحتى لا يظن المسلمون أن ذلك الحديث عن أهل الكتاب لا يعينهم

خصهم بالأمر المباشر الواضح، فقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣].

٢- إتيان الأوامر وأولها الإنفاق:

نبدأ من حيث انتهينا في النقطة السابقة، فإن الله عندما أمر بالمسارعة إلى مغفرة الرب وجنة عرضها السماوات والأرض، وأخبر أنها أعدت للمتقين، بينت الآية التي بعدها الظلال العملية للتقوى التي تستوجب هذه الجنة فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٣٤].

فإذا كانت التقوى أن يجدهك الله حيث أمرك ولا يجدهك حيث نهاك، فإن أول ما ينبغي أن يحضر فيه المؤمن من المأمورات هو الإنفاق، لأن المال عصب الحياة ولأن القضاء على كثير من المشاكل داخل المجتمع يكون بالمال، ثم تأتي سائر الأمور الأخرى. ولأهمية الإنفاق، قال تعالى: ﴿ لَن نَّأْلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [٩٢]. والبر هو الإحسان وكمال الخير، ويُطلق في بعض الأحيان كعنوان لجميع حقوق الإنسان، كأنه يقول: إن خدمة حقوق الإنسان بدون مال لا يمكن أن تتم على الوجه الأمثل.

٣- اجتناب المنهيات وأولها الربا:

إن اتقاء الله الذي يقتضي مد يد المساعدة المالية للمحتاجين، من باب أولى أن يمنع مد اليد إلى جيوب الآخرين لأخذ أموالهم بغير حق، ومن أكثر طرق الحصول على المال الحرام: الربا، ولذلك خصه بالذكر في هذه السورة: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١٣٠].

ومن المعلوم أن الإسلام في طلبه مد يد المساعدة للآخرين لا يقتصر

على الأمور المادية بل تعداها إلى الأمور المعنوية كالنصيحة والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا مضمون العامل القادم.

### ثاني عشر- الجهاد الدعوي والقتالي:

من يقرأ آيات الجهاد يكتشف بدون لبس أن الجهاد أوسع بكثير من القتال، وأن القتال ما هو إلا الصورة الأخيرة من الجهاد التي ينطبق عليها المثل العربي القائل: «آخر الدواء الكي»!

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هو أول صورة من صور الجهاد، وأكثرها شيوعاً، وأعمقها تأثيراً، وأكثرها ديمومة، ولهذا تناولته السورة في عدد من آياتها.

وما دمننا نتحدث عن الاصطفاء، فإن خيرية هذه الأمة هي ترجمة لهذا الاصطفاء، لكنه اصطفاء جماعي ضخم، وهو مرتبط بمؤهلات، أهمها ما نحن بصده في هذه الفقرة، ولذلك قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [١١٠]. وفي الآية التي أوردناها من قبل حول الثناء على طائفة «أمة» من أهل الكتاب، ذكر من صفات هذا الثناء: ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [١١٤]، ولهذا أوجب الله قيام هذه الطائفة عند المسلمين حتى يستمروا خير أمة، فقال تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١٠٤].

### ٢- القتال:

القتال في الإسلام هو للدفاع عن العرض والأرض والمقدسات، وعن الثقافة والمصالح، وهو كذلك لتحرير المستضعفين ورفع الفتنة عنهم، فهو إذاً خادم لحقوق الإنسان، أي أنه عبادة متعدية، ولهذا جعله الله ذروة سنام الإسلام، ولاسيما أن الإنسان يدفع فيه أعلى ما يملك وهو النفس والمال،

ووعده الله عليه بالأجور العظيمة: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [١٥٧]. فالمت في سبيل الله هو إحياء لأنفس كثيرة، وقد يكون إحياء لشعب بكامله أو أمة بكاملها، وهذا سبب آخر لتعظيم أجور المقاتلين والشهداء، ولذلك عدَّهم القرآن أحياء: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [١٦٩] فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ [١٦٩، ١٧٠]. هذه الحياة للشهداء هي من عدل الله الذي جعل الجزاء من جنس العمل، فقد وهب الشهداء حياتهم فداء لحياة الآخرين فأحياهم الله عنده حياة أفضل مما كانت لديهم في الدنيا، إضافة إلى أجور أخرى كما أشارت إلى بعضها الآية ١٩٥ من هذه السورة.

ولخطورة وظيفه الجهاد، ولوعورة طريقه، ولعظم أجره، فقد كان وصية الله للمؤمنين في مسك هذه السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٠٠].

### ٣- خطورة الحرب المعنوية:

أشارت هذه السورة إلى خطورة الحرب المعنوية، حيث أصبحت في هذا العصر من أخطر أسلحة الفرقاء المتحاربين، بل وكل شعب صار يمتلك جهازاً خاصاً بالحرب النفسية والإعلامية لإنزال الهزيمة الداخلية بأعدائه. ووردت هذه الإشارة من خلال الحديث عن سلاح لجأ إليه اليهود لإضعاف معنويات المسلمين وهو إعلان الإسلام ثم الارتداد، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٧٢].

واستخدم القرآن هذا السلاح المرعب لدعم المسلمين وإنزال الرعب بأعدائهم: ١٥١، ومدح الله المؤمنين الذين ثبتوا أمام هذا السلاح بعد غزوة

الأحزاب، وكان سلاحهم المقابل في التصدي لهذا السلاح هو الاستعانة بالله: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَرِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [١٧٣].

وما دمننا قد تحدثنا عن الجهاد القتالي، فهل الإسلام شرعه لإكراه الآخرين على اعتناقه؟ هذا ما سنجيب عليه في العامل الجديد من عوامل الاصطفاء.

### ثالث عشر- احترام حرية الآخرين مع إقامة الحجة عليهم:

من قراءة آيات القرآن -كهذه السورة- يبدو واضحاً احترام الإسلام لحرية الآخرين، ولو كان في ذلك البقاء على الكفر، لكن ذلك لا يعني الرضى عن الكفار وإقرارهم على ما هم عليه من كفر، بل الواجب هو البلاغ والبيان والمحااجة والبرهنة، فإن أبوا إلا الكفر فإنهم يتحملون مسؤولية اختيارهم، وبتعايش معهم على أساس أن الآخرة هي التي ستفصل بين الجميع، حيث سيجد المؤمنون ثوابهم، وسيجد الكافرون عقابهم.

#### ١- احترام حرية الآخرين:

أبرزت السورة أهمية الإسلام وعظمته والدعوة إليه، والحث على التزام تعاليمه، وحذرت من الكفر وعواقبه، وحاججت الكافرين ودعت لدعوتهم، لكنها أبداً لم تطلب من المسلمين إكراه الآخرين على اعتناق الإسلام، بل اكتفت بحثهم على البلاغ والبيان، ثم حملت المعارضين مسؤولية التولي، وجعلت هذه المسؤولية بينهم وبين الله، ومعظمها عقوبات أخروية، وتأمل معي أيها القارئ الكريم هذه الآيات:

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ ﴾ [٢٠]

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ [٣٢]

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [٦٣]



- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤]
- ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٨٢]
- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [١٢٨].

وعلى كثرة الآيات التي توعدت الكافرين في هذه السورة، فليس من بينها أي آية تفوض الرسول أو المؤمنين بمعاينة الكافرين، بل تكل العقاب كله إلى الله في الآخرة، مثل الآيات: ٨٦ - ٩١، ٢١، ٢٢.

وهكذا، فإن السورة تطالب المسلمين بالوقوف عند حدود البلاغ والبيان، ولا تسمح لهم بتجاوز ذلك، وتكل أمر الكفار إلى الله.

## ٢- المحاوراة والمجادلة والمباهلة:

إن احترام حرية الآخرين لا يعني إقرار كفرهم أو الرضى به، فالمسلم يدعو إلى الإسلام ويحرص على هداية الآخرين، ويجادلهم بالتي هي أحسن.

وقد سلكت السورة دروب المحاجة العقلانية في سياق مجادلة أهل الكتاب وتعليم المسلمين كيف يصنعون مع هؤلاء، مثلما ورد في الآيات: ٦٥- ٦٨، ٩٨، ٩٩. وقبلها كان الله تعالى قد لقن نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤].

وإذا لم تنفع المحاجة العقلية، واتباع الآخرون سبيل المغالطة، فقد دعا الإسلام إلى المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [٦١]. وهكذا، فإن دعوة هؤلاء

إلى الإسلام تكون عبر الحوار المليء بالحجج العقلية والبراهين الدامغة، ويمكن اللجوء إلى المباهلة كما فعل الرسول ﷺ مع نصارى نجران، لكن القتال لا يمكن أن يكون سبيلاً لنشر الإسلام، وقد أشرنا إلى وظائف الجهاد من قبل، وليس من بينها نشر الإسلام.

### ٣- الولاء والبراء:

المسلم مطالب بالتعامل مع الآخر بالقسط، وأن يمد له يد المساعدة والإحسان، وأن تكون سائر معاملاته معه حسنة، ويدعوه بالتالي هي أحسن، ويراعي الفروق الفردية بين غير المسلمين، لكنه ينبغي أن يحذر من مؤامراتهم ومكائدهم (بعضهم أو أغلبهم)، ويحذر من حمل الود لهم أو الرضى بفكرهم المنحرف وسلوكياتهم الفاسدة، وينبغي أن تتجه طاقة الحب والولاء والود والنصرة نحو إخوانه المسلمين، هذا ما تحث عليه آيات من سورة آل عمران في هذا السياق، مثل: ٢٨، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ١٠٠، ١١٨، ١٢٠، ١٤٩.

### رابع عشر- الائتلاف بين مكونات المسلمين وإشاعة الحس الجمعي بينهم:

إن ائتلاف المسلمين فريضة وضرورة، وهذا ما تحث عليه آل عمران، ويبدو أن ذلك يتم من خلال عدة أمور أوردتها هذه السورة، أهمها:

#### ١- الاعتصام بحبل الله:

الإسلام يدفع أبناءه للسير على الصراط المستقيم، ولو فعلوا ذلك فإنهم حينئذ يكونون متوحدين، ولكن ما هو معيار السير على الصراط المستقيم؟ توفر السورة الجواب، وتقول: إنه الاعتصام بالله ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [١٠١]. ويكون الاعتصام بالله عبر الاعتصام بحبله المتين، وهو ما أمر به وفرضه: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ  
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾. ونلاحظ أن تأليف الله يكون بين القلوب  
حتى لا تتناكر وتتباغض، أما العقول فمن الطبيعي أن تختلف لكنه الخلاف  
الذي لا يفسد للود قضية. ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ  
قال: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». ثم  
حذر من الفرقة ونهى عنها وجرمها: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٠٥]. وأعطى درسا  
بليغا على عواقب الفرقة، وهو ما حدث في غزوة أحد، عندما انسحب الرماة  
من أماكنهم وعصوا الرسول الذي حذرهم من التحرك من أماكنهم ولو  
تخطفتهم الطير: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ  
مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبُوتُونَ ﴾ [١٥٢]. عندها هُزم جيش الصحابة  
واستشهد سبعون من خيرة من عرفهم تاريخ البشر.

## ٢- الشورى والاشترار الوجداني:

من أجل حدوث الائتلاف واستمراره لا بد من تسييد قيم الشورى واللين  
والرحمة والعمو والاستغفار. وقد أرست «آل عمران» هذه القيمة العظيمة،  
وأبرزتها من عمق هزيمة أحد، وفي وسط كمية من الدروس الثمينة التي  
تولت تقوية قواعد ولبنات جماعة الاصطفاء، في الطريق لإقامة «خير أمة»..  
قال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا  
مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى  
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [١٥٩].

## ٣- إشاعة الحس الجمعي:

سعت هذه السورة مثل كل سور القرآن لبناء الجسم الواحد لهذه الأمة،

حيث بدأت بالوجدان، من خلال غرس الإحساس بالانتماء إلى جماعة أو أمة واحدة، ولذلك ورد الحديث عن المسلمين والصالحين مراراً كجماعة واحدة.

وبجانب الولاء والبراء، وقيم الاشتراك الوجداني تنتعش مشاعر الحس الجمعي، ومن هنا جاء الأمر من الله لمريم العذراء بأن تركع مع الراكعين.

#### ٤- الحذر من الشيطان:

أوردت السورة أن أحد عوامل هزيمة أحد هو فرار بعض المسلمين، وأن الشيطان كان له دور في ذلك الفرار، لكنه لم يتمكن من هذا النجاح إلا بسبب ذنوب أولئك الفارين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [١٥٥]. وأظهرت أن من طبائع الشيطان التخويف: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١٧٥]. وكذا فإن من أبرز وظائفه البديهية: التحريش والتمزيق، ولهذا فإن استمرار الوحدة والحس الجمعي يحتاج للتنبه على مكائد الشيطان؛ ولذلك أعادت زوجة عمران مريم من الشيطان: ٣٦، حتى تكون لبنة صالحة في جدار المسلمين الصالحين. ونختم بآية تبين دور الشيطان في التحريش والتمزيق وردت في سورة أخرى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

#### خامس عشر- عمارة الدنيا لا عبادتها:

نبدأ هذه الفقرة من حيث انتهينا في الفقرة السابقة، فعند حديث السورة عن أسباب هزيمة أحد، ذكرت الفرقة، وما وجدت الفرقة إلا كان حب الدنيا أحد أهم أسبابها، ولذلك ورد اقتران الأمرين ضمن أسباب

الهزيمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ﴾ [١٥٢].

لقد أبرزت هذه السورة الدنيا بمباهجها وزينتها وما فيها من نساء، وبنين، وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة، والخيال المسومة، والأنعام، والحرث، فجمعت كل متاع الدنيا في آية واحدة، ومع إشارة مطلع الآية إلى أن هذه الأمور من الزينة الطبيعية للدنيا إلا أنها أكدت أن الله عنده حسن المآب: ١٤.

ولما كانت الآخرة خيراً للإنسان من الأولى، أتبع الله الآية السابقة بقوله: ﴿قُلْ أُوْنِيْعِكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۗ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۚ﴾ [١٥]، ومثلها الآية: ١٨٥ من هذه السورة. وبينت السورة أن الدنيا والآخرة متاحتان لمن يريدهما: ١٤٥، لكن الشهادة وحدها في سبيل الله هي خير مما يجمعون: ١٥٧.

وبعد أن تُدرب السورة قارئها على إخراج الدنيا من قلوبهم وإبقائها في أيديهم، تبدأ بتحريم الحصول على الأموال بدون جهود مكافئة أو الاستيلاء على أموال الآخرين بدون وجه حق، كالرِّبا: ١٣٠، والاستيلاء على الغنائم بدون وجه حق: ١٦١.

#### سادس عشر- إشاعة ثقافة التوبة والنقد الذاتي:

لا بد أن تكون لأهل الاصطفاء محطات للمراجعة والمحاسبة، وممارسة كافة صور النقد الذاتي، انطلاقاً من أن الهزيمة لا يمكن أن تحيق بالمؤمنين ما لم تكن القابلية الداخلية موجودة في أنفسهم، كما حدث لأصحاب أحد ﴿قُلْنَا أَنَّىٰ هَٰذَا قُلُّ هُوَ مِمَّنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۚ﴾ [١٦٥].

ولأهمية هذا الأمر، أكثرت السورة من الحديث عن التوبة ووجهها الآخر: المغفرة. لقد قررت السورة أن التوبة من حقوق العباد: ١٢٨، وأن التوبة والإصلاح يطهران كل الخطايا بما فيها الكفر: ٨٩، وأن الله يتوب على من يعملون السوء بجهالة ويعجلون بالتوبة ولا يصرون على اقرار الذنوب: ١٧، ١٨، وذكرت أن الله يتوب على من يستغفر لهم الرسول: ٦٤، وأن الكفارات المفروضة على بعض الذنوب هي صورة من صور التوبة: ٩.

أما عن الوجه الآخر للتوبة وهو الاستغفار، فقد وردت مشتقاته بكثافة في السورة، كنوع من الحث على التوبة وطلب المغفرة من الله، الذي وصف نفسه بأنه غفور رحيم: ٣١، ١٢٩، ١٨٩، ١٥٥. وحث على طلب المغفرة: ١٣٣، ١٣٦، ١٥٧. ووصف المؤمنين بـ «المستغفرين»: ١٧. وهذا الوصف لم يرد إلا مرة واحدة في القرآن كله، وهو في هذه السورة العظيمة، كأنها تريد أن تقول: إن التوبة علامة فارقة، ووصفة لصيقة بمن يريدون التأهل للاصطفاء، والانتظام في مقدمة ركب «خير أمة أخرجت للناس».

هذه هي عوامل الاصطفاء كما أوردتها سورة آل عمران، وهي ذات العوامل التي أوجدت «خير أمة أخرجت للناس»، ونحب أن نذكر في الأخير بأن للاصطفاء مستويين:

المستوى الأول: المستوى المثالي الذي يضم أصحابه الصفات والخلال التي أوردتها العوامل المستنبطة من «آل عمران».

المستوى الثاني: ويضم فروقاً فردية عديدة في إطار دائرة الاصطفاء الواسعة والمذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

## فاعلية (الحديد) في صناعة الحياة!

سورة «الحديد» مدنية وآياتها ٢٩، نزلت بعد الزلزلة وترتيبها الثامن بين السور المدنية أي أن ترتيبها الكلي: ٩٤، أما ترتيبها المحض فهو سبع وخمسون.

سميت هذه السورة باسم «الحديد» لورود اسم هذا المعدن القوي فيها في الآية الخامسة والعشرين. ويبدو من تدبر هذه السورة أنها أوجدت كافة العناصر المطلوبة لبناء الإنسان (الحديدي) الذي يعرف دوره في الحياة، ولا يهوي أمام الأهواء أو يسقط أمام رياح الفتن وأعاصير الأعداء، ومن مثل هذا الفرد يتكون المجتمع (الحديدي) المسلم بذراته المتقاربة وجزئياته المتحدة، المجتمع الذي يمتاز بقوة «الحديد» في صناعة الحياة، ويسعى لإيصال رسالته إلى العالم أجمع بصلابة الحديد الذي تتقارب جزئياته ولا توجد بينها فراغات، ويصبح وزنه كبيراً رغم أن حجم الكيلوجرام منه أصغر من ذات الوزن في أي عنصر آخر، وهذا حال مجتمع سورة «الحديد»، حيث أرادت السورة أن يكون وزن المسلمين كبيراً وقوتهم أكبر من أعدادهم وعُددهم بكثير، وهي ما نسميها بالفاعلية.

إذن، هذه السورة، تحدثت عن جملة من العوامل التي تمنح الملتزمين بها الفاعلية في صناعة الحياة، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً- الانتماء إلى تيار الكون العبادي السابح والمسبح:

افتتح الله هذه السورة بالحديث عن هذا التيار الكوني الهائل الذي يسير منسجماً في عبادة الله تعالى، بتسبيحه وتزيهه عن كل نقص، ووصفه بكل كمال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١]. ويدخل في هذا المحراب الكوني الضخم بجانب سائر الكائنات الحية من ملائكة وجن وحيوانات وطيور وكائنات بحرية، سائر الشجر والحجر والنجوم والكواكب والجبال والبحار والسهول والأودية والفضاءات كلها، حيث تدخل الجمادات

في هذا التيار العبادي لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن «ما» تُستخدم لغير العاقل.

كل هذه الكائنات تتجه بالتسبيح إلى الله المستحق للعبادة والتعظيم والتزويه فهو «العزيز الحكيم»، والإنسان عندما ينتمي إلى هذا التيار الكوني الهائل لا يشعر بالغربة والوحدة أو بالضعف والهوان مهما كان عدد الكافرين من البشر كبيراً، لأنهم يظنون أقلية بجانب هذا التيار الكوني الهادر، ومن ثم فإن شعور الإنسان بالانتماء إلى هذا التيار وقيامه بواجبات العبودية، يمنحه العزة والحكمة، حيث يستمد هاتين الصفتين من ربه المتصف بهما الذي يعزه مقابل ذله بين يديه، ويمنحه الحكمة مقابل اجتهاده في فهم آياته، وجهاده في استيعاب خلافته واستعمار أرضه. وإذا صار المرء عزيزاً حكيماً، فإن فاعليته في صناعة الحياة تتسع أفقياً وتزداد كمياً، وتتضاعف نوعياً بالعلم والإخلاص وتحري المواسم.

ويدفعه شعوره بالانتماء إلى هذا التيار الضخم إلى المنافسة والمسابقة في عبودية الله في محراب الكون، وهذا ما أوصت به السورة أيضاً، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٢١].

#### ثانياً- العيش دوماً تحت رقابة الله الصارمة:

اهتمت السورة بمسألة وحدانية الله في الخلق والرزق والإحياء والإماتة (الربوبية)، وفي وجوب الطاعة والعبادة والخضوع والاستسلام، لكنها أبرزت بصورة أكبر صفات الله الحسنى ولا سيما ذات الصلة بعلمه تعالى وإحاطته بكل شيء وإطلاعه على كل أمر ورؤيته لكل شيء؛ وهو ما يزرع في قلب المؤمن الطمأنينة لشعوره بمعية الله، ويزرع بشكل أكبر تقوى الله، حيث يشعر برقابته في كل أمر، ويحس به يرافقه في كل حركة، ويسمع كل قول



له ونجوى، بل ويعلم كل هَمّ وتفكير، فيفزع من الله فأرًا إليه، بالهجرة إلى دينه، والترقي في منازل الإيمان.

وقد وردت العديد من صفات الله في هذه السورة في الآيات: ١ - ٦، ٩، ١٠، ٢١، ٢٤، ٢٨، ٢٩. هذه الصفات التي تثبت أن الله وحده هو المتصرف المطلق في هذا الكون، مع إبراز صفات العلم والقدرة بصورة خاصة، إنه تعالى «العزيز الحكيم»: ١، «وهو على كل شيء قدير»: ٢، «وهو بكل شيء عليم»: ٣، وهو «بما تعملون بصير»: ٤، «وهو عليم بذات الصدور»: ٦٥، و«بما تعملون خبير»: ١٠.

وبجانب ذلك فإن الله «لرؤوف رحيم»: ٩، «والله ذو الفضل العظيم»: ٢٦، و«الغني الحميد»: ٢٤، وهو «قوي عزيز»: ٢٥، و«غفور رحيم»: ٢٨ ومرة أخرى فإنه «ذو الفضل العظيم»: ٢٩. وعند هذا الوصف تنتهي السورة، لأن كل ما في هذه السورة من مبادئ وقيم وتعليمات لعامة الأرض وصناعة الحياة بقوة وفعالية تعين المؤمن على كسب المعاش والفوز في المعاد، إنما هي من فضل الله العظيم.

والوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة من صناعة الحياة لا يحدث طفرة أو فجأة، وإنما يحتاج إلى (جهد) على المستوى النظري الفكري و(جهاد) على المستوى العملي، وفي كلتا الحالتين يزداد الإيمان ويرتفع منسوب الفاعلية. ولكن: لماذا يبقى الإنسان دائمًا تحت رقابة الله؟ والجواب سهل؛ لأنه خليفته في أرضه وأمواله، وملزم بتطبيق تعاليمه.

### ثالثًا- الإيمان باستخلاف الله للإنسان ولا سيما في المال:

ركزت السورة ضمن محاورها على إبراز ملكية الله لهذا الكون وما فيه من خيرات ومنافع وأموال، وبالتالي فإن الإنسان مجرد وكيل عن الله أو خليفة استخلفه على هذه الأموال وطالبه بأن يلتزم بميثاق الاستخلاف، بحيث يُحرّم ما حرّم الله ويحل ما أحل، ويوجب ما أوجب، سواء في إدخال

الأموال أو في إخراجها والتصرف فيها.. قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسَخَّلِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [٧]. وبعد أن استنكر السياق عدم الإيمان بالله مع أن الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان وقد أخذ ميثاقهم، وبعد تأكيد أن الله ينزل على عبده آيات بينات لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وختم الآية بصفتي: الرؤوف والرحيم [٨، ٩]، عادت الآية للحث على الإنفاق والترغيب في ذلك، ببيان أن هذا الإنفاق قرض حسن لله، سيتولى تعالى مضاعفته لصالحه بجانب الأجر الكريم [١٠، ١١]. وبعد بضع آيات عادت السورة للحث على الإنفاق بتأكيد الثواب ومضاعفة الأجر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [١٨].

ومن أبجديات الخلافة المعروفة في القرآن أن الله خلق هذه الحياة للابتلاء، وأن جزاء الإحسان يكون الجنة في الآخرة، وجزاء الإساءة النار هناك، بمعنى أن الدنيا مع طلب عمارتها من المؤمن تظل في نظره وسيلة لا غاية، وهذا هو الفيصل بين المؤمن وغيره، وهذه حقيقة ينبغي تعلمها من خلال استقراء تجارب الحياة وقصص الناس، إضافة إلى آيات القرآن، قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِبُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [٢٠].

وهكذا، فإن قضية الاستخلاف واردة في الوحي، وكذلك قضية إعمار الدنيا لا عبادتها، وسائر الأصول والقيم المرتبطة بذلك واردة في القرآن أيضاً، ذلك الكتاب المليء بالآيات البيّنات والحجج والبراهين الدافعة لليقين، والمبددة لظلمات الطمع والجزع والشك والريب.

رابعاً- الإيمان بالآيات البينات وإقامة الصالحات التي تنير للمؤمن دروب الدنيا:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [٩]. إن ظلمات النفوس كثيفة وظلمات الحياة كثيرة، وكلها بحاجة إلى تبديد حتى ينجح المؤمن في أداء مهمته في هذه الحياة على أفضل وجه، فيعبر الصراط المستقيم بكفاءة حتى يصل إلى الآخرة.

فمن رافة الله ورحمته أنه بين لهم كل ما يتعلق بهذا النور كما في الآية السابقة، وبين في هذه السورة أن هذا القنديل المنير بحاجة إلى زيت، وفي الآيتين العاشرة والحادية عشرة بيان لهذا الزيت، وهو الإنفاق في سبيل الله والقتال في ذات السبيل، ولأهمية هذا الأمر يلح عليه ببيان أن إنفاقك في سبيل الله هو إقراض لله، سيضاعفه وسيعطي عليه أجراً كريماً..

ولأن الجزء من جنس العمل، فإن السورة تبين مشهداً من مشاهد الآخرة المفزعة وهو مشهد السير على الصراط المنتصب فوق جهنم والرباط بين أرض المحشر والجنة، وهو -كما في الحديث- «أدق من الشعرة وأحد من السيف، وله كلاليب»..

وبجانب ذلك كله تحف هذا الصراط ظلمات كثيفة فما المنجى منها؟ إنه النور، لكن مصدره في الدنيا وليس في الآخرة، حيث الآيات البينات والأعمال الصالحة هي مصدر هذا النور، ولذلك تجسد السورة ذلك المشهد المرعب، وتبرز الفارق بين من ارتشف ذلك النور من المؤمنين، ومن حضر بقالبه لا بقلبه نتيجة نفاقه، فلم يفترف أي نور، وقد أبرزت الآيات هذه المفارقة لينتبه الناس قبل أن تحيق ظلمات ذلك المكان بأي مسلم، فيقوم بتسول النور من المؤمنين، لكن هؤلاء ينيرون لهم فقط مكامن الخلل فيهم والتي منعتهم من اقتباس النور، ويطلبون منهم التماس النور في الدنيا [١٢-١٥].

ونلاحظ في هذا النص أن الله وصف نور المؤمنين فقال: ﴿سَعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فقد وضعه بين أيديهم وفقاً لقاعدة الجزاء من جنس العمل؛ لأنهم كانوا يقدمون أعمال الخير بين أيديهم ويرسلونها إلى الآخرة لكي تكون قناديلهم في ذلك اليوم الحالك الرهيب. أما أيماهم فلأن اليمين هي رمز لكل أعمال الخير ولا سيما ما ترتبط بأعمال البر والإحسان وفي مقدمتها الإنفاق الذي يكون عبر اليمين، هذه اليد التي تمد العون وتُشعل شموع الفرح والكفاية والكرامة في بيوت الفقراء وحياة المساكين.

وقد أبرزت السورة أهم الأعمال التي تستحيل نوراً في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [١٩]. وقد اختار الله الصديقين والشهداء في مقدمة صفوف المستيرين بأعمالهم، لأنهم الأكثر تضحية، فالصديقون هم الذين ضحوا بكل شيء في سبيل إرضاء الخالق وإسعاد الخلق، ومن ثم فإن زيت نورهم هو: عرقهم ومدادهم ودموعهم وأموالهم وآهاتهم التي أشعلت النور في دروب الحياة، أما الشهداء فإن الأمر أوضح لأنهم نوروا دروب الخلق بدمائهم، وهكذا فإن الله ينير صراط من نوروا طرق الناس في الدنيا، وهذا دافع كبير للفعالية في صناعة الحياة.

وترسم السورة الطريق إلى النور للجميع بوصية ثمينة بينة في آخر السورة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٢٨]. والتقوى هي منهج شامل لعامة الحياة، لأنها دعوة لأن يجدك الله في منطقة الفرائض والأوامر، وأن لا يجدك في منطقة المحرمات والنواهي، ويشتد الأمر إذا ارتبط الفرض أو المحرم بمسألة مرتبطة بالناس، فإنها عبادة متعدية وبالتالي يكون أجرها أكبر، وكذلك المعصية فإن وزرها أكبر لأنها معصية متعدية.

## خامساً- تحسين القلب وتحصيل العقل:

هذا العامل امتداد للعامل السابق، لأن الآيات البيّنات هي التي تصنع الوعي والمعرفة، والمعرفة نور، حيث تساعد المسلم على معرفة أين يضع قدميه، حتى لا يزل أو يزيغ أو يسقط عن الصراط الذي يدعوه ربه ليلا ونهاراً أن يهديه إياه، ولا سيما في الصلوات، سواء كانت فروضاً أو تطوعاً، إذ لا بد أن يقرأ (الفاتحة) في كل ركعة، وفي القلب منها: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

ولهذا، فإن أول مجال ينبغي أن يُعمل فيه المؤمن عقله هو القرآن الكريم لاستنباط المعرفة النورانية، وقد أوصى الله بطريقة رئيسة تساعد على تدبر القرآن، والاستفادة من معارفه وأزواجه لتوليد نور هدايته وفرقانه، وهي الخشوع القلبي، وجاءت الوصية على هيئة عتاب، لأن السورة مدنية ونزلت في الفترة الأخيرة من نبوة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسَوْنَ ﴾ [١٦].

وإصلاح القلب بالقرآن والتدرب على الخشوع والوصول إلى التطهر من الذنوب والتخلص من الآثام يجعل هذا القلب آنية ممتازة لتحصيل العلوم الأخرى ذات الصلة بآيات الأنفس والآفاق. ولهذا نُقل عن إمام العلم الإمام الشافعي قوله الذي سجل فيه شكواه لشيخه وكيع:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي      فأرشدني إلى ترك المعاصي  
وأخبرني بأن العلم نورٌ      ونور الله لا يهدى لعاصي

وهذا يعني أن الطاعات تحيي القلوب، والمعصية تميتها لأن قسوتها موت، لكن ذلك لا يعني في المقابل أن مات قلبه بالمعاصي فقد الأمل تماماً في التعلم والتزود من أنوار القرآن وأقباس الحكمة، ولهذا جاءت الآية التالية

للآية السابقة -الخاصة بخشوع القلب- لتفتح أبواب الأمل وتشرع أبواب الرجاء، لكنها مقرونة بطلب العلم أيضاً، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٧].

ونلاحظ من هذه الآية الربط الوثيق بين العلم والعقل، حيث بدأ الآية بـ «اعلموا»، ووسَّطها بالآيات وهي تطلق على جُمل القرآن ومخلوقات الكون ومكونات الإنسان وعِبَر المجتمع، وختمها بالتوجيه بإعمال العقل: «لعلكم تعقلون».

إذن.. العلم هو الطريق إلى العقل، كما توضح الآية، والمقصود هنا العلم الكلي، أي معرفة التصور الكلي للإسلام عن الكون والوجود والإنسان، أما تفاصيل العلم والوصول إلى درجة العالم والفقير والحكيم فإنها تحتاج إلى إعمال العقل بكل طاقاته ومستوياته التفكيرية من: حفظ، وتحليل وخيال واستنباط واستقراء ونقد، في قراءة آيات القرآن وآيات الأنفس والآفاق.

وبعد أن دعت السورة إلى إصلاح القلوب والتخلص من قسوتها، وفتحت باب الرجاء بحدوث ذلك عندما ضربت المثل بالأرض الميتة، وحثت على الإنفاق وبيَّنت أهمية ذلك وعظم أجر فاعله، عادت لمخاطبة المؤمنين داعية إياهم لأن (يعلموا) حقيقة الدنيا كوسيلة بكل ما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد، وشبهت ذلك كله بالمطر الذي يعجب الزراع نباته ثم تمر عليه سنن الله في الأفول بعد التائق والاختضار، حيث ينضج فيبدأ بالاصفرار والتيبس، ثم يصير حطاماً، لتؤكد نهاية الآية عبر الأسلوب الجامع بين النفي والاستثناء أن الدنيا مجرد وسيلة آنية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [٢٠].

إذن.. الدنيا وسيلة، وإذا دخلت إلى القلب صارت غاية، وهنا تملأ شهوات الدنيا القلب فلا تسمح لأنوار العلم بالوصول إليه، وهذا هو حال المنافقين، فإن معاصيهم الناتجة عن إدخال الدنيا إلى قلوبهم تصنع راناً يظل يتراكم

ويزداد قوة وقسوة حتى يصير كالحديد الصلب، فلا يسمح لهذه القلوب باستمداد النور، لأن النور يحتاج إلى خشوع، والخشوع يحتاج إلى إيمان، والإيمان لا يجتمع مع النفاق. ولهذا فإن المنافقين - ذكوراً وإناثاً - في مشهد الصراط لا يرون إلا نور المؤمنين، لأن رياح المعاصي أطفأت أنوار قلوبهم، فيحاولون للحاق بالمؤمنين ويطلبون منهم الانتظار حتى يقتبسوا من أنوارهم دون جدوى، لأن الآخرة دار استضاءاة، أما التماس النور فهو في الدنيا: [١٣ - ١٥].

وهكذا، فإن من لم يتسلح بـ (النور) تصير عاقبته (النار)؛ لأن القلوب التي لم تُذب آيات الله قسوتها: قرأنا وكوناً وعبراً اجتماعية، فلا يجدي في تذيب قسوتها وحديدها إلا النار!.

وكما نؤكد دائماً على عدل الله المطلق، وقاعدته في الجزاء القائمة على أن الجزاء من جنس العمل، فإن الذنوب التي انتصبت كسورٍ منع القلوب من التأثر بكلام الله والذوبان أمام وعده ووعيده، هي التي تنتصب مرة أخرى أسواراً حقيقية عند محطة الصراط، حيث تمنع المنافقين من اقتباس أنوار المؤمنين، كما كانت في الدنيا، قال تعالى: ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [١٣].

والقلب والعقل متلازمان متكاملان، فالؤمن لا يستطيع أن يسير في دنيا صناعة الحياة، ولا يطير في سماوات الفاعلية والتميز ما لم يمتلك الجناحين معاً، أما من لم يملك الاثنين فهو كالطائر المقصوص جناحاه. وقد ضرب الله المثل بأتباع عيسى عليه السلام وهم النصارى الذين ضلوا الصراط المستقيم الوارد ذكره في سورة «الفاتحة» بسبب جهلهم، ولذلك سمتهم الفاتحة ضالين، رغم قلوبهم الطيبة، بعكس اليهود الذين انحرفوا عن علم، بسبب سواد قلوبهم وقسوتها، ولهذا أطلقت عليهم الفاتحة مصطلح «المغضوب عليهم»، كما يقول المفسرون.

وقد أوردت سورة (الحديد) ما يؤيد تفسير العلماء للضالين في الفاتحة بأنهم النصارى، إذ أثنى الله على قلوب أتباع عيسى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [٢٧]، لكن ابتداعهم للربانية وعدم وفائهم بما افترضوه على أنفسهم جعلهم -ضمن قضايا أخرى- ضالين، فقد قال تعالى في الآية السابقة ذاتها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾ [٢٧]، والابتداع يأتي نتيجة قلة العلم.

ومن العلم -ضمن آيات الأنفس والمجتمع- قراءة أي حالة كما هي ورؤية أي شعب أو أمة كما هم، مع ما يعني ذلك من استحالة التعميم واقعيًا، وحرمة دينيًا، ولهذا فإن العالم يتسم بالموضوعية والدقة ويبتعد عن التعميم، وهذا ما أومأت إليه السورة في حديثها عن عدد من التجمعات، حيث تكررت جملة: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَالسُّقُونَ﴾ في ثلاث آيات من السورة: [١٦، ٢٦، ٢٧]. إذ في كل الأمم كان هناك من اهتدى ومن ضل، من أطاع ومن فسق، من آمن ومن كفر، وهذا يعلمنا الموضوعية والإنصاف.

ولاهتمام السورة بالمسائل العلمية، أوردت على الأقل ثلاث لفتات علمية ضمن حديثها عن الآيات الكونية، يعتبرها علماء الإعجاز القرآني من أمثلة وصور الإعجاز العلمي التي تحدث عنها القرآن قبل بضعة عشر قرنًا وجاء العلم الحديث ليميط عنها اللثام، حيث حدثت كما تحدث عنها القرآن، والآيات هي: ٤، ٦، ٢٥<sup>(١)</sup>.

ومع الرقي العلمي والحضاري الذي يمثله الإسلام بقرآنه وأحاديثه الصحيحة، فإن مسلمي هذا العصر يعانون من تخلف مريع، إذ هناك ثقلت عن هذا الدين، وهناك أفهام منقوصة ومشوهة له عند بعض التيارات التي تنتسب للدين، ومن أكثر الموضوعات التي يقع فيها سوء الفهم عند كثيرين: القدر، وقد اهتمت به هذه السورة، لعلاقته الوثيقة بالفاعلية وصناعة الحياة.

١- انظر مثلاً: د. زغلول النجار، من آيات الإعجاز: ١ / ٨٧ - ٩١.



## سادساً- الإيمان السوي بالقدر واقتطاف ثماره اليانعة:

القدر هو أحد أركان الإيمان الستة، وله عدة معانٍ في اللغة تدور حول القدرة والاستطاعة، والقدر والتقدير: تعيين كمية الشيء وإعطاء كل شيء ما فيه مصلحته، وهدايته لما فيه خلاصه، إما بالتسخير وإما بالتعليم. والقدر: وقت الشيء المقدر له والمكان المقدر. والتقدير: هو الفاعل لما يشاء<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نَدْلُجُ إلى أن الفهم الجبري للقدر عند كثير من مسلمي هذا العصر لا محل له من القبول لا في لغة العرب، لأنه نزل بلسان عربي مبين، ولا في فهم السلف الصالح وممارساتهم، حيث استكملوا العمل بالأسباب، لكنهم تبرؤوا من جهودهم ومن الأسباب ونسبوا الفعل والفضل كله إلى الله، مع إدراكهم أن قدرة الله مطلقة، ومشيبته نافذة، لكن مشيبته هي النظام المحكم الذي وضعه في الكون والحياة وهو القوانين والنواميس، ولذلك لا تلغي اختيار الإنسان، لأن من سار في طريق الخير سار بإرادته، وهو ضمن قدر الله الذي أوجد طريق الخير ودعا إليه، ومن سار في سبيل الشر سار بإرادته، ولم يخرج عن قدر الله الذي أوجد طريق الشر وحفه بالشهوات، وإن لم يدع إلى الشر بل نهى عنه، لكنه منذ أن سوى نفس الإنسان ﴿ فَأَهْمَهَا جُورَهَا وَتَقَوْنَهَا ﴾ [الشمس: ٨]، فإنه قد قدر الخير والشر.

وهكذا، فإن الإيمان بالقدر يعطي المسلم إيماناً بقدرة الله المطلقة على عمل ما يشاء، سواء ضمن الأسباب التي تسيّر وفقها الحياة، أو خارج دائرة الأسباب التي تخرقها القدرة الإلهية أحياناً ليلفت أنظار الناس إليه، وحتى لا يعطون الفاعلية للأسباب ذاتها بعيداً عن الله فيؤلهونها، كما يفعل الماديون.

هذه السورة تسيّر في هذا الدرب، كما بقية سور القرآن الكريم، ولهذا أثبتت قضية القدر: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي

١- انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ص ٣٩٦، ٣٩٧.

كَتَبَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ [٢٢] وأضافت إلى بقية السور الوظيفتين الرئيسيتين للقدر وجمعتهما في مكان واحد، حيث قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [٢٣]، فإن الإنسان المرتبط بالأسباب دون إيمان بقدر الله ينسب الأعمال إلى نفسه، فإذا نجح تلبسته روح قارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] وهذا يدفعه للفرح المذموم وهو شجرة لا تثمر إلا الاستكبار والطغيان والاختيال، ولذلك قال المؤمنون لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

أما إذا فشل في تحقيق ما أراد، فإن الأسى سيطر على كيانه، ولا يزال اللوم يقض مضجعه، والحزن على الإخفاق يهجم عليه ويستحوذ على قلبه، حتى يصاب بالعلل والأمراض النفسية، مما يفقده الثقة بالذات، ويقلل من قدرته على الإنجاز والفعل، وربما استفحل المرض ووصل إلى حد الجنون أو الانتحار.

وهكذا، فإن القدر يحقق معنى العبودية لله في محراب الحياة، ويُفعل طاقة المؤمن في عمارة الحياة، لأنه يعطيه شجاعة وكرماً لمعرفة أن الآجال والرزق بيد الله، ويعطيه نوعاً من الطمأنينة النفسية عندما يعرف أن ما تحقق أو فات هو مشيئة الله، وأن الخير الكثير قد يكون فيه وإن بدا مكروهاً، إضافة إلى تعويده للمؤمن على الصبر في احتمال الشدائد، والتواضع وعدم الطغيان<sup>(١)</sup>.

ومن يتعمق في آيات السورة يلاحظ أن القدر لا يلغي العمل بالأسباب ولا يعني الجبرية، فهناك قرائن عديدة تؤكد على ذلك أهمها:

- تكرر السورة دعوة إلى الإيمان والتحذير من الفسق والعصيان، مع استخدام سلاح الترغيب بالثواب والترهيب من العقاب، مثل الآيتين: ١٩، ٢٠.

١- راجع ثمار الإيمان بالقدر في كتابنا: مباحث في الثقافة الإسلامية: ص ٦٢ - ٦٦.

- نسبة الله النور إلى الإنسان في الآيتين: ١٢، ١٩ لأنه من اجتهادهم وعملهم، حتى المنافقون في مشهد الصراط يقولون للمؤمنين: ﴿ أَنْظِرُونَا نَقِّيسَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [١٣] ولم يقولوا من نور الله مثلاً.

- توفر الآيات والبيانات بين أيدي الناس جميعاً، ثم انقسامهم بإرادتهم - كما نرى في الواقع العملي- بين مؤمن وكافر، وبين محسن ومسيء، كما في كثير من الآيات مثل: ١٦، ٢٦، ٢٧، حيث نسبت هذه الآيات الفسق إلى أصحابه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [٢٦]، فقد وضحت الآية أن الاهتداء والفسق اختياريان، ولذلك يستحق كل طرف الجزاء المناسب، كما في حالة نور المؤمنين وظلام المنافقين على الصراط.

- إبراز السورة للعقبات التي تمنع المسلم من الوصول إلى الإيمان وتحصيل التقوى التي تمنحه النور الفرقاني في الدنيا، والنور المضيء للصرراط في الآخرة، وقد وردت -هذه العقبات- على لسان المؤمنين في ردهم على تساؤل المنافقين المحرومين من النور، قال تعالى: ﴿ يَأْتِدُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [١٤]، ونلاحظ أن الأنفس هي أول هذه العقبات، حيث إنها سبب التربص والارتباب، بل وهي التي أوجدت القابلية للعقبتين الآخرين وهما: الدنيا: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾. والشيطان: ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾.

- ورود بعض الآيات السببية في السورة التي تربط النتيجة بالسبب، مثل الآية قبل الأخيرة في السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءِؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ ءِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢٨].

- تأكيد الآية التي تلت آيتي القدر على هذا الفهم السليم للقدر، ولا سيما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [٢٤]، فالإنسان هو الذي يلتزم أو يتولى، يطيع أو يعصي، يُقبل أو يُدبر.

- دعوة الآية: ٢١ للمسابقة إلى المغفرة والجنة، وهي الآية التي سبقت آية القدر تماماً، مع ما يستدعي ذلك من تنافس على الأخذ بالأسباب بين المؤمنين.

وهكذا، فإن الإيمان بالقدر يجعل الإنسان أكثر فاعلية وأكثر إقداماً في صناعة الحياة، بل يمكن تسمية الإنسان الذي يؤمن بالقدر، بالإنسان (الحديدي)، ليقينه أن كل ما يخاف عليه أو يخاف منه هو بيد الله وحده، ولهذا فإنه يمتلك إرادة فولاذية في مواجهة أعباء الحياة.

#### سابعاً- إقامة الحياة على العدل والحديد:

يوضح القرآن دوماً أن الحياة الراقية تبنى على عمودين: العمود المعنوي وتمثله قيم عديدة أهمها العدل، والعمود المادي وتمثله طاقات عديدة، أوضحت هذه السورة أن أهمها: الحديد، والحضارة المعاصرة التي تتكى على الحديد: تشييداً، وبناءً، وتجسيراً، وتصنيعاً، وتسييراً لوسائل المواصلات البحرية والبرية والجوية، إضافة إلى الكثير من الآلات والصناعات المختلفة، بجانب الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، كلها تؤكد أن الحديد هو الأقوى والأكثر فاعلية، بل هو العمود الأساسي للحضارة في الجانب المادي.

أما العدل فهو المقصد الأعظم لهذه الشريعة، وهو الميزان الذي قامت عليه السماوات والأرض ونزل به الرسل، وهو الذي يُستنزل به النصر أو الهزيمة إن كان معدوماً، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية أورد مقولة -ذكر أنها أثرية- تجسد هذه الحقيقة، وهي: «اللَّهُ ينصر الدولة العادلة

وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»<sup>(١)</sup>، ولهذا فإن العدل القيمة الرئيسة التي تقوم عليها دول الحقوق والحريات الإنسانية، وقد جمعت آية واحدة في هذه السورة العدل والحديد معاً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢٥].

وما جمع مجتمع بين العدل الذي يعطي كل من يستحق ما يستحق، ويوضع في ظله كل فرد في مكانه المناسب، وبين الحديد الذي يُعد أهم معدن في العمارة المادية للأرض وفي حراسة هذا المجتمع من الأعداء في الداخل والخارج، إلا اتسم بالقوة والعزة والمنعة، وهذه هي الحكمة من تذييل هذه الآية بفاصلة ورد فيها اسما الله الكريمان: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾!

وقد روي في هذا السياق عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: «فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه... فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا، فإن العدل يبني الإنسان ويُسور المجتمع ويحميه من الداخل، أما الحديد فيبني المدنية في الداخل ويسوره من الخارج.

### ثامناً- المحافظة على كرامة الفرد والمجتمع:

تحت السورة على المحافظة على كرامة الفرد والمجتمع، يبدو ذلك من العناية الكبرى بالعدل، لأن العدل يساوي بين الجميع من حيث المبدأ في الحقوق والواجبات، ويراعي الفروق الفردية في الثواب والعقاب، وبالتالي

١- الحسبة في الإسلام، تقديم: د. محمد المبارك. ط١ (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٨٧ = ١٩٦٧)، ص ٧.

٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. تحقيق: بشير محمد عيون، ط٢ (دمشق: مكتبة دار البيان، ١٤١٣ = ١٩٩٣)، ص ٣٢.

فإنه يصون الحريات والحقوق والكرامات الإنسانية.

ولأن الفقر قد يدفع بعض الناس للتنازل عن كراماتهم، فقد حثت السورة المقتدرين على الإنفاق، وأكدت على هذا الأمر في عدة مواضع منها، ومنحت الكثير من المحفزات والمرغبات من أجل الاندفاع في هذا الطريق الذي يصون الحرمات ويحفظ الكرامات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُؤَدِّقِينَ وَالْمُؤَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [١٨]. ونلاحظ الفاصلة: ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، فلأن الجزء من جنس العمل؛ فإن في هذه الفاصلة إشارة إلى أن الإنفاق ينبغي أن يكون كريماً وحريصاً على كرامة الفقير، فهي من أهم مكونات آدميته وحرريته وفعاليتها. وكان تعالى في آية سابقة قد حث على الإنفاق الكريم الذي يستحق صاحبه الأجر الكريم، قال تعالى: - ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [١١].

وحتى يكون المنفق حساساً وحذراً في التعامل مع الفقير، بحيث لا يمس كرامته أثناء الإنفاق، ينبغي أن يتذكر أنه مستخلف من قبل الله، وأن المال مال الله، وأنه مجرد واسطة أو سبب بين الله والفقير، وأن جهده الشخصي يتوجه به إلى الله كقرض حسن سينال عليه الأجر المضاعف في الآخرة، قال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [٧].

وينبغي أن يستحضر المنفق رقابة الله عليه، حيث تكثفت الآيات والجمل ذات الصلة بمراقبة الله للناس في هذه السورة مثل: ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [٦]، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٤]، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [١٠]، وأن يعلم أن الأجر سيترتب على قدر توفير كرامة الفقير أكثر من ترتبه على كمية المال التي سينفقها.

## تاسعاً- التجديد:

قال تعالى معاتباً المؤمنين: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسِفُوا﴾ [١٦]، ولما كانت هذه السورة متأخرة في سياق ترتيب السور، فإن العتاب ربما أصاب من طال عليهم الأمد، ولم يعودوا يخشعون ويبكون كما كانوا يفعلون في مطلع إسلامهم<sup>(١)</sup>، ويقدر ما يؤكد هذا النص على أن طول الأمد قد يُتسي القلب من كثرة الألفة وتحول الأمر إلى تقاليد، فإنه بالمقابل يشير من وراء الحروف والكلمات إلى أهمية التجديد حتى لا يصل المرء إلى هذه النتيجة غير المرغوبة، لأن طول الأمد يؤدي إلى الألفة وهي تؤدي بدورها إلى قسوة القلب؛ وهو ما يوجد المناخ المناسب للفسق والتمرد على أوامر الله ونواهيه.

وعندما يدعو الله إلى المسابقة للمغفرة والجنة: ٢٠، دون أن يحدد الوسائل والأساليب، فإنه يترك الوسائل والأساليب والآليات للعقل والتفكير، حتى نضمن الابتكار والاختراع والتجديد.

وفي الدعوة لالتزام التقوى: ٢٨، مثل هذا الأمر، لأن التقوى عنوان عريض لم يوضح الله وسائل تجسيدها، وبالتالي لا بد للعقل والفكر أن يتدخل، وهنا تأتي إمكانية التجديد.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ٢٥. نسب الله إلى الرسل البينات (بالجمع)، والكتاب (بالمفرد) كأنه يشير إلى ما نحن بصدد هنا، وهو أن الكتاب واحد، لكن شروحه كثيرة وأدلته وبراهينه وطرائق الوصول إليه ووسائل تجسيده في الحياة وأساليب تطبيقه بين الناس ينبغي أن تتعدد

١- راجع سبب نزول هذه الآية في: عبد الرحمن السيوطي، أسباب النزول: ص ٣٩٨، ٣٩٩. ابن كثير:

تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، ص ٣٥٨.

وتتطور باختلاف الزمان والمكان، حتى تراعي الفروق الفردية بين الناس، وتدفع وتمنع الألفة وقسوة القلب، وتظهر صوراً من التجديد والابتكار التي تختصر الجهد والوقت على الناس.

وتزداد قيمة التجديد، عندما تلفت السورة النظر إلى بعض مشاهد الكون التي لا تعرف الثبات، مثل مشهد الأرض التي ينهمر عليها المطر فتعود إليها الحياة، وتتألق في فضاء الخضرة، حتى إذا وصلت إلى الكمال بدأ العد التنازلي وصولاً إلى الصفرة والتهيبس: ٢٠. كل هذا التغير يضي على النفس البهجة، لكن الثبات يصيب النفس بالسامة والملل.

ومن ضمانات التجديد إشراك كل أفراد وطاقت المجتمع في العمل، لأن ذلك يكفل التنوع، والتنوع يوجد التنافس والابتكار والتجديد.

#### عاشراً- إشراك كل طاقات المجتمع في العمل والإنتاج:

من المعلوم أن الخطاب القرآني يُغلب الخطاب والوصف الذكوري من باب التعميم، ف﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مقصود بها الرجال والنساء، في سائر آيات القرآن، غير أن بعض السور احتوت على أفراد الحديث عن المرأة بجانب الرجل في أمر يشترك فيه الطرفان، هذا الاستثناء يكون له ما يبرره، كما في هذه السورة. فقد أوردت سورة الحديد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَعَىٰ تَوَارِهِم...﴾ [١٢]، فذكرت المؤمنات، ولو اكتفت بالمؤمنين لدخلت المؤمنات معهم، لكن هذا الأمر له مغزاه، وأظن أنه مرتبط بالفاعلية، حيث ينبغي أن يشترك في صناعة الحياة الرجال والنساء، ورغم وضوح هذا الأمر من عموم آيات القرآن، لكن القرآن أكد عليه في هذه السورة، كيف لا وهي سورة الفاعلية وصناعة الحياة!١٩.

وتزداد أهمية هذا الأمر إذا عرفنا أن التخريب والإفساد يشترك فيه الفاسدون والفاستات، ولذلك ذكر الله تعالى -في ذات مشهد الصراط يوم القيامة- المنافقين والمنافقات: ١٣.



والمجتمع -أيًا كان- لا بد أن فيه فروقًا فردية كثيرة، ينبغي أن تستوعب جميعًا، مع حفظ الفروق الفردية في الجزء كما في العمل، في النتائج والثمار، كما في الأسباب والبذار، ولهذا رفض المولى عز وجل التسوية بين المنفذين والمقاتلين قبل وبعد الفتح: ١٠.

ورغم اعتراف الإسلام بتعدد التخصص والتنوع والتكامل فإنه يطالب بالوحدة في بعض المحطات، ومن ذلك: العمل والإنتاج، حيث ينبغي أن يتحد الجميع في العمل ويختلفوا في التخصصات، ولأن الحق واحد في مثل هذا المقام، فقد أفرد الله النور في قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٩].

هذه هي العوامل العشرة التي تضافرت على إيجاد الفاعلية في «الحديد»، هذه السورة العظيمة التي أوجدت مداميك حديدية صلبة للبناء الحضاري وصناعة الحياة، فإن تطبيق هذه الأمور العشرة في المجتمع المسلم كفيل بإذابة الشوائب وتنظيف الأدران، وإلغاء الفجوات بين الأفراد، وتمديد العلاقات بين الكيانات الاجتماعية والسياسية، وتمتين الأواصر، وتجسير المسافات بين مختلف المكونات الاجتماعية، وذلك بالخرسانة الفكرية المسلحة بأسياخ «الحديد» الصلب، وهكذا فإن هذه السورة المباركة قد أوجدت القاعدة المطلوبة لانطلاق عملية الإقلاع الحضاري، فأين المتدبرون المطبقون؟.

## صفات المنضويين تحت لواء (محمد)!

سورة (محمد) مدنية إلا الآية ١٣ فنزلت في الطريق أثناء الهجرة، وآياتها: ٣٨، نزلت بعد الحديد ورقمها ثمانية بين السور المدنية، أي أن رقمها النزولي العام: ٩٤، أما ترتيبها في المصحف فهو: ٤٧.

يبدو أن السورة تتمحور قضاياها وموضوعاتها حول صفات المنضويين تحت راية محمد ولوائه، وحتى تسمية السورة جاء من قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [٢].

وما يؤكد تمحور السورة حول صفات أصحاب وأتباع (محمد)، أنها ذكرت صفات هامة وعديدة وخلصت إلى التحذير من الاستبدال إن لم يتحلوا بهذه الخصال، فقد كانت الجملة الأخيرة في آخر آية: ﴿وَلِئِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [٣٨] كأنه يقول: إن تتولوا عن هذه الصفات المؤهلة لكم للدخول تحت راية محمد، فسيستبدل الله قوماً غيركم، ليسوا أمثالكم في هذا التولي، بل هم مثل الصحابة الذين امتلكوا صفات مكنتهم من الانضواء تحت راية (محمد) والانخراط في حبه وأمته.

ولأن القرآن يكمل بعضه بعضاً، فقد كانت السورة التي تليها في ترتيب المصحف هي (الفتح)، كأن الالتزام بهذه الصفات القرآنية المحمدية يورث (الفتح)، وختمت سورة الفتح بوصف محمد وصحابته: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَارَظَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

الجدير بالذكر أن الصفات التي أوردتها سورة (محمد) لأتباعه وجنده بعضها مباشرة والأخرى غير مباشرة، تُستنبط بمفهوم المخالفة أو بالتضاد، فعندما يعيب على أعداء محمد خلقاً ما، فإنه يحث على التحلي بعكسه.

والآن: ما هذه الصفات والخصال؟

يمكن ابتداء القول بأن سورة (محمد) أبرزت ست صفات وخصال مَنْ امتلكها يمكن اعتباره من جند محمد ومن حزبه وأمته، وهي:

أولاً- الإيمان المثمر والمستمر:

على غير العادة في سائر السور، افتتحت سورة محمد بالحديث عن إضلال أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله [١]. وتؤكد هذه السورة أن للكفار أعمالاً حسنة وصالحة، ولكن الكفر يحبطها ويبددها ويضلها أو يضيعها، وقد تكرر هذا المعنى في الآيات: [٨، ٩، ٢٨، ٣٢، ٣٤].

وفي المقابل، فإن الإيمان يحبط ويحرق الذنوب والسيئات التي قد يقع فيها المؤمن نتيجة ضعف أو نسيان، فإن الإيمان مع عمل الصالحات وتأكيد الإيمان بما نزل على (محمد) ﷺ - وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال - كفيل بتكفير السيئات وإصلاح البال [٢]. ومن المعلوم أن التوبة من الإيمان ومن عمل الصالحات لأنها تنصب جسراً بين أرض المعصية وأرض الطاعة، تُمكن المؤمن من عبوره والعودة إلى الطاعات والصالحات والجاهزية الإيمانية.

وثمار الإيمان لا تكاد تحصى، فهو لا يورث أصحابه جنات تجري من تحتها الأنهار في الجنة فقط، بل يدفع أصحابه إلى عمارة الأرض واستصلاحها والتمتع بخيراتها وطيباتها في محاولة للاقتراب من المثال الأخروي، وهذا يفهم من خلال المقابلة بين المؤمنين والكفار في الآية الثانية عشر من هذه السورة.

ولأن الإيمان يزيد وينقص، كانعكاس للإنسان الذي يقوى ويضعف، يتذكر وينسى، يرتفع وينخفض، يجتهد ويكسل، ينتبه ويغفل، فإن السورة توصي المؤمنين بالمداومة على الطاعة لله ورسوله، والحذر من المعصية وإبطال الأعمال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا ءَعْمَلَكُمْ﴾ [٣٣].

وتمارس السورة، كعادة القرآن، صوراً من الترغيب والترهيب في هذا السياق، ومن التشويق لوعد الله والتخويف من وعيده في ذات الآيات، في مقابلة تثير (الطمع) فيما عند الله، وتثير (الفرع) مما عنده من العقاب الأليم لمن تنكب صراطه المستقيم، هذه المقابلات نجدها في الآيات: [١٢، ١٥، ١٨، ٢٧].

ولا تفتأ السورة تغرس في أعماق المؤمن ضرورة مراقبة الله، وأن الله حاضر معهم يعرف كل شيء ويطلع على كل شيء: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [١٩]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ءَعْمَلَكُمْ﴾ [٣٠]، وحذر المناققين قائلًا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ءِسْرَارَهُمْ﴾ [٢٦]، وهو تحذير بليغ للمؤمنين أيضاً.

ومن مقتضيات الإيمان الابتلاء والتمحيص حتى تتطهر الأرواح وتزكو النفوس، وتشتد الهمم وترتفع الدرجات، ولذلك أكدت السورة وقوع الابتلاء بلام التأكيد في مطلع الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [٣١].

والمؤمن عكس الكافر يجب ما أنزل الله، فيكون ذلك سبباً في حفظ أعماله وتمييزها ومباركتها [٩].

وأبرزت السورة قضية الولاء والبراء، فالمؤمن يجب الحق ويتبعه ويتبع أهله، ومن الطبيعي أنه يكره الباطل ويقاطعه إلا في حدود المعاملات الإنسانية الضرورية المعلومة في الإسلام. وقد تكررت هذه المعاني وتأكدت في عدد من الآيات للتمعن فيها: [٣، ١١، ١٧، ٢٥، ٢٦]. هذا هو الإيمان،

وهذه متطلباته وثماره، كما تبرزها سورة (محمد)، فهل هو إيمان غيبي؟

### ثانياً- التلوج إلى مرضاة الله من أبواب الأسباب:

من المعلوم أن أمة المسلمين في هذا العصر هي الأمة الثانية في الأرض من حيث العدد، وهي الأكثر تديناً ومحافظة، ومع ذلك تعاني من تخلف وضعف مريعين، لأن هناك خلافاً في طرائق تدين أكثر المسلمين من العامة، حيث يسود أوساط هؤلاء التدين العاطفي الغيبي الذي لا يأبه بالأسباب أو لا ينتبه لها إلا لماماً.

وللتصدي لمثل هذا الإشكال الذي قد يقع في أي زمن، فقد أبرزت هذه السورة، مثل أغلب سور القرآن الكريم، المنهج السببي، من خلال توضيح أن الأمور تتم وفق معادلات وعمليات حسابية واضحة، فإن النتائج لا تأتي بدون مقدمات، والنتائج بيد الله يستطيع أن يقول لها كوني فتكون، لكن مشيئته -جل وعلا- اقتضت، كجزء من ابتلاء المؤمنين، أن لا تتحقق النتائج إلا إذا اجتهد المؤمنون في عالم الأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصِرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [٤].

ومن الآيات التي ترتب النتائج على المقدمات (الأسباب) في هذه السورة:

- ﴿فَإِذَا لَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَمُوهُمُ فَشَدُّوا أَلْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصِرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمِهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [٤ - ٦].

- ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧].

- ﴿وَالَّذِينَ ءَاهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَقَدْتَهُمْ﴾ [١٧].

- ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تُوْمِنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ ءَمْوَالَكُمْ﴾ [٣٦].

وهذا يعني أن الإسلام يولي العقل عناية خاصة، وسيوضح هذا أكثر في الفقرة الآتية.

### ثالثاً- فتح النوافذ للعقل لتبصر آيات الله:

المنهج السببي هو ثمرة القراءة المتدبرة للقرآن الكريم، وثمرته تتضح في قراءة كتاب الكون عبر التفكير، وكتاب الإنسان والمجتمع عبر التبصر، ولهذا فتح الإسلام للعقل آفاقاً واسعة لكي يفكر في كل ما سوى ذات الله، وجعل سقف التفكير شديد العلو والارتفاع.

١- تدبر القرآن: حثت السورة بصورة جلية على تدبر القرآن، وعلى فتح أفعال العقول والقلوب حتى تتم هذه العملية وتؤتي ثمارها، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمِرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [٢٤] (١).

ويتم كسر أفعال القلوب عبر الخشوع والإخلاص والتفاعل الوجداني، أما كسر أفعال العقول فيتم عبر التثوير والمدارسة، وقراءة القرآن كأنه أنزل الآن، وحسن الإصغاء والاستماع، مع إخلاء بيئة القراءة من الشواغل، والترتيل المسترسل لا المتعجل (٢).

وتوضح الآية التالية لآية التدبر أن التدبر عصمة لقارئ القرآن من الارتداد ومن تسويل الشيطان وإملائه [٢٥]، لأن التدبر يورث العلم واليقين وهما عصمة من الشيطان.

٢- ضرورة السير في الأرض للاعتبار والاتعاظ من مصائر الأمم: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكُفْرِينَ أَثْمَلَهُمْ﴾ [١٠] وهو السير العلمي المنهجي الذي يتبين صاحبه نقاط القوة حتى تكون الفائدة شاملة من آيات القرون وعبر السنين.

وفي سير المؤمن في آفاق الأرض يلاحظ آثار الدمار والهلاك فيتذكر أن

١- حول أفعال التدبر عموماً، انظر كتابنا: تدبر القرآن: ص ٢٦٩ - ٢٨٧.

٢- حول مفاتيح التدبر، انظر: المرجع السابق: ص ٢٨٨ - ٢٥٠.

الدنيا فانية، وبالتالي يتيقن أنها وسيلة لا غاية، وأنه لا بد من عمارتها لا عبادتها كالكفار، وهذا ما تومئ إليه الآيتان [١٢، ٣٦].

٣- تطهير القلوب شرط لاستيعاب آيات الله: قبل أن تورد السورة آية التدبر المركزية في هذه السورة [٢٤] استنكرت قيام البعض بالإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وذكرت أن هذه الجرائم تستوجب تعطيل جهاز وعي الإنسان: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [٢٣] أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ [٢٢، ٢٣]، مما يعني أنه دعوة للتطهر من الذنوب والكبائر حتى يستطيع الإنسان التأهل لفهم كلام الله!.

ولما كان المنافقون أصحاب قلوب مريضة وذنوب كبيرة، فإنهم لم يستفيدوا من جلوسهم مع الرسول ﷺ ولا من سماع آيات الله، عكس الصحابة الذين فقهوا القرآن والسنة لأن مصادر التلقي عندهم كانت نظيفة صحيحة.. قال تعالى في هذا الشأن: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّهُمَا قَوْلُ اللَّهِ الْعَلِيِّ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَانْبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [١٦]. ويؤيد ذلك قصة نزول الآية في المنافقين والمؤمنين<sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أن العقل إناء وأن مضمونه هو المعرفة، فإذا كانت صحيحة ستكون قرارات العقل صحيحة، والعكس صحيح، ولهذا لا بد من العلم، وهذا ما أولته هذه السورة اهتمامها في هذا السياق.

#### رابعاً- التسليح بالعلم والعرفان:

لسنا بحاجة إلى التذكير بموقف الإسلام من العلم والمكانات التي رفعها للعلماء، فقط سنخرج على أهم الآيات في هذه السورة التي أولت العلم اهتمامها وتقديرها البالغين.

١- انظر: عبدالرحمن السيوطي (ت/٩١١هـ): أسباب النزول، ط١ (القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢٢ = ٢٠٠٢)، ص ٣٧١، ٣٧٢.

في الآية الرابعة عشرة إشارة إلى أن العلم يوفر البيئات والبراهين على الوهية الله، ويحمي صاحبه من اتباع الأهواء وتزيين الأعمال؛ أي أن الفرد في حالة جهله يكون ضحية لعدو من داخله وهو الأهواء الذاتية، وعدو من خارجه وهو التزيين الذي يقوم به الشيطان، ولذلك فإن العلم حصن منيع من الشيطان.

والعلم يمثل طريق اليقين لدراسة عالم الغيب والوصول إلى وحدانية الله، قال تعالى ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [١٩]، هذا في عالم الغيب فكيف بعالم الشهادة؟

إن العلم ينقل المسلم من الإيمان العاطفي التقليدي إلى الإيمان البرهاني الذي يورث العرفان واليقين. ومن خلال معرفة ما يتصف به المنافقون من مرض في القلوب تومئ بعض الآيات إلى أن الإيمان والعلم يثمران صحة القلوب [الآيتان: ٢٠، ٢٩].

والعلم يحتاج إلى صحة جهاز الوعي، فإذا كان القلب مريضاً، كما مر معنا بالنسبة لقلوب المنافقين التي طبع الله عليها، فإن الأهواء ستسكنها [١٦]، ولن يكون للعلم الذي يورث الخشية محل من الإعراب فيها!!.

#### خامساً- التحلي بالأخلاق والآداب الطيبة:

من الطبيعي أن العلم الذي يتم تحصيله وفق المنهج القرآني سيثمر أموراً كثيرة تتمحور حول خشية الخالق والتعامل الأخلاقي مع المخلوقين، ولهذا أبرزت سورة (محمد) الأخلاق كواحدة من صفات جماعة محمد وأتباعه، وكنماذج من الأخلاق المحمدية في هذه السورة:

- الطاعة والصدق وقول المعروف [٢١].

- الاستغفار والتوبة: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَابِكُمْ وَمَثُونَكُمْ ﴾ [١٩]، وإذا كانت هذه



المطالبة موجّهة لأكمل الخلق محمد ﷺ فكيف الحال بغيره؟

ولأن الاستغفار هو ديدن المؤمن وأحد أحواله، فقد وضع الله المغفرة بجانب نعيم الجنة في درجة واحدة وآية واحدة، ضمن وعد الله للمتقين [١٥].

- الصبر: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [٣١].

- العزة والقوة والمنعة: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [٣٥].

وتوصلنا هذه المفردة إلى صفة جديدة هي مسك الختام في هذه الصفات، وهي الجهاد.

#### سادساً- الجهاد العملي الشامل:

من المعلوم أن الجهاد أوسع بكثير من القتال، فالجهاد يشمل التضحية بالجهد والمال والوقت والطاقة في سبيل هذا الدين وهذه الأمة، في سياق استعمار الأرض، وخدمة الخلق، وعمارّة الحياة.

وقد استعرضت السورة أصنافاً من الجهاد على النحو الآتي:

- الجهاد الدعوي، الذي يدافع به المؤمن الكفار الذين يصدون عن سبيل الله: [١، ٣٢]، فإن المؤمنين يدعون إلى الله، ويوظفون سائر طاقاتهم الدعوية في سبيل الله.

- ممارسة الإصلاح في الأرض وصلة الأرحام مقابل الكفار والمفسدين الذين يفسدون في الأرض ويقطعون الأرحام [٢٢].

- الجهاد الولائي، بحب ما أنزل الله وما أحبه الله، وكره ما يكره الله ورسوله والمؤمنون، وما يحتاج ذلك من تضحيات ومتطلبات، على عكس

المنافقين الذين يوالون أعداء الله حتى يتجنبوا ثمن البراءة منهم [٢٦].  
- الجهاد المالي بإنفاق المال في كل الأبواب التي تدرج ضمن «سبيل الله»  
[٣٨].

- الجهاد القتالي، والوصول إلى ذروة سنام الإسلام عبر نصره الله  
والقتال في سبيله، وتحمل ابتلاءاته، والتضحية بالنفس والنفيس من أجل  
ذلك [٤، ٧، ٢٠، ٣١].

هذه هي الصفات والخصال الست التي أوردتها سورة (محمد)، في  
آياتها الثمان والثلاثين، كأنها عناوين لحزب (محمد) وجند (محمد)  
وأمة (محمد) في كل زمان ومكان، بحيث أن من فرط بها أو بيعضها  
لا يستحق التشرف بالانتساب إلى (محمد)، ولا يتأهل للاستظلال تحت  
راية (محمد)!.  
.

## شلال (النور)

### بين فضائل الشمس و رذائل النفوس

سورة «النور» مدنية، وآياتها أربع وستون، نزلت بعد الحشر، وترتيبها النزولي مائة والمصحفي أربع وعشرون.

سميت بسورة «النور» لتردد لفظ النور فيها بضع مرات، ولا سيما في الآية الخامسة والثلاثين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ، كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٣٥].

تركزت هذه السورة حول إحدى مقاصد هذا الدين العظمى وهي حماية الأعراض والأنساب، فأبرزت النور الذي يبدد ظلمات الرذائل ويضيئ قناديل الفضائل، وأوضحت كيف يُستجلب ويُستلب، كيف يُولد ويُطفأ، كيف تعمل الأشعة وتتحرك العواصف، كيف يتم التنوير ويحدث التكوير، كيف تُبرق الفضائل وتعصف الرذائل، كيف تشع قناديل الأرواح وتتسع غرائز الأشباح، كيف يُشرق التبر ويُظلم التراب، كيف تُشعل الشموع وتُبدد الظلمات، كيف تنير الفطرة وتُظلم دروب الشذوذ وأزقة الانحراف وحفر الفساد وكهوف الانحلال، كيف يضيئ المقدس ويحلّوك المدنس، هذا هو الموضوع الذي تمحورت حوله هذه السورة، ولذلك استحقت هذا الاسم بجدارة: «النور»..

الجدير بالذكر أن الله ذكر (المصباح) مرتين في القرآن كلاهما في النور: ٣٥، وذكرت (مصاييح) مرتين: في سورتي فصلت والملك.

## أولاً - مصابيح «النور»:

أنارت سورة «النور» مجاهل النفوس، وأضاءت دروب الحياة، مسلطةً الضوء على أفاعي الغرائز المحرمة وعقارب الشهوات المندسة، وأعمت أشعتها النجاسة، وحاصرت الدنس، وبددت عتمة النفوس المريضة، وقطعت العلائق الشاذة، ووصلت العلاقات الطاهرة، وأشبعت الرغبات الطبيعية عبر طرق الفطرة.

ويمكن إبراز هذه المصابيح النورانية في عناوين عدة:

١- تجريم الزنا، وتحريم الزواج من الزانيات، وإقامة الحد الشرعي على مرتكب هذه الجريمة في ظل ضوابط شديدة الصرامة: ٢، ٣.

٢- تحريم قذف المحصنات، وتجريم هذا الفعل ومعاقبة صاحبه بعدة عقوبات:

- الجلد ثمانين جلدة ٤: إن لم يحضر أربعة شهود كاملي الأهلية والعدل.  
- عدم قبول شهادة القاذف وإدخاله ضمن قائمة الفاسقين: ٤.  
- اللعن في الدنيا والآخرة، وهو الطرد من رحمة الله والحرمان من عفوه ورأفته: ٢٣.

- استحقاق العذاب العظيم في الآخرة: ٢٣.

- اشتراك الجوارح في الشهادة عليه: الألسنة التي نطقت، والأيدي التي أشارت، والأرجل التي سعت في طريق الإفك والزور والقذف والإشاعة: ٢٤.

٣- وجوب حسن الظن بالمؤمنين والابتعاد عن الاتهام وسوء الظن:

- فقد أطلق الله على المقذوفات مصطلح: المحصنات ٤؛ لأن الأصل أنهن كذلك، وفي اللفظ إشارة إلى عدم جواز التجسس واقتحام خصوصيات النساء وتركهن في حصونهن المعنوية والمادية؛ حيث إن لهن حرمانتهن حتى يثبت العكس، وهو لا يثبت إلا بأربعة شهود عدول، بشهادات كاملة الوضوح والتطابق.

- وضع المرء نفسه محل الآخر، بحيث يرفض له ما يرفض لنفسه، ولا يقبل عليه إلا ما يقبله على نفسه، قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [١٢].

- وفي نفس السياق قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [١٦].

٤- التحذير من إشاعة الفاحشة، ومن انزلاق الألسن إلى مستنقع الاتهام والقذف والرمي أو حتى ترديد ما يقال وراء كواليس المجتمع في هذا الصدد، وتعظيم هذا الأمر لأن الكلمة قذيفة، ولذلك استخدم القرآن مصطلح «يرمون»، وجعل الإفاضة في الإفك والاتهام تستوجب العذاب العظيم: ١٤. وأكد القرآن فداحة هذا الخطب، وعظم هذا الجرم بقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [١٥].

ويحذر المولى عز وجل من اشتركوا في جريمة قذف الصديقة عائشة بنت أبي بكر، بقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٧]. ووصل الأمر إلى إطلاق الوعيد الشديد بشقيه الدنيوي والأخروي، ليس بحق من اشترك في إشاعة الفاحشة؛ بل في حق من يجب أن تشيع الفاحشة أيضاً: ١٩.

٥- تحريم اتباع خطوات الشيطان، والتحذير من عواقب ذلك، لأن الشيطان «يأمر بالفحشاء والمنكر»: ٢١، ويعرف كيف يدغدغ عواطف الإنسان وكيف يستثير غرائزه ويستفز شهواته، إن لم ينتبه الإنسان ويلجم نفسه الأمانة بالسوء، وذلك بعقله وإيمانه.

٦- وجوب التزواج بين الخلايا الطاهرة داخل المجتمع، ومحاصرة الخلايا الخبيثة حتى لا تنتقل العدوى، بحيث لا يتزوج الطيب إلا من طيبة ولا يتزوج الخبيث إلا من خبيثة: ٢٦.

٧- عدم دخول بيوت الآخرين إلا بعد استئذان أصحابها والتسليم عليهم:  
٢٧، ٢٨، مع الالتزام بكافة الآداب وتذكر رقابة الله الذي وصف  
نفسه بأنه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْكُمْ﴾: ٢٨، وبأنه ﴿يَعْلَمُ مَا تُدْرِكُونَ وَمَا  
تَكْتُمُونَ﴾: ٢٩.

٨- وجوب غض الأبصار وحفظ الفروج للذكور والإناث، والتحذير من  
أن ﴿اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَصْنَعُونَ﴾ [٣٠]، مع حرمة إبداء النساء للزينة غير  
الظاهرة إلا لأزواجهن ومحارمهن الذين نصت عليهم السورة: ٣١.

٩- إنكاح العاجزين عن الزواج من الذكور والإناث من الذين تتوق أنفسهم  
إليه، ولأهمية هذا الأمر وعد الله الفقراء المتزوجين بسعة الرزق: ٣٢؛ وهو  
ما يؤكد رؤية الإسلام الشاملة التي لا تفصل بين الدنيوي والأخروي،  
وأن هذا الدين يريد للبشر أن يتمتعوا بالطيبات ولكن بطريقة منظمة،  
وأن هذا التمتع عبادة يستحق أصحابها الثواب، وإلا لما وعد الله الفقراء  
الذين يتزوجون من أجل الاستعفاف بسعة الرزق!.

١٠- دعوة العاجزين تماماً عن الزواج إلى الاستعلاء فوق الشهوات  
والاستعفاف حتى يغنيهم الله من فضله: ٣٤. وتحبيذ الاستعفاف بترك  
الزينة حتى للعجائز اللاتي لا يرجون نكاحاً: ٦٠.

١١- ضرورة مكاتبة العبيد والإماء للتحرر من الرق إذا أرادوا،  
ومساعدتهم بالمال من أجل تحقيق هذه الغاية، لكن الآية تربط هذا الأمر  
بالمصلحة العامة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾  
[٣٤]. فإن لم يعلموا فيهم خيراً، بأن كان تحررهم سيجعلهم معول هدم في  
صرح المجتمع، فإن بقاءهم في الرق أفضل، لأن المصلحة العامة تُقدم على  
المصلحة الخاصة، لكن هذا الأمر لا يقوم على الظنون والانطباعات بل على  
العلم اليقيني ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

١٢- تحريم البغاء ووجوب التحصن والتحصين: ٣٣.

١٣- الاستئذان في الدخول إلى الغرف في الأوقات الثلاثة الحرجة، وهي أوقات التخفف وخلق الثياب أو تغييرها: ٥٨، ٥٩، ولأهمية هذا الأدب، ولأنه قد يبدو هيناً عند البعض، فقد أشار الله إلى الحكمة منه في الفاصلة التي تقع في نهاية الآيتين، حيث انتهت كل آية منهما بذات الفاصلة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١٤- الصرامة في حماية الأعراض: ويتضح ذلك من خلال أمور عدة، أهمها:

- تفصيل القرآن في الأمور ذات الصلة بالأعراض على غير عادته في الإجمال.

- اشتراط الشهود العدول والذين لا يقل عددهم عن أربعة تتطافر شهاداتهم، وتكون بنفس الوضوح، ونلاحظ أن التعبير القرآني لم يسمهم شهوداً بل «شهداء»، بحيث يكونون في أعلى درجات الورع والعدالة والخوف من الله.

- ربط الزنى بالشرك، وتسويته به من حيث القبح، قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣].

- اتخاذ عقوبات صارمة لحماية الأعراض، وهي الجلد مائة والتغريب للعاذب الزاني، والرجم للمتزوج، والجلد ثمانين جلدة للقاذف، وما دون ذلك من جرائم الشرف تطبق عليها العقوبات التعزيرية التي تخضع لتقدير القاضي.

ويبدو أن الجلد مائة للزاني وثمانين للقاذف مرتبط بخراب حصن المعتدى عليه، حيث إن المرأة تكون محصنة في بيت الشرف والإيمان، فمن يرميها بالزنى يكون كمن رمى بيتها بقذائف المنجنيق، ولذلك سميت الجريمة بالقذف، والقرآن قال: «يرمون»، والغرفة التي تستر الفرد الواحد

تتكون من ٨٠ - ١٠٠ حجرة، فتصير كل جلدة مقابل حجرة سقطت من هذه الغرفة التي انتهك حصانتها وحرمتها القاذف، لأن الجزء من جنس العمل.

- الوعيد بمزيد من العقوبات الدنيوية إضافة إلى العقوبات الأخروية وهي أشد وأنكى، ولذلك تكرر الجمع بين عقوبات الدنيا والآخرة في عديد من الآيات: [١٤، ١٩، ٢٣] وغيرها من الآيات التي تحدثت عن العقوبات دون استخدام لفظي الدنيا والآخرة.

١٥- ممارسة التزكي بالأعمال، فالإنسان مخلوق من الطين والروح، ولطين آثاره الفجورية، كما للروح آثارها التَّقْوِيَّة، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وفي امتداد هاتين الآيتين قال تعالى: ﴿ وَالْحَمِصَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [٩، ١٠]. وقد أنارت سورة «النور» مجاهل النفس البشرية بالدعوة للتركي بالأعمال، ففي آية الدعوة للاستئذان والتسليم قبل دخول بيوت الآخرين، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [٢٨]. وفي آية غض الأبصار، قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [٣٠].

ولفت الله الأنظار إلى أن هذه الأعمال سبب في التزكية، وإلا فإن الله هو مالك التزكية، والشيطان عدو هذه التزكية، ولذلك بدأ به، لأن التخلية قبل التحلية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢١].

إذن، هذه هي المصاييح التي تشيع النور وتحاصر الظلام، ولكن



ما المحطات التي ترسل النور إلى هذه المصابيح؟

### ثانياً- محطات إرسال «النور»:

ترسل سورة «النور» ضياءها عبر سبع محطات، هي:

#### ١- محطة الإيمان:

بُنيت هذه المحطة على اليقينية الكونية الكبرى، وهي أن الله هو خالق السماوات والأرض ورازقها وهاديها ومنيرها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣٥]، فهو مالك ما في هذا الكون، ولهذا أكدت آخر آية في السورة هذه اليقينية: ﴿الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٦٤].

ولأنه المالك فإنه الملك: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [٤٢]. ولهذا فإنه منزل المطر والبرد: ٤٣، وخالق سائر الدواب والأنعام والزواحف: ٤٥، وهو الرزاق المتفضل: ٣٤، ٣٨، وهو الذي يعلم كل شيء، ويحيط بكل شيء ولا يخفى عليه شيء، ويتصف بالسمع والبصر: ١٨، ٢١، ٢٨ - ٣٠، ٣٢، فقد أثبتت فواصل هذه الآيات هذا العلم المطلق والرقابة الدائمة لله على خلقه، وأكدت آيات أخرى محذرة من أن عواقب انفلات الإنسان عن رقايبته تعالى - في ظنه الواهم - أنه سيكون أول الخاسرين: ٥٣، ٥٨ - ٦٠.

وحذرت السورة من أهوال يوم الجزاء، ومن ضياع الأعمال وتبدد الآمال التي بينيها الناس على ما قدموا إن لم يحضر الإيمان: ٣٩، ٤٠، وحثت على طاعة الرسول ﷺ: ٣٧، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٦. وفي الأمور الجامعة تشدد الحاجة للطاعة ولا يجوز التولي إلا للضرورة وبعد الاستئذان: ٦٢.

وربطت السورة بين الإيمان والاستجابة لحاكمية الله ورسوله، إذ لا إيمان بدون طاعة لحاكمية الله ورسوله: ٥١، ٥٢، ومن حاكمية الله تطبيق ما سنَّه من عقوبات وحدود ضد المجرمين والمنحرفين، كجلد الزناة، حيث لا يطبَّق

هذا الحد وبدون رافة بالزناة إلا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر: ٢.

وأوضحت السورة أن الإيمان هو الذي يرسم طريق التمكين: ٥٥، وختمت بآية إيمانية جامعة؛ حيث أثبتت الملكية الكونية لله، وعلمه المطلق بأحوال عباده، وتوعدهم باللقاء في الآخرة للمحاسبة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [٦٤].

٢- محطة القرآن:

الإيمان منظومة متكاملة من الحقائق الغيبية التي لا يثبت أصلها عبر حواس وقوانين عالم المادة، وإنما عبر الوحي، ولذلك كان القرآن واحداً من محطات الإرسال لهذا النور الخالد إلى قيام الساعة، فهو الهدى من الضلال، والفرقان بين الحق والباطل.

وفي مجال العلاقات الاجتماعية، ولا سيما ما يرتبط بالجنس والنكاح والغرائز والشهوات، فإن أمورها شديدة الحساسية والخطورة، ولذلك خصها القرآن بالتفصيل، حيث نزلت فيها آيات كثيرة، وخاصة في هذه السورة التي ميزها الله بمبناها ومعناها، وتفردت بالافتتاحية المختلفة، قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١].

ومع أن القرآن الكريم منزل من الله ومفروض على المسلمين كدستور ينظم شؤون حياتهم، إلا أن الله خص هذه السورة بمطلع فريد يؤكد هذه الحقيقة؛ لخطورة الموضوع الذي تناقشه. ومع هذا الإنزال والإيجاب والتوضيح للآيات، إلا أن ثمرتها لا يمكن أن تقطف ما لم يقيم الإنسان بذلك، ولذلك كانت فاصلة الآية الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١].

وقد ظل ديدن السورة التذكير بأن هذه الآيات من الله الذي يبينها لصالح الناس حتى يتعلموا ويحفظوا حياتهم من التأسن والتعفن والانحلال. ولهذا أتبع الحديث عن الإفك بقوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١٨﴾، وختم آية الاستئذان في المواقيت الثلاثة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٥٨]، وعندما أكد على هذا الموضوع الذي قد يراه البعض بسيطاً، ختم بنفس الفاصلة (تقريباً). أما آية الأكل في بيوت الأقارب، فقد ختمها الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٦١].

ويؤكد الله سبحانه على إنزاله للآيات المبينات من أجل هداية من يشاء إلى صراط مستقيم: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٤٦].

### ٣- محطة التاريخ:

من يقرأ القرآن سيجد مساحة ضخمة منه قد خصصت للحديث عن الأمم السابقة، عن الصراع: بين الحق والباطل، بين الهداية والضلال، بين الخير والشر، بين المعروفات والمنكرات، وعن سنن هذا الصراع، وسنن قيام المجتمعات والدول والحضارات وسقوطها، وعن العبر والدروس والمواظب المستفادة من هذه القصص.

وقد ربطت هذه السورة بين محطة القرآن ومحطة التاريخ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٤]. ولأن الحديث عن قضية اجتماعية، فقد اكتفت بهذه الإشارة إلى كتاب التاريخ، وانتقلت بذات السرعة إلى كتاب الكون.

### ٤- محطة الكون:

أوردت هذه السورة بعض المشاهد الكونية المتحركة ناحية التسخير لخدمة الإنسان، لافتة النظر إلى ما وراء هذا المشهد، من خلال إيجابها التفكير على الإنسان، ولا سيما أن بعض هذه المشاهد تحتوي على بعض صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، كالأية ٤٣ التي تحدثت عن كيفية تكون المطر، من خلال إرسال السحب ذات الشحنات الموجبة والسالبة ثم

التأليف بينها عبر قانون التزاوج لينزل المطر، وهذا الوصف لمن تمعن فيه يتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث تماماً عن تكون المطر، والشاهد هنا أن الله بدأ هذا المشهد وهذه الآية بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ... ﴾ وهي دعوة للنظر بعين البصيرة.

وسارت الآية التي تليها في ذات الدرب، حيث أوردت ظاهرة تقليب الله لليل والنهار وهي دليل على كروية الأرض، وهذا الأمر لم يملك العلم فيه يقيناً إلا في العصر الحديث، وختمت هذه الآية بالدعوة للتبصر والاعتبار بها: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [٤٤].

وأطلقت السورة دعوة أخرى للتفكر والتأمل، وذلك في التيار الكوني الغامر الذي يُسبح لله في السماوات والأرض، وخصَّ الطير بالذكر هنا، لتمييزها في هذا التسبيح، مؤكداً أن جميع المخلوقات الحية تدرك وتعلم صلاتها وتسبيحها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤١]. وهذا يعبر بنا إلى محطة العبادة.

#### ٥- محطة العبادة:

نقصد بالعبادة هنا إقامة الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج والذكر، فإن مقاصدها ذات صلة وثيقة بالنور الذي ينير لصاحبه دروب الحياة، فيرى الحق حقاً ويقوى على اتباعه بسبب هذا الزاد المستمد من الله، ويرى الباطل باطلاً ويقوى على اجتنابه. وأهم محطة شعائرية هي الصلاة التي ورد ذكرها في السورة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزُّكُوفَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [٥٦]، فإن إقامة الصلاة وهي قاعدة حقوق الله كما أسلفنا، والزكاة وهي قاعدة حقوق الناس، وطاعة الرسول وهي ضمانه هذا وذاك، هي الطريق لنيل رحمة الله كما في فاصلة الآية.

ولأن الصلاة هي عمود هذا الدين، فقد أولاهما القرآن اهتماماً بالغاً، وحرص على أن تقام في المساجد، ولهذا صارت المساجد محاضن لتربية الرجال ومصدراً من مصادر توليد النور، وصارت الرجولة صفات، وليست جنساً، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمَهُ، يُسَبِّحُ لَهُ، فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ ﴾ (٣١) رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ بَحْرَةَ وَلَا بَيْعَ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِبَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿ [٣٦، ٣٧]، وتوضح الآية الأخرى أن العبادة غاية وأن الدنيا وسيلة.

هذه الشعائر هي جزء من دائرة العبادة المتسعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(١)</sup>. ولهذا لم تفصل أكثر الآيات بين الشعائر وعموم العبادة، مثل آية الوعد الرباني بالاستخلاف والتمكين للمؤمنين الذين أثمرت شجرة إيمانهم أعمالاً صالحة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٥٥].

لقد أوضحت هذه الآية بجلاء أن الطريق إلى الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، وتبديل الخوف أمناً، هو العبادة الخالصة التي لا شريك فيها، في كل مجالات الحياة، دون تضيق بين العبادة في محراب الصلاة، والعبادة في محراب الحياة.

#### ٦- محطة العقل:

العقل هو أداة استيعاب وتشغيل وتجسيد المحطات السابقة جميعاً، فهو يشترك مع القلب في فهم الإيمان والتأثر به وتحويله إلى طاقة بانية لعمارة

١- العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد. ط٣ (الإسماعيلية - مصر: دار الأضالة، ١٤١٩ =

الأرض، من خلال عمل الصالحات، وهو الأداة التي ستدبر القرآن وتتفكر في آيات الكون، وتتبصر بآيات المجتمع وعبر التاريخ، وهو كذلك شرط قبول العبادة التي لا بد من حضور العقل فيها بالوعي، كما القلب بالخشوع، حتى توتى ثمارها وتحقق مقاصدها.

ولأهمية العقل أوضحت السورة أن تبيين الآيات للناس لعلهم يعقلون: ٦١، وأنه عندما يأمرهم أو ينهاهم فلعلهم يتذكرون: ٢٧. ومن أجل أن يفهم العقل ويستوعب المقصود فقد ضرب الله الأمثال: ٣٥.

ويبين الله في هذه السورة جهل الناس وعابيه، فالذين شاركوا في تناقل خبر الإفك من مسلمي المدينة هم ممن لا يعلمون: ﴿وَقَوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [١٥]. فإن هذا الجهل جعلهم يرون هذا الأمر هيناً وهو عند الله عظيم: ١٥.

وفي توعدهم للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٩]. ولأهمية العلم ختم الله فواصل كثير من الآيات بصفاته الحسنى: العليم: ١٨، ٢١، ٢٨، ٣٢، ٣٥، ٤١، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٤. وكذا اسم الحكيم: ١٠، ١٨، ٥٨، ٥٩، ومثله الخبير.

ولعناية السورة بالعلم والعقل أوردت عدداً من الآيات التي هي محل للإعجاز العلمي كما أثبت ذلك العلم الحديث، وأهمها:

- الحديث عن شجرة الزيتون المباركة وما فيها من فوائد جمة أثبتها العلم اليوم: ٣٥<sup>(١)</sup>.

- وجود الأمواج الباطنية والظلمات في المحيطات العميقة والتي لم يكتشفها العلم إلا سنة ١٩٠٤<sup>(٢)</sup>.

١- انظر: د. محمد كمال عبد العزيز: الأطعمة القرآنية: ٦٢ - ٧٢.

٢- الشيخ عبدالمجيد الزنداني: بينات الرسول: ص ١١٣، د. محمد حسن هيتو: المعجزة القرآنية: ص ١٩٣.

- تكوين المطر وتلاقح السحب ذات الشحنات الموجبة بالسحب ذات الشحنات السالبة: ٤٠<sup>(١)</sup>.

- تقلب الليل والنهار كمظهر من مظاهر كروية الأرض: ٤٤<sup>(٢)</sup>.

- الماء أصل الحياة في كل الحيوانات: ٤٥<sup>(٣)</sup>.

وهكذا، فإن العقل بما يملك من طاقات في تكوينه وبما يمتلئ من معارف تتحول إلى أفكار ومشاريع وأعمال، هو محطة أخرى من محطات هذا النور، ويوصلنا إلى المحطة الأخيرة، وهي الحقوق الإنسانية.

#### ٧- محطة الحقوق الإنسانية:

يتركز «النور» على حقوق الإنسان، فهي -أي الحقوق- ثمرة لهذا النور، وهي مقدمة له أيضاً، بمعنى أن الإنسان الذي يملك قدرًا من طاقة النور مهما يكن مصدره، فإن هذا النور يثمر قدرًا من خدمة حقوق الإنسان، وعلى الأقل من مراعاة حرمتها، وعندما تقام هذه الحقوق على علم ويُراد بها وجه الله فإنها تولد مزيدًا من النور، وهكذا تصير حقوق الإنسان بالنسبة للنور مقدمة ونتيجة في الوقت ذاته.

وإذا توفر لأي عمل شرط العلم والإخلاص، فهذا يعني بالضرورة وجود الإيمان، ولهذا اقترن عمل الصالحات بالإيمان، مثل اقتران الزكاة بالصلاة في عشرات المواضع في القرآن، فالإيمان شجرة ربانية ثمرتها حقوق إنسانية، ومن هنا نقول بأن الإسلام دين إنساني غير فئوي ولا عنصري، من ناحية أن مقاصده كلها مُسَخَّرَةٌ لصالح الإنسان -كل الإنسان، أما الله فهو غني عن عبادة العالمين.

إذن الإيمان يشترك مع عمل الصالحات في تحقيق التمكين للمسلم: ٥٥،

١- انظر: د. محمد حسن هيتو: المعجزة القرآنية: ص ٢٠٩.

٢- نفسه: ص ١٨٥.

٣- انظر: د. فؤاد البنا: إيجاز البيان في إعجاز القرآن: ص ١٢١.

وكلاهما يدخل ضمن دائرة العبادة الواسعة، فالإيمان يرسم الطريق إلى التمكين، وعمل الصالحات يُعبد الطريق إليها، ويصنع الروافع التي تمكن المسلمين من الوصول إليه.

ولما كانت الزكاة - كما ذكرنا من قبل - قاعدة ورمزاً لحقوق الإنسان، فقد جعلها القرآن من أركان الإسلام التي أولاهها اهتمامه البالغ، وجعلتها سورة (النور) مقصدًا من مقاصد هذا الدين التي لا يُلتهى عنها المؤمنون بأى عَرَضٍ من أعراض الدنيا: ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يُخَافُونَ يَوْمًا نُنْقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [٣٧]، فإن الانشغال بالذات لا يمكن أن يكون على حساب الآخرين، إلا إذا تسللت الدنيا إلى القلب وصارت غاية، وهذا الأمر قد يقع فيه الذكور والإناث، أما الرجال الذين تخرجوا من بيوت الله فإنهم لا يفعلون ذلك!.

وأوصت السورة بالجمع بين حقوق الله وحقوق الناس كطريق إلى استحقاق رحمة الله في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٥٦].

ولعناية السورة بحقوق الإنسان، فقد أولت عناية خاصة لأصحاب الأعدار، ورخصت لهم ما لم ترخص لغيرهم، مثل العجائز اللاتي أباح لهن الإسلام التخفف من ثيابهن بدون تبرج: ٦٠، ورخص للأعمى والأعرج والمريض ما لم يرخص لغيرهم: ٦١، وأباح لأصحاب الحاجات الترخص والاستئذان في الأمور الجامعة، بل وأمر الله الرسول ﷺ أن يستغفر لهم: ٦٢.

ونلاحظ مراعاة السورة لحقوق الإنسان حتى في العقوبة، فالعقوبة تأديبية وليست انتقامية، ولهذا ينبغي في العقوبات التي يُستخدم فيها الجلد، سواء كانت حدية أو تعزيرية، أن تتم برفق حتى لا تنفذ إلى داخل الجسم وتُسبب له أي عاهة أو مشكلة، هذا الأمر - بالنسبة للسورة - يؤخذ من قوله تعالى ﴿فَأَجْلِدُوا﴾ أي: اضربوا الجلد لإيلاج الجلد فقط، وتأديب المعاقب، بجانب



تخويف من تسول له نفسه اقتراف مثل تلك الجريمة، ولذلك حثت السورة على حضور إقامة الحد طائفة من المؤمنين: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢]. ومع أن الإيلام يكون للجلد فقط، فقد سمى الله هذا الأمر عذاباً، بسبب القيمة العالية لكرامة الإنسان عامة والمسلم خاصة، وتحقق هذا العذاب في الجانب النفسي أكثر من الجانب الحسي.

هذه هي المحطات التي تتكفل بتوليد النور الذي يحتاجه الإنسان دوماً، كنور وزاد للطريق، كي يستطيع رؤية معالم الطريق، ومعرفة طريقه الصحيح مهما اشتعلت الحرائق وارتفعت الأدخنة، ومهما هبت الأعاصير مثيرة الرمال والأتربة، وكي يستطيع الاستمرار مهما كانت العقبات الخارجية والنوازع الداخلية؛ إذ إن هذه المحطات تعطيه من الطاقة والقوة ما يساعده على الاستمرار في السير.

### ثالثاً- عواصف الظلمات:

أوردت السورة عدداً من الفتن والآفات والانحرافات التي تتولد داخل الإنسان نتيجة ظلام قلبه، ثم ما تلبث أن تتحول إلى سلوك حركي داخل المجتمع، هذه السلوكيات بدورها تصبح عواصف سوداء تعيث في المجتمع فساداً، حيث تطفئ فتاديل العرفان، ومصايح العقل، وأنوار الطهارة، وأضواء النظافة والنظام والالتزام.

الجدير بالذكر أن هذه العواصف الظلامية ورد ذكرها في سياقات متعددة، وبأساليب مختلفة، لكن القراءة الكلية للسورة في سياق هذا الموضوع تبرزها على النحو الآتي:

#### ١- عاصفة الكفر:

الكفر ريح عاتية تطفئ بصيرة العقل، وتُسود فتدليل القلب، وتكسر مصباح الفطرة، وتجرف أصول الخير في الإنسان، وقد أوردت سورة «النور»

أن الكفر مهما كانت أعمال صاحبه فإنه يحيلها إلى سراب ﴿بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ  
 الظَّمَّانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوفًا لِّحِسَابِهِ ۗ  
 وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٣٩]. ولأن الكافر لا يؤمن بالله ولا بالآخرة فإن  
 أعماله مشوبة بالأكاذيب والخُدع، فتصير كالسراب، ولأنها واطئة ومنصبة  
 على توفير متطلبات الرغبات الذاتية لهذا الكافر، فقد شبهها الله بالسراب  
 في قيعه، وهي المكان الفارغ المتسع والهابط غالبًا!

وضربت السورة مثلا آخر لأعمال الكفار، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي  
 بَحْرِ لَيْلٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ  
 بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا ۗ وَمَنْ لَّنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [٤٠]  
 ويزيد هذا التشبيه روعة وجلالا ودقة ما كشفه العلم الحديث -مما أشرنا  
 إليه سابقًا- من أن الأماكن العميقة في المحيطات والبحار الكبيرة -في بحر  
 لجي- تكون مظلمة غالبًا بالسحب التي تمنع أشعة الشمس من الوصول  
 إلى المياه، وتشهد هذه المناطق العميقة في البحار وجود أمواج باطنية غير  
 الأمواج السطحية، من أجل إبقاء الكائنات البحرية على الحياة، لكن هذا  
 العمق الشديد، مع وجود الأمواج الباطنية ثم الأمواج السطحية ثم السحب  
 تمنع كلها الضوء من النفاذ إلى قيعان هذه البحار، فتصير شديدة الظلام،  
 هذا هو مثال الكفر في سورة «النور»!

إذن، الكفر هو أشد أنواع الظلمات، فإن ظلمته تحيل مياه الأعمال إلى  
 سراب، وأعاصيره تطفئ سراج الروح وتندبل القلب وشمعة العقل.

## ٢- عاصفة التولي والإعراض:

وصف الله صنفًا من المحسوبين على الإسلام والمسلمين، فقال تعالى:  
 ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
 وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْمَعْقُ يُاتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَلَمْ يَأْتُوا رَسُولَهُمْ مَرَضًا أَمْ آتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧-٥٠﴾،  
ومن هذه الآيات نستنتج أن التولي والإعراض يمهدان الطريق نحو النفاق والظلم. ولأن السورة تربي وتعلم ولا تقضح، فقد جاءت آيتان بعد هذه الآيات توضحان كيف ينبغي أن يكون موقف المؤمنين إذا دُعا إلى الله ورسوله، حيث السمع والطاعة للذان هما جناحا الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.  
هذه العاصفة الخطيرة هي التي حدثت بالسورة لتكرار الأمر بطاعة الرسول ﷺ، والإشادة بها، والتحذير من مخالفتها في مواضع عدة من السورة، كما أشرنا في موضع سابق.

إن هذا التولي يُعد طريقاً إجبارياً يوصل حتماً إلى النفاق، والنفاق يطفئ القلب ويعمي البصيرة، ويصيب جوارح الخير وملكاته بالشلل التام؛ وهو ما يُفقد المجتمع الكثير من المصاييح والأنوار.

ويرتبط بهذه العاصفة عدم توقير الرسول ﷺ، ومخالفة أمره، فقد أبانت السورة أن ذلك يؤدي إلى الفتنة والعذاب الأليم: ٦٣. الفتنة في الدنيا وهي غيوم وأدخنة تحجب الرؤية وتخلط الأوراق، وتصل إلى حد قلب الأوضاع والحقائق، فيصير المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

أما العذاب الأليم فيكون في الآخرة، ولا يحيق هذا العذاب في الآخرة إلا بمن أظلم بصيرته وسار في الظلام، وأول صور العذاب الأليم أن يُبعث المرء يوم القيامة أعمى، كما ورد في مقام آخر من القرآن قوله تعالى:  
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيَتْنا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿طه: ١٢٤ - ١٢٦﴾.

### ٣- عاصفة الزنى:

الزنى وما يرتبط به من مقدمات ونتائج هو العاصفة الرئيسية التي ركزت السورة على معالجتها، لارتباط الزنى بأخص خصوصيات الإنسان وهو العَرَضُ، ولارتباطه بأعلى ما يملك وهو الشرف، ولارتباطه بالنسل واختلاط الأنساب. وحماية العرض والنسل من المقاصد والكليات الخمس لهذا الدين، وهو بعد ذلك مرتبط بشهوة من أخطر شهوات البشر إن لم تكن أخطرها بالفعل، فهي أشبه بقنبلة يمكن أن تنفجر بأي مجتمع شاعت فيه هذه الشهوة بدون عقاب، وانطلقت فيه غريزة الجنس بدون نظام، ولا سيما في هذا العصر الذي أشيعت فيه الفاحشة وكثرت المثيرات الجنسية في وسائل الإعلام المختلفة، وظهرت فيه السينما الهابطة والأزياء الفاضحة التي تثير الغرائز، وتحرك الشهوات، وصارت مواخير الدعارة وأسواق البغاء أمراً طبيعياً، بل وحرقة عادية يقتات منها كثيرون وتتعيّش من ضرائبها حكومات<sup>(١)</sup>.

وقد ألحقت الفوضى الجنسية بصحة البشر الكثير من العاهات، وأضافت إلى قائمة الأمراض العديد من الأمراض الخطيرة، كالزهري والسيلان، ووصل الأمر إلى اجتياح أحد هذه الأمراض لجهاز المناعة في جسم الإنسان وهو ما يعرف بالإيدز، إضافة إلى تقطع الأواصر وانزواء الحب الحقيقي، واختلاط الأنساب، وظهور ملايين من الأطفال غير الشرعيين، غير أضعافهم ممن يتم إجهاضهم عبر وسائل وأساليب كثيرة مضرّة ومحرمة<sup>(٢)</sup>.

لهذا كله اهتمت سورة «النور» بإبطال مفعول هذه القنبلة ومعالجة هذه

١- حول مشكلة الجنس في هذا العصر ومعالجة الإسلام لها انظر: فتحي يكن، الإسلام والجنس.

د. مصطفى عبد الواحد: الإسلام والمشكلة الجنسية. وبكر بن عبد الله أبو زيد: حراسة الفضيلة.

٢- حول أضرار الزنى الصحية والاجتماعية، انظر: عفيف عبد الفتاح طبّارة: الخطايا في نظر

الإسلام: ص ٧٢ - ٧٧.

الآفة الجائحة، من خلال محاربة المقدمات وتجفيف المنابع، ومن خلال العقوبات الصارمة. حيث ورد في هذه الجريمة حدان شرعيان من الحدود الشرعية على قتلها، وهما حد الزنى وحد القذف، إضافة إلى التغريب والتعزير والعقوبات المعنوية، وبعد هذا كله تأتي العقوبات الأخروية.

وفي إطار حماية العرض والأنساب، جاء الإسلام وكان البغاء أمراً عادياً وتقوم به ما تسمى بذوات الرايات الحمر، فَحَرَّمَهُ الإسلام تحريماً قطعياً، ولما كان البغاء يعتمد على الجوازي، بأمر من أسياهدن كمصدر من مصادر الدخل، فقد حرمت السورة الأمرين معاً: بغاء النساء، وبغي الرجال الذين يكرهونهن على ذلك: ٣٣.

وفي الإطار ذاته أوجد الإسلام مخرجاً خاصاً لقضية اتهام الزوج لزوجته بالزنى دون أن يمتلك الشهود الأربعة، فلا يُطبق عليها حد الزنى إذا أنكرت، ولا يُطبق عليه حد القذف إذا لم يأت بالشهود، بل يطبق عليهما حكم جديد وهو اللعان الذي تفردت به سورة «النور»: ٦ - ٩.

#### ٤- عاصفة القذف وسوء الظن:

وهي شقيقة العاصفة السابقة، ولذلك نصت السورة على هذه الجريمة في الآية التالية لآتي الزنى، حيث أطلقت الآية على اتهام العرض مصطلح «الرمي»، وأوردت العقوبة المادية: الجلد ثمانين سوطاً، والعقوبات المعنوية بشقيها الدنيوي والأخروي، مما أسلفنا في ذكره: ٤، ٥.

وأوردت السورة مثالا عملياً لقذف المحصنات، من خلال إيرادها لحادثة الإفك المشهورة ضد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتحليلها للحدث وتداعياته، وتأديبها للمسلمين، وإيرادها لما لا يصح أن يقع، ولما ينبغي أن يكون: ١١، ٢١.

وأكدت السورة على بشاعة هذه الجريمة من خلال العقوبة الأخروية

المهولة التي عاد المقطع القرآني ليوردها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٢٣، ٢٤﴾.

وفي ثنايا المقطع الذي وصلت آياته إلى: ١٤ آية، أبرزت السورة خطورة رمي المحصنات وأشارت إلى عواقبه الخطيرة بإشارات عديدة من خلال:

- التحذير من سوء الظن والدعوة إلى تغليب حسن الظن: ١٢.

- التذكير عدة مرات بفضل الله على الذين تناقلوا الخبر وإلا لكانت العقوبة شديدة: ١٤، ٢٠، ٢١.

- دمع الذي يرمي امرأة أو رجلا بالزنى دون أربعة شهود عدول بالكذب مهما كان حاله: ١٣.

- الحديث عن دور الجهل الذي يسؤل لأمثال هؤلاء تناقل ما لا علم لهم به، وهو الجهل الذي هوّن عليهم هذا الجرم الكبير: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [١٥].

- الوعيد الشديد لمن يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا: ١٩.

- التحذير من العودة لمثل هذه الجريمة، وجعل هذا التحذير موعظة مباشرة من الله: ١٧.

٥- عاصفة هتك الأستار:

إنها سلسلة مترابطة الحلقات، فقد سعت السورة للتخية من أسباب وعوامل هذه الجريمة، ثم التحلية بالبدايل والآداب الكفيلة بقطع الطريق على هذه الجريمة، إن أتبعنا هذه التعاليم والآداب بصرامة.

وهذه العاصفة قد يتسبب بها طرف واحد، وقد يشترك فيها طرفان:

- طرف المرأة المتبرجة التي تتفنن في الإغراء والإغواء، من خلال عرض

محاسنها، سواء قصدت ذلك أو لم تقصده، فإنه يستجلب أصحاب القلوب المريضة من الرجال، ولهذا نهى الله المرأة عن إبداء الزينة وأوجب عليها التحجب: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [٣١].

- والطرف الذي ينظر ويديم النظر، ولهذا أمر الله الجنسيتين بغض الأبصار، حيث أفرد الذكور بالأمر وثنى بالإناث: ٣٠، ٣١.

وقد ثبت شرعاً وواقعاً أن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، حيث قام بتمزيق حجب المجتمع وتحسيناته الضعيفة؛ وهو ما أدى إلى إجراء المياه الأسنة في منبع من منابع العفن الجنسي والتحلل الأخلاقي.

#### ٦- عاصفة اتباع خطوات الشيطان:

أوضح القرآن أن الشيطان هو العدو الأزلي للبشر، حيث ناصبهم العداة منذ أن أمر الله إبليس بالسجود لآدم، وبرهن القرآن على هذا العداة، ودعا إلى اتخاذ عدواً في المقابل، والحذر من غوايته، والتحصن من أسلحته.

وفي سورة «النور» دعوة كريمة ونداء عطوف من رب رحيم للمؤمنين بأن لا يتبعوا خطوات الشيطان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكٰتُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢١] والخطوات هنا هي مجموعة الطرائق والأساليب والوسائل والمداخل التي يتسلح الشيطان بها لإغواء ضحاياه من البشر.

وتزداد خطورة خطوات الشيطان في هذا العصر، لظهور وسائل كثيرة تساعده على خصمه الإنسان الضعيف الذي أوجدت وسائل الإعلام الفاضحة وشيوع التبرج والأزياء المثيرة قابلية عنده لتدخل الشيطان، إضافة إلى القابليات الطبيعية السابقة.

وقد ورد في بعض الآثار أن الشيطان يبث جنده في الأرض لفتنة المسلمين -بما يشبه المسابقة- حيث يعد أكثرهم فتنة بأن يلبسه التاج على رأسه، فيأتي كل واحد منهم بجريمة إلى أن يصل إلى أحدهم، فيقول: لم أزل بفلان حتى زنى، فيقول إبليس: نعم ما فعلت، فيدنيه منه ويضع التاج على رأسه<sup>(١)</sup>.

#### ٧- عاصفة الإصرار على الذنب:

تنقسم الذنوب إلى صغيرة وكبيرة، لكن الإصرار عليها هو ذنب آخر، فقد يُحوّل الإصرار الصغيرة إلى كبيرة، لأن معظم النار من مستصغر الشرر، إذ يبدأ الأمر صغيراً، فيحوّله الإصرار البارد إلى كرة ثلج كبيرة. إن عدم ولوج العاصي لباب الاستغفار والتوبة، يحوّل الذنب الصغير إلى انحراف كبير، وفساد عريض، وعاصفة خطيرة ربما أطفأت كثيراً من مصابيح الخير داخل المجتمع.

ولهذا حملت هذه السورة الكريمة دعوة مبطنة لمغادرة مستقع الإصرار إلى مربع التوبة والاستغفار، وذلك في الإشارات الآتية:

- استثناء التائبين المصلحين من العقوبات الأخروية الشديدة في حق جريمة القذف: ٥.

- حث الفاصلة القرآنية «تواب حكيم» -بأسلوب غير مباشر- لمن أجرم من الزوجين بحق الآخر على التوبة: ١٠.

- دعوة من تعرضوا للإساءة إلى العفو والصفح، من أجل نيل عفو الله ومغفرته فهو غفور رحيم: ٢٢.

- الدعوة الخفية إلى التوبة لمن مارس الإكراه ضد الإمام، وكذلك الإمام أنفسهم اللاتي مارسن البغاء: ٣٣.

١- انظر: شمس الدين الذهبي: الكبائر، ص ٤٧.



- الدعوة الصريحة للتوبة الجماعية للمؤمنين وجعلها طريقاً للفلاح:  
﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣١].

- أمر الله لرسوله ﷺ بالاستغفار للمؤمنين من أصحابه: ٦٢.

٨- عاصفة كف الأيدي عن مساعدة المحتاجين:

من المعلوم أن إنفاق الأموال من قبل الميسورين على المحتاجين هو من أقرب القربات في الإسلام، لأن ذلك يمتن الأواصر، ويشيع المودات، ويقضي على الفجوات، ويسد الثغرات الشيطانية التي يفتحها الفقر، ويجفف منبعاً من منابع المعاصي بظلماتها الحالكة. وقد رأينا كيف ذكرت سورة «النور» الزكاة في أكثر من موضع في السورة، وهي عنوان لحقوق الإنسان وقاعدة للعبادات المالية.

ولأهمية المال في تبديد ظلمات المعاصي، ونشر أنوار الطاعات وقناديل القربات، فإن الشيطان -بأسلحته وخطواته- لا يمل من تخريب الإنفاق، فكيف لو وجد ما تعده النفس البشرية مبرراً لعدم الإنفاق على فرد أو مجموعة ما؟!

ولهذا -وبعد آية التحذير من خطوات الشيطان- جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢٢]. ومن قراءة أسباب النزول<sup>(١)</sup> لهذه الآية يتضح أن مسطح كان ممن ينفق أبو بكر الصديق عليهم لفقرهم، وأنه كان ممن اشترك في تناقل حديث الإفك ضد أم المؤمنين، وهي ابنته عائشة، فأقسم أن لا ينفق عليه، فنزلت الآية، فقال أبو بكر: واللله إني لأحب أن يغفر الله لي، وعاد للإنفاق على مسطح.

١- انظر: عبد الرحمن السيوطي: أسباب النزول، ص ٢٩١.

وكان الآية تشير إلى أن الإنفاق على المحتاجين يجب أن يستمر مهما كانت الظروف، لأن إغلاق هذا الباب سيفتح على المجتمع باباً من أبواب الشر، ومنبعاً من منابع الفساد الحالك، فمن الطبيعي أن النور عندما يختمي فإن الظلام يحل مكانه).

#### رابعاً- وَمَضَات «النور»:

يبدو أن الوقوف مع هذه السورة قد طال نوعاً ما، ولذلك سأكتفي بالإشارة عن الشرح في عرض هذه الومضات الحضارية التي أطلقتها «النور»، وهي:

#### ١- الحرية:

جعلت «النور» الحرية أصل التكليف، ولذلك غفرت للجواري اللاتي أكرههن أسيادهن على البغاء: ٣٣، وأسقطت التكليف عن من لم يبلغوا الحلم، لأن العقل هو أساس الحرية والاختيار: ٥٨.

والرسول ﷺ نفسه لا يمتلك إلا الهداية السببية فحسب، ووظيفته البلاغ فقط: ٥٤. ونلاحظ احتفاء السورة بالحرية في أبسط الأمور، مثل عدم تسمية الرقيق عبداً بل: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [٥٨].

#### ٢- النسبية والعدل:

أظهرت السورة أن التفاوت في المقدمات يقتضي التفاوت في النتائج، ولذلك اختلفت الأدوار في إشاعة حديث الإفك، فكان الوعيد متفاوتاً: ١١. وتتضح النسبية والتفاوت في الدواب التي أصلها جميعاً الماء، لكنها تتفاوت في «الحركة» بين الزحف والسير على رجلين والسير على أربع: ٤٥.

#### ٣- قيمة الصداقة:

تتضح هذه القيمة في إدخال السورة للصديق ضمن قائمة الأقرباء الذين يجوز تناول الطعام في بيوتهم بدون حرج: ٦١.

#### ٤- قيمة العمل:

سمى القرآن العجايز اللاتي بلغن من العمر عتياً «القواعد»، لأن ضعفهن وأمراضهن يجبرهن على القعود كثيراً؛ وهو ما يعني أن القعود استثنائي وأن الأصل هو الحركة والعمل.

#### ٥- وحدة المجتمع:

كل القيم التي أرستها السورة تنطلق من أن المجتمع جسم واحد، ولكن هناك إشارات أخرى، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ [٦١]، ويرتبط بالوحدة النظام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [٦٢].

#### ٦- التنوع المتآلف زاد للحياة:

هذه القيمة مستتبطة من طريقة تكوُّن المطر، حيث يزجي الله سبحانه ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً، فينزل المطر: ٤٣ الذي هو سبب حياة كافة الكائنات، والتآلف يكون بين الشحنات الموجبة والسالبة، كما أثبت العلم الحديث.

٧- ما يكرهه المؤمن لنفسه ينبغي أن يكرهه لغيره: كما في الآية الثانية عشرة.

#### ٨- الكبائر لا تُخرج من دائرة الإسلام:

افتتحت السورة حديثها عن الإفك الذي أصاب أم المؤمنين عائشة بالقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [١١]، حيث عدَّهم من المسلمين رغم اقتراحهم لهذه الكبيرة. وعدت آية أخرى التولي عن طاعة الرسول ﷺ خروجاً عن الإيمان: ٤٧، لكنه ليس خروجاً عن الإسلام، بدلالة أن من فعل ذلك ظل محسوباً على جماعة المسلمين!.

٩- مصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد:

عَلَّقَ اللَّهُ مَكَاتِبَ الْأَرْقَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [٢٤]، ومفهوم المخالفة: إن لم تعلموا فيهم خيرًا فلا تكاتبواهم، لأن الواحد منهم قد يصير شوكة في حلق المجتمع إذا أصبح حرًا دون أن يكون من أهل الخير!.

١٠- الواقعية:

كل تشريعات الإسلام ونظمه وقيمه وآدابه واقعية، لكن بعضها تبرز فيها هذه القيمة بصورة أوضح، مثل: اللعان لحل الإشكال بين الزوجين إذا اتهم الرجل زوجته بالزنى دون أربعة شهود. ومثل تقديم الزانية على الزاني: ٢، لأن البشر يرون الزنى من المرأة أقبح، ولأنها في كثير من المرات تلفت نظر الرجل بمشيتها وزينتها وكلامها فتشده إليها، ولا سيما أننا نتكلم عن زنى وليس عن اغتصاب، أي أنه يتم بالتراضي بين الطرفين.

وتظهر الواقعية أيضًا في الدعوة لغض الأبصار: ٣٠، وعدم إبداء المرأة من الزينة إلا ما ظهر منها: ٣١، مما يشق عليها إخفاؤها. وإباحة إظهارها أمام من ملكت أيمانهن: ٣١ للحاجة.

١١- الجزاء من جنس العمل:

أشارت الآية: ١١ إلى أن الجزاء على حجم العمل، وأظهرت الآية: ٢٢ أن العفو عن الناس يوجب عفو الله، وعاقبت الآية ٢٣ القاذف باللعن والطرود من رحمة الله، لأن هذا الرمي هو طرد للمرمي من زمرة الشرفاء أمام الناس.

وأوردت الآية التي تليها أن الألسنة والأيدي والأرجل ستشهد عليه يوم القيامة، كأن رميه وقذفه لأعراض المؤمنين يشبه رمي وقذف المنجنيق على حصون الناس، حيث تشترك هذه الأعضاء جميعًا في العملية. ولهذا أوضحت الآية الأخرى التي تليها: ٢٥ أن الله سيوفيههم «دينهم الحق» أي

جزاء هم العادل. وأوجبت الآية ٢٦ المماثلة في الزواج بين الطيبين والطيبات، وكذا بين الخبيثين والخبيثات.

أما الآية ٣٩ فقد شبهت عمل الكافر بالماء في قيعه وكل من جاءه يكتشف أنه سراب، كأن في ذلك إشارة إلى أن أحدًا من الخلق لم يستفد من أعمال هذا الكافر، ولأن الجزاء من جنس العمل فإن الله سيوفيه حسابه، وستتبخر هذه الأعمال بسبب الكفر كما تبخر الماء في عيون الرائيين وصار سرابًا!.

١٢- افتراض أن العقل يعمل دائمًا:

العقل يفكر ويحلل ويقرر، ولكن من خلال المعلومات التي يوصلها السمع والبصر، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [٤٤]، فلم يقل لأولي العقول، فكأن العقل في حالة عمل، وبمجرد إعمال البصر يفكر العقل بهذه الآيات الكونية، بمعنى أن الإسلام يفترض أن عقل المؤمن يعمل دومًا، ولا يتوقف عن العمل!.

## قبل الختام

أبرزت عناوين سور القرآن عامة، والسور المدروسة في هذا الكتاب على وجه التحديد، كل متطلبات النهوض الحضاري وشروطه المادية والمعنوية، المنتمية إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، المرتبطة بالسنن الجارية والسنن الخارقة، الناشطة في دائرة حقوق الله وحقوق الإنسان، المتوسلة بالتخلية والتحلية، والمتسلحة بالترغيب والترهيب..

ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

١- تطابقت أسماء السور القرآنية عامة مع عناوين النهوض، حيث شكلت أعلامها بيارق للنهضة، ورسمت مربّعاً للنهوض الحضاري، يخط ضلعه الأول الإيمان بأركانه الستة، ويكشف ضلعه الثاني عن مركزية الإنسان بطبائعه وتحركاته ومعاملاته، ويحدد الضلعان الثالث والرابع الأفكار والقيم والطاقات والوسائل المطلوبة لإقامة الحضارة.

٢- مثلت القراءة محطة الانطلاق الأولى في الطريق لإيجاد «العلق» الحضاري، فللقراءة أهمية بالغة في استثمار آيات القرآن عبر التدبر، وآيات الكون عبر التفكير، وآيات الأنفس عبر التبصر، وكذلك في إرساء قيم العزة والكرامة، وفي اجتثاث قيم وإمكانات الطغيان، وهي بعد ذلك طريق السجود الشامل لله في محراب الحياة، والأداة الرئيسة لبناء الإنسان بطريقة عملية.

٣- بيّنت «النمل» عوامل مضاعفة الفاعلية الحضارية، وهي:

- الاستمداد من منهل الفاعلية، وهو القرآن الكريم.
- إقامة حقوق الله كاملة في ميناها ومعناها.
- أداء حقوق الناس والحذر من محبطات ومعيقات الفاعلية على كل الصعيد.

- التفكير العلمي المنهجي الذي يكتشف ويستثمر آيات الله في البناء متمثلة في طاقات الإنسان وإمكانات الكون.
- العلم الشامل والمنهج السببي في تفسير وفهم الظواهر والمشاكل ومعالجتها والإفادة منها.
- إرساء العديد من المبادئ والقيم الحضارية، وأهمها: الحرية والمسؤولية والثواب والعقاب والموضوعية والإنصاف والشورى والحوار والتبيين والتثبت والخلافة والإعذار ومعرفة الواقع والناس، وأهمية استعراض القوة، وأهمية المظهر، والتبسم والضحك، والأصطفاء.
- ٤- رسمت سورة «الأنعام» صورة كاملة للخصال القاتمة لكفار البشر، والتي تتكفل بتحويلهم إلى نسخ ممسوخة من «الأنعام» حيث تستلب آدميتهم العزيزة وإنسانيتهم الكريمة أربع وعشرون خصلة، تفنتت السورة في توضيحها وتشريحها والتحذير منها، وأهمها:
  - العدول عن ألوهية الله.
  - الممارسة في البعث.
  - تكذيب الأنبياء.
  - الصمم والعمى عن آيات الله.
  - الإكثار من طلب الآيات الحسية.
  - الشرك والوثنية.
  - التحليل والتحريم المزاجي.
  - الكذب على الله.
  - الأوهام والتخرصات.
  - قسوة القلوب وتجمد العقول
  - العمّة في الطغيان.

- الإجرام والمكر.
  - مقارفة الكبائر ومساوئ الأخلاق.
  - الفسق والإسراف.
- ٥- أبرزت سورة «سبأ» عوامل الخلاص من التشطي الذي فرَّق «أيدي سبأ» في التاريخ العربي المعروف، مما كانت له آثاره وتداعياته السلبية الواضحة في طغيان الحس الفردي إلى الآن عند العرب عامة واليمنيين خاصة، وقد عمدت السورة إلى تجفيف أهم منابع الفرقة والتشطي عبر سبع محطات، هي:
- إرساء مبادئ التوحيد والخشية من الله وحده.
  - إطلاق العنان للتعلم والفكر.
  - العمل المنضبط لعمارة الحياة.
  - عدم احتكار الحقيقة المطلقة.
  - إشاعة ثقافة الشكر والتوبة.
  - الدوران في فلك العالمية.
  - الحذر من شياطين الإنس والجن.
- ٦- تولت سورة «الكهف» اكنناز عوامل الفاعلية الحضارية بقوة وأهمها:
- النظرية الصحيحة في البناء الحضاري.
  - بناء دولة القرآن في قلب المؤمن.
  - العلم بحقائق المعاش والمعاد.
  - المنهج السببي واستثمار سنن الله الكونية والاجتماعية في العمارة.
  - الشعور بالمسؤولية والسلوك الإيجابي في صناعة الحياة.
  - إقامة موازين العدل بين الناس ووضع مداميك المساواة بين الخلق جميعاً.



٧- تولت سورة «النحل» صناعة «العسل» الشايف للناس من داء الفوضى، وقد جمعت رحيقه من ثمانية بساتين مليئة بالورود والأزهار والثمار، وهي:

- غرس التوحيد وتحفيف منابع الشرك.
- الاهتمام بقضية تسخير الله كل المخلوقات لصالح الإنسان.
- إثبات ارتباط الشرك بالتدمير وارتباط الإيمان بالتعمير.
- استدامة المراقبة لصاحب العلم المطلق والحذر من عقابه الأليم.
- بيان أن القرآن هو المخرج ما أحسن الناس تدبره.
- إعمال العقل في آيات الأنفس والآفاق.
- الاهتمام بالتخصصات واحترام الاختلاف.
- التحلي بالقيم والأخلاق الفاضلة.

٨- أبرزت سورة «آل عمران» عوامل الاصطفاء الخمسة لهذه الأسرة الكريمة وفق ما جاء في قصصهم - في هذه السورة- وأبدعت في بيان عوامل الاصطفاء والاجتباء عامة، وهي مقومات «خير أمة أخرجت للناس»، أمة الشهود الحضاري على البشر إلى قيام الساعة، وهي:

- الإيمان بالله وطاعته.
- العبودية لله في محراب الكون والتسابق على فعل الخير.
- الاستفادة من الآخرين.
- التحرك في دائرة الأسباب.
- التربية والتعليم.
- الاتصال بالوحي واستمداد هداية السماء.
- تعظيم شعائر الله وإقامة جسور الدعاء معه.
- الفرار إلى الله عبر أبواب المحبة.

- الاستغلال دومًا تحت كنف السلام.
  - التحلي بأخلاق أصحاب العزائم.
  - التسلح بالعلم والتحصن بالفكر.
  - استثمار سنن الله الاجتماعية.
  - الاستفادة من قصص السابقين.
  - الموضوعية وعدم التعميم.
  - المسارعة في الخيرات ومساعدة الخلق.
  - الجهاد الدعوي والقتالي.
  - احترام حرية الآخرين مع إقامة الحجة عليهم.
  - الائتلاف بين مكونات المسلمين وإشاعة الحس الجمعي بينهم/
  - عمارة الدنيا لا عبادتها.
  - إشاعة ثقافة التوبة والنقد الذاتي .
- ٩- شقت سورة «الحديد» الطرق العشر الأكثر فاعلية في صناعة الحياة واستعمار الأرض، مع ما يحتاج ذلك من شكر عند الأفراح وصبر عند الأتراح، هذه الطرائق هي:
- الانتماء إلى تيار الكون العبادي الجارف.
  - العيش دومًا تحت رقابة الله الصارمة.
  - الإيمان باستخلاف الله للإنسان، ولا سيما في المال.
  - الإيمان بالآيات البيّنات وإقامة الأعمال الصالحة التي تثير دروب الدنيا.
  - تحصيل القلب وتحصيل العقل.
  - الإيمان السوي بالقدر واقتطاف ثماره اليانعة.

- إقامة الحياة على العدل والحديد.
  - المحافظة على كرامة الفرد والمجتمع.
  - التجديد.
  - إشراك كل طاقات المجتمع في العمل والإنتاج .
- ١٠- أبدعت سورة «محمد» في إبراز صفات المنضوين تحت لواء محمد ﷺ؛ لأن الانتماء إليه شرف مروم، وليس مجرد أمنية أو انتماء عرقي أو طقوسي أو عاطفي، وأهم صفات المنتمين إلى «محمد» ست صفات رئيسة:
- الإيمان المثمر والمستمر.
  - الولوع إلى مرضاة الله من أبواب الأسباب
  - فتح النوافذ للعقل لتبصر آيات الله
  - التسلح بالعلم والعرفان
  - التحلي بالأخلاق والآداب الطيبة
  - الجهاد العملي الشامل
- ١١- سلطت سورة «النور» مجهرها الكاشف على النفوس والعلاقات الاجتماعية، وعملت عبر شلال نورها على تحلية المجتمعات بفضائل الشموس، وتخليتها من رذائل النفوس، وعملت على تحقيق هذه الغاية العظيمة من خلال أربعة عناوين: تمحور الأول حول: مصابيح النور، وانتقل الثاني إلى الحديث عن المحطات التي ترسل النور إلى المصابيح، وحدد الثالث عواصف الظلمات وحذر منها، أما العنوان الرابع فقد ركز على إبراز ومضات النور الحضارية في هذه السورة الكريمة التي أنارت دروب المجتمع بمصابيح الفضائل، وحاصرت الرذائل والقذارات التي تنال أو تنتقص من أعراض المجتمع وأنسابه وشرفه. وكان هذا الشلال النوراني هو مسك هذه الدراسة.

## الخاتمة

### حقول صناعة أجنحة الإقلاع

وبعد هذه السياحة التأملية التحليلية في محيطات هذه السور العشر، يبدو واضحًا للعيان مدى اهتمامها بصناعة أجنحة الإقلاع الحضاري للأمة، فقد تضافرت على التصنيع والتمتين بصورة معجزة، وبدا بأن المواد والعوامل الداخلة في صناعتها لا يخرج أكثرها عن إطار ثلاثة حقول:

الأول: حقل الآيات القرآنية، وُعدَّة المسلم فيه هي التدبر.

الثاني: حقل الآيات الكونية، وعدة المسلم فيه هي التفكير.

الثالث: حقل الآيات الاجتماعية، وعدة المسلم فيه هي التبصر.

وعندما يتحرك العقل بطاقات التدبر والتفكير والتبصر، ويُشْفَع ذلك بالمشاعر القلبية، ويُتبعه بحركة الجوارح وعمل الحواس ونشاط الأعضاء، فلا شك أن ذلك يوصل إلى الذروة العالية من الفاعلية في صناعة الحياة.

وإذا رتبنا الأمور منطقيًا، ودخلنا البيوت من أبوابها، فإن الولوج إلى هذه الحقول يتم عبر بوابة «اقرأ»، القراءة التي تأتلف فيها آيات القرآن وآيات الأكوان وآيات الإنسان، وتتكامل فيها كتب: القرآن، والكون، والإنسان.

وبما أن الطريق إلى ذلك كله هو القرآن، فإن هذه الدراسة تؤكد أن القرآن بكل آياته وسوره ومقاطعته، هو منهج شامل لإقامة «خير أمة أخرجت للناس»؛ الأمة التي إذا تمكنت في الأرض قدّست حقوق الخالق وأقامت حقوق الخلق، وأمرت بكل معروف وخير وسعت لجلبهما، ونهت عن كل شر وضير وسعت لدفعهما. وإن كل ما يمت بصلة لهذا القرآن ليؤكد عند النظر الفاحص إليه على أنه المصنع الذي تُصنع فيه «أجنحة الإقلاع الحضاري»، وهذا ما توصلت إليه هذه الدراسة على وجه القطع واليقين.

## أسماء وصفات القرآن تحثان على النهوض الحضاري:

ونود - لما سبق- أن نجعل مسك هذا الكتاب التأكيد على هذه القضية من خلال القرآن نفسه، بإيراد أسماء القرآن وصفاته، والإشارة إلى علاقتها بالنهوض الحضاري.

### ١- أسماء القرآن:

أ- الكتاب: وهو الذي أودع الله فيه النظرية الكاملة لإقامة أمة الخير والوسطية والشهادة على الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥، ١٦﴾. وسبل السلام بالتأكيد ليست سبل الجهل والفقر والمرض والبطالة والتقليد.

ب- الفرقان: وهو الذي يحول دون تشابه المبادئ والتباس المفاهيم على الناس؛ بإزالته للآتربة، وطرده للأدخنة، وتبديده للغيوم التي تحجب الحقيقة وتصنع الغبش وتعمي الرؤية، بحيث يستبين «سبيل المؤمنين» وصراط الحق القويم، وتتضح معالم التمكين وطرائق الوصول إليه، وتستبين في المقابل «سبيل المجرمين» وسبل الباطل ومناهجه ودركاته وطرائق الوصول إليه.

ج- التنزيل: الذي يمنح الثقة للمؤمن به والسائر على هديه، بأنه يتبع منهجاً معصوماً عن الخطأ والنقص والنسبية في أصله، ولهذا فإنه يصلح لكل زمان ومكان، ويصلح كل جيل وقبيل، لأنه منهج رباني نزل من السماء من قبل صاحب العلم المطلق للترقي بطبائع ومعاملات خلقه من دركات وانحطاط تراب الأرض إلى علو وسمو روح السماء: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿الشعراء: ١٩٢، ١٩٣﴾.

د- الذِّكْر: الذي يُشْرَفُ من يحمله بالعلم والفكر والقوة والسعادة والكرامة والغنى والوحدة والنصر والتمكين في الدنيا، ثم الفوز والرضى والتعليم والنظر إلى وجه الكريم في الآخرة: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]. ومثلما ركز اسم «الكتاب» على العقل، فإن اسم «الذكر» ركز على القلب، لأنهما مضغة صناعة التغيير والحضارة داخل الإنسان.

٢- صفات القرآن:

أ- النور والبصائر: لأنه ينير قلوب المؤمنين حتى يكون أصحابها لبنات قوية في صرح الحضارة، ومثل ذلك صفة «البصائر»، وهي جمع بصيرة، لأنها تثير دروب الناس.

ب- البيان والتبيان: البيان لأنه يوفر الحجج الدامغة على أحقية منهج الله في بناء الحضارة وتنظيم حياة الإنسان، أما «التبيان» فيكشف بأوضح بيان كل شيء ذي صلة بالعبادة وعمارة الحياة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ج- الهدى: الذي يصنع البوصلة التي تساعد الناس على السير في دروب الحياة وعدم الوقوع في براثن التخلف الحضاري البهيم.

د- المبارك والكريم: الذي اكتنز كل المعاني الحضارية في مبانٍ محدودة مختصرة، وتظهر بركته بالتدبر، وهذا ما يؤكده اقتران صفة البركة بالتدبر في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَبْرُوءٍ وَإِنِّي لَهُ لَمُتَدَكِّرٌ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] فالمباني محدودة والمعاني غير محدودة.

ووصف الله تعالى القرآن في آية أخرى بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]: لأنه يهب المتدبر له كنوزه المعرفية، ونفائسه الروحية، ودرره التربوية، بكرم الكريم المنان، وبدون أي مقابل سوى (اجتهاد) التدبر في البداية وجهاد العمل في النهاية، وفي كل الأحوال فإن الثمرة تعود على

الإنسان، بالتمتع في فردوس الأرض، والفوز بفردوس السماء.

هـ- المجد: لأنه الطريق الوحيد والدافع الأكيد للإنسان للوصول إلى ذروة المجد وأعالي السؤدد ومنارات الحياة الحرة الكريمة.

و- الموعدة: لأن توجيهاته وقصصه بجانب عقلانيتها وواقعيتها فإنها مغموسة بالعاطفة التي تخالط شغاف القلوب، في سياق الترغيب بسلوك طرق عمارة الحياة وفق الرؤية القرآنية، والترهيب من عواقب الانحراف في الحال والمآل.

ز- الرحمة: لأن القرآن التجسيد النظري لرحمة الله بالخلق وحبه لهم ورأفته بهم، وحرصه على ما يصلحهم في المعاش والمعاد.

ح- الشفاء: لأنه يملك البلسم لجراحات الناس وعلل قلوبهم، ويستطيع مداواة المجتمعات، وتخليصها من سمومها وآفات وأمرضها.

ط- البلاغ: لأنه سجّل رسالة الله إلى عباده، وإنذاره لهم من سوء المآل وبؤس العواقب إن تنكبوا الطريق، وانحرفوا عن صراط الله المستقيم، وقطعوا صلّتهم بحبله المتين وهو القرآن المبين.

ي- العلي والحكيم: لأنه يستهدف رفع الناس إلى مقامه الرفيع: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤]، أما الحكيم: فلأنه تنزيل من حكيم حميد، حيث يعلم تعالى ما كان وما هو كائن وما سيكون، ولهذا أنزل هذا المنهج الحضاري لعمارة الأرض، بحيث وضع كل شيء بمقداره الدقيق، في زمانه ومكانه المناسبين.

ك- البشير والناذير: لأنه يُبرز المآلات الطيبة لمن تمسك به رأي العين، ويُحذر من العواقب الوخيمة لمن أعرض عن هداه وتوجيهاته القيمة، بأربع صور التحذير والإنذار.

ومن هنا نخلص إلى أن عملية استئناف الإقلاع الحضاري مقترنة بالعودة

إلى القرآن، وحجر الزاوية في تلك العودة هي عملية التدبر، وهي الفريضة الغائبة في هذا العصر، رغم توفر الملايين من حفظة القرآن، فلو فقه هؤلاء جميعاً القرآن وعملوا به لغيروا الكون برمته!.

وأول ما نريد من القراء إعمال عقولهم تدبراً فيه هو موضوع هذا الكتاب نفسه، فلو حدث ذلك لاكتشفنا أن أسماء السور وحدها ثروة كبيرة من الدرر التي تستطيع تحرير المسلمين من انحطاط التخلف، وأغلال الجهل، ورق العبودية لغير الله، ووهن القوة، وتفكك الأواصر، والغثائية الحضارية عامة.

إن أسماء هذه السور مختارة بعناية فائقة، حيث تستطيع بتظاferها داخل العقل الجمعي المتدبر، وعند صاحب القراءة المقاصدية أن تشكل منهجاً متكاملًا للبناء الحضاري واستعمار الأرض، وخدمة الخلق وصناعة الحياة.

إن إعمال العقل بكافة قواه يجعل بالإمكان تحويل (روائع) السور إلى (روافع) فعلية ترتقي بالإنسان في سماوات العبادة والعمارة والخلافة، وهذه هي المضامين الحقيقية للحضارة في الرؤية القرآنية.

توفر هذه السور بأسمائها والقضايا التي تتمحور حولها محركات للانطلاق الحضاري، لأنها تضم في بطونها كل مقومات النهوض وأسس التقدم ومداميك البناء.

ولو أردنا تلخيص متطلبات وشروط الانبعاث الحضاري في كلمة عريضة وعناوين جامعة قصيرة، لما وجدنا أفضل من أسماء هذه السور؛ لأن العناوين القرآنية ذات مضامين حضارية، ولأن العنوان الجامع يستطيع إحداث نهضة جامعة، فكيف إذا استوعبنا ما بداخل السورة وما تحت العنوان؟!.

غير أن كل هذه الثمار الحضارية لا تخرج من بطون السور إلا عبر رحم



التدبر، ولذا نختم هذه الدراسة بالدعوة العامة والعاجلة والضرورية إلى التدبر فهو مفتاح القرآن السحري، والقرآن هو مفتاحنا السحري إلى الحضارة بكل ما فيها من قيم العبادة والعمارة والخلافة والابتلاء.

ولهذا نوصي قراء القرآن وأقسام علوم القرآن والدراسات الإسلامية في الجامعات والمعاهد والمدارس القرآنية بالتركيز على التدبر أكثر من الحفظ في كل المواد ذات الصلة بالقرآن -فالتدبر فريضة والحفظ نافلة-، مع تخصيص مادة نظرية اسمها «تدبر» لدراسة أهمية التدبر ومعرفة المنهج الكامل للتدبر الأمثل للقرآن الكريم.

واللّٰهُ من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.







- ١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.  
د. عبد العزيز برغوث.
- ٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).  
د. عبد الله الطنطاوي.
- ٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.  
د. محمد إقبال عروي.
- ٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.  
د. الطيب برغوث.
- ٥- ظلال وارفة ( مجموعة قصصية).  
د. سعاد الناصر ( أم سلمى).
- ٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.  
د. مصطفى قطب سانو.
- ٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.  
د. عبد الكريم بوفرة.
- ٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.  
د. إدحام محمد حنش.
- ٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.  
د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجري.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

\_\_\_\_\_ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

\_\_\_\_\_ د. عمر أحمد بوقرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

\_\_\_\_\_ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

\_\_\_\_\_ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

\_\_\_\_\_ أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

\_\_\_\_\_ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

\_\_\_\_\_ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

\_\_\_\_\_ د. حسن الأمراني

\_\_\_\_\_ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

\_\_\_\_\_ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضاوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرته النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرياني

د. ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفييل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكمة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان



٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثة.

د. فاطمة خديد \_\_\_\_\_

٤٦- في ميزان الإسلام.

د. عبد الحليم عويس \_\_\_\_\_

٤٧- النظر المصلي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح \_\_\_\_\_

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة \_\_\_\_\_

٤٩- القيم الروحية في الإسلام.

د. محمد حلمي عبد الوهاب \_\_\_\_\_

٥٠- تلاميذ النبوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي \_\_\_\_\_

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د. فؤاد البنا \_\_\_\_\_

## نهر متعدد.. متجدد

### هذا الكتاب

... وتفترض الدراسة -بل هذا ما تؤكده بعد انتهاء رحلة الغوص- أن كل سورة تتظافر آياتها وتتكامل مقاطعها جميعاً في سياق صناعة جناح من الأجنحة المطلوبة للأمة لمعاودة الإقلاع الحضاري واستئنافه، هذا الجناح يمكن معرفة كنهه من خلال التأمل العميق في اسم السورة ومقاطعها وآياتها. وفي الأخير لا بد أن يكون هذا الجناح ذا صلة بموضوع من موضوعات النهوض الحضاري، ويُعبّر عن هذا الموضوع بعنوان ما، من المؤكد أن يمثل اسم السورة حجر الزاوية في هذا العنوان.

وهذا الأمر بحاجة إلى تدبر عميق، وربط للنصوص الجزئية بالمقاصد الكلية لهذا الدين الذي أرسى مداميكه هذا الكتاب الحكيم المهيمن على كل أبعاد الهداية...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

[www.islam.gov.kw/thaqafa](http://www.islam.gov.kw/thaqafa)